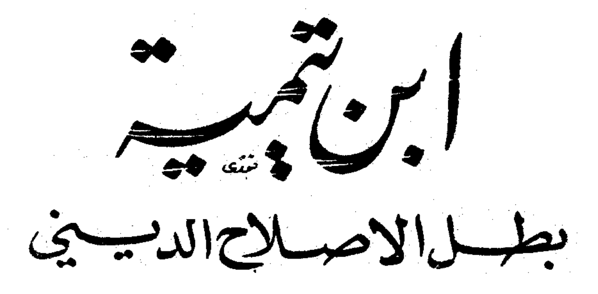


بقلم

محمود مهدي الاستانبولي

الطبعة الثانية منقحة وفيها زيادة هامة

١٣٩٧ - ١٩٧٧

يطلب من مكتبة دار المعرفة بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الجيل الجديد

الى طلاب الحقيقة

الى رجال الاصلاح الديني

اقدم

هذه الصورة العظيمة للمصلح الكبير

شيخ الاسلام ابن تيمية

فانهم واجدون فيها :

شعلة لا تنطفيء

وقوة لا تلين

ودرسا لا يمحى

وخلقاً عظيما

وجهاداً جبارا

أنشد الإمام نجم الدين بن سليمان بن عبد القوي قصيدة في الثناء على الإمام ابن تيمية جاء فيها :

يا أهل تيمية العالين مرتبة ... ومنصباً فرع الأفلاك تبيانا
جواهر الكون أنتم غير أنكم ... في معشر أشربوا في العقل نقصانا
لا يعرفون لكم فضلاً ، ولو عقلوا ... لصيروا لكم الأجفان أوطانا
يامن حوى من علوم الخلق ماقصُرت ... عنه الأوائل مُذ كانوا إلى الآنا
إني لأقسم ، والإسلام معتقدي ... وإنني من ذوي الإيمان ، أيمانا
لم ألق قبلك إنساناً أسَرُّ به ... فلا برحت لعين المجد إنسانا

وأنشد الشيخ شمس الدين ابو الثناء المنبجي في الثناء على الامام ابن تيمية قصيدة اخترنا منها :

ياعالماً جلَّ عن ضد يضاهيه ... وفاق أقرانه فيما يعانيه
ياذا الفضائل ، يازين الأماثل ، يا ... مردي المماثل ، ياموهي مناويه
يامن إذا رمت أن أحصي مناقبه ... نظماً ونثراً وأنشيه وأرويه
حُصرت لولا سجاياه تهذبني ... لما ظفرت بمعنى من معانيه
ياعمدة المقتدي حقاً ومقنعة ... فيما يروم ، وكافيه ومغنيه
أبديت تعجيز أهل النظم فاعترفوا ... بالعجز عن كنه ما أصبحت تبديه
لله كم ميت علم أنت تنشره ... من بعد ما كادت الأيام تطويه
يا كاشف المشكلات المعضلات لنا ... بأبلج مستنير من فتاويه
يا من أبى مقولي إلا مدائحه ... ولو مدحت سواه كنت أعنيه[1]

---

(١) العقود الدرية للامام الحافظ محمد بن عبد الهادي .

ان العالم الديني الحق – خلافاً لكثير من العلماء – لا يعيش بين الكتب ، مكتفياً بالنسخ والتأليف فحسب ، ناظراً الى الناس من برجه العاجي ، غير مهتم في خوض معركة الاصلاح الديني ، ومحاربة من يعبث بالدين ، او يضيف اليه البدع والاوهام !

ان العالم الديني الحق لا يتهرب من ميدان النضال الفكري في سبيل الدفاع عن الحقيقة الجريحة والحرية المهددة ، بل يتولى مكان القيادة ويكون من رواد النهضة والثورة على الباطل !

ان العالم الديني الحق لا يعيش في المسجد فقط ، بل يلبي داع الجهاد ، فيكون في الطليعة على الدوام ، ولو قاده ذلك الى العذاب والسجن والموت .

ان العالم الديني الحق لا يعرف العزلة ، ولا يصرفه حب الوظيفة والمال عن القيام في وجه الظلم والظالمين ، مغمضاً عينيه ومغلقاً اذنيه عن نداء الواجب !

ان العالم الديني الحق بعيد النظر دائم التفكير ، يتحسس بمبلغ خسارة الامة من ابتعادها عن اسلامها ، وانصرافها عنه الى البدع والاوهام التي تجلب الويلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل والعقلية ، فتذل نفوس المسلمين وتضعف شخصياتهم ، ويصبحون عرضة للاهانة ، فيطمع فيهم العدو المتربص ويغدون نهباً مقسماً !

ان العالم الديني الحق قل ان يجود بمثله الزمان ، يبعثه الله – تعالى – من حين الى آخر ليجدد للامة أمر دينها ويعيدها الى اسلامها الصحيح فيكون مثله مثل النجم الهادي في الليالي الحالكات .

وقد من الله – سبحانه – على هذه الامة في القرن السابع الهجري بمثل هذا العالم الحق ، فكان كالطود الاشم في وجه الاعاصير ، وكالشمس المضيئة في وجه الظلام الداجي .

جاء هذا العالم في وقت عم فيه الجهل المركب ، وهو العلم بالشيء على خلاف الحقيقة ، انتشر هذا الجهل الخطير، وخدع الاغرار ، وكثيراً من رجال الحكم ، وشرد الفكر ، ومد اخطبوطه في اعناق المصلحين ودعاة التجديد يحاول خنق أنفاسهم.

وحملة هذا الجهل المركب وصفهم الله ـ عز وجل ـ في الآية الكريمة فقال : « قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً !! »

لقد تلوثت ضمائرهم ، فليس فيها للحق والاخلاص مكان ، وهم لا يتقاعسون عن تزوير الحوادث ونسج الوشايات وقلب الحقائق في سبيل الوصول الى قهر رجال الاصلاح الديني الذين يكشفون عن جهلهم ويفضحون انتهازيتهم ، ويميطون اللثام عن جرائمهم !

والمصلحون لا يحتاجون الى جهد كبير من اجل دحض مزاعم هؤلاء الخفافيش الذين يؤذيهم نور الحقيقة ، فهم سرعان ما يتساقطون كما تتساقط الفراشات على ضوء المصباح، لولا انهم يحتمون بالغوغاء والبسطاء من بعض رجال الحكم والعامة الذين سمموهم بخرافاتهم وغرروهم بعمائمهم الشبيهة بالابراج ، وأكمامهم الشبيهة بالاخراج!

في هذا الجو الحالك المكفهر ، نزل ابن تيمية ـ موضوع كتابنا ـ وحده الى الميدان ، وسنرى في الصفحات التالية صورة للمعركة بين العلم الصحيح ، وبين الجهل المركب ، ولمحة عن الصراع بين الحق والباطل ، كما نرى صورة للعالم المتسامح والبطل المجاهد الذي يترك محراب العلم اذا دعا داعي الله ، ليلتحق بميدان الحروب ويحقق الظفر لأمته .

●

كان المسلمون قبل عهد الامام ابن تيمية تائهي العقيدة قد ضاعوا

بين آراء المعتزلة وآراء الاشاعرة - كما سنرى - وقد اقتبسوا اغلب أفكارهم من فلسفات اليونان والهند وفارس وأسسوا ما سموه بعلم الكلام واطلقوا عليه اسم التوحيد ، وفيه كل شيء الا التوحيد !وقد نهى عن دراسته جميع ائمة المذاهب واعتبروه سبيلا للكفر والتضليل !!

فجاء الامام ابن تيمية ووضع شعلة القرآن ونور السنة على طريق المسلمين ، وهداهم الى التوحيد الصحيح ، والايمان بصفاته تعالى دون تأويل ولا تشبيه حسب عقيدة السلف وهم وحدهم - ومن تبعهم باحسان - الفرقة الناجية التي تحدث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة ، ثنتان وسبعون في النار ! وواحدة في الجنة ، وهي : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم اصحابي [1] » .

وهكذا انقذ شيخ الاسلام ابن تيمية المسلمين من الضلال والزيغان كما أنقذهم من الذل والاستعمار - كما سنرى - وقد كافأه الجامدون والمبتدعة والمتصوفة مكافأة سنمّار ، فاضطهدوه واتهموه بضعف في الدين ومروق من الاسلام ، وهم - في الحقيقة - الضعفاء في الدين والمارقين من الاسلام لو كانوا يعلمون ، ووشوا به الى الحكام ونسجوا حوله الافتراءات حتى سجن في كثير من ايام حياته ، ومات سجيناً في قلعة دمشق . كما هو مذكور مفصلاً في صفحات هذا الكتاب .

ولو اصغى هؤلاء الحكام لكلامهم لكان مصيره التشريد والقتل شأن الجناة والسفاكين ! ومانقم منه هؤلاء الشيوخ الا انه دعاهم لما يحييهم : دعاهم الى الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيهم ونبذ الخلافات المذهبية والطرق الصوفية والفرق الضالة .

---

(١) رواه ابوا داود والترمذي والنسائي وابن ماجة بسند صحيح عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه.

كرسي الإمام ابن تيمية

ما أجدر علماء المسلمين بجعل كرسي للإمام ابن تيمية رحمه تعالى وأجزل ثوابه في كثير من كليات جامعاتهم، ليكون إماماً وقدوة الطلبة في الثبات والشجاعة والدأب على العلم والصبر على الجهاد، وقد وُجد في عصر نكسة هاجم خلالها التتار كثيراً من أجزاء العالم الإسلامي كما رأينا في غير هـــذا الموضع، حتى كادوا يهددونه بالفناء، فصبر وصابر حتى حوّل النكسة الى نصر.

قام بوجه التتار – كما نقوم نحن اليوم في وجه اسرائيل والاستعمار – فاستطاع بإيمانـــه وعبقريته أن يوحد بين الجيش المصري والجيش السوري القضاء على التتار الذين كانوا يهددون الحضارة كلها والعالم بأمره، فقد كان الغربي نفسه في أوربا يخشى أن يصطاد على سواحل بلاده خشية من التتار الذين أرعبوا الدنيا وقد اشترك الإمام ابن تيمية بنفسه في هـــذه المعركة وأبلى فيها بلاء حسناً حتى تم له النصر.

كما قام ابن تيمية في وجه الفلاسفة المسمين بالمسلمين، وقد أبدعوا في ميادين العلوم ولكنهم أساؤوا للأمة الإسلامية اساوة كبرى بنقلهم فلسفة اليونان الوثنية المنحرفة وتأولهم للقرآن من أجل أن يتفق معهـــا. فضلوا وأضلوا وسببوا إنقسام المسلمين الى فرق متنازعة وقد قال هذا الإمام: «إن الله لن يغفل عن الخليفة المأمون في نقله وترجمته هذه الفلسفة إلى المسلمين»

كما وقف كذلك الامام ابن تيمية ضد الخرافيين الذين زيفوا الإسلام وأبعدوا المسلمين عن قرآنهم وسنة نبيهم بما أدخلوه من خرافات عليه، عكرت صفاءه وشوهت جماله وعاقت انتشاره.

فدعا هذا الامام بقوة وحماسة الى توحيد المذاهب على ضوء القرآن

والسنة ليكون العالم الإسلامي قوة موحدة في وجه أعدائه . وأنقذ الاسرة الإسلامية من التشرد بسبب ما أدخل على هـــذا الدين من نظم خاطئة في الطلاق وهي بعيدة عن روح الاسلام السمحة .

وقد وبى هذا الإمام الأمة الاسلامية تربية قوية بإعادتها الى نبـــع الإسلام الصافي وحال بينها وبين الدجاجلة والمشعوذين من أدعياء الدين الذين قاوموا اصلاحاته عن طريق الدسائس والافتراءات .

لقد أنكرت فضله حتى الجامعات الاسلامية وكان من الواجب أن يدخل بقوة وترحاب في منهاج كلية الشريعة وكلية الفلسفة وكلية التاريخ .

فله في كل ذلك عشرات المؤلفات والمقالات وحتى كلية الآداب بسبب اسلوبه المشرق والسهل الممتنع ، وقد فتح للأدب آفاقاً رحبة وجديدة في العقيدة والفقه والعـــلم والجهـــاد وفي ، والدفاع عـــن الرأي ، وله شعر جيد غزير المادة يجب ان يكون بديلاً عن ذكرى سعاد وليلى وندب الأطلال والتغزل بالنساء ، ووصف الغزلان وبقر الوحش ... مما كان سبباً في فساد ناشئتنا وانحلالها .

وقد سجن ومات في السجن بسبب آرائه الصحيحة والجريئة التي رفضت في تلك العهود المظلمة بسبب الجهل والتعصب الأعمى ، ولكن عادت أكثر المحاكم الشرعية وأخذت بها ، فانقذت بذلك الأسرة الاسلامية من التشرد والتصدع وارتكاب الزنى بحيلة التحليل وقد قال رسول الله ﷺ : « لعن الله المحلل والمحلل له » رواه أحمد وغيره وسنده صحيح . فما أجدر جامعاتنا الاسلامية وخاصة جامعة دمشق التي يحل ضيفاً عليها وضريحه في وسطها — ان تنشىء له كرسياً يسمى (كرسي ابن تيمية) سواء في كلية الشريعة او كلية التاريخ او كلية الفلسفة للافادة من آرائه الصائبة وروحه الجامعية الوثابة واخلاصه العظيم ، وعلمه العميق ، وصبره الدائب ، وترفعه عن المادة .

والغريب جداً ان الكثرة الساحقة من علماء المسلمين لم تعرف لشيخ الاسلام حقه ، فهي لاتزال تضمر له العداء والخصومة ، وهي لو انصفت لاضمرت العداء والخصومة لنفسها الامارة بالسوء!! واذا كان الادعياء والمحترفون من العلماء قديماً قد ابغضوا الامام ابن تيمية عن علمهم الناقص، فان الادعياء والمحترفين اليوم قد ابغضوه عن جهل مركب وبتأثير التقليد الاعمى ! ولايزالون يضمرون له ولاتباعه من اهل القرآن والحديث (المسمون بالسلفيين) العداء ، وهم لو عقلوا لقدروهم حق قدرهم !

إن اهل القرآن والحديث - رحم الله موتاهم وبارك الله في احيائهم وامدهم بقوته وتوفيقه - هم مصابيح الهدى ، والدعاة الى الرشاد والتقى ، من عاداهم هلك ومن تركهم ضل، وهم المنصورون على خصومهم بشرهم بذلك النبي ﷺ فقال «لاتزال طائفة [1] من امتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس !»

واني قبل ختام هذه المقدمة اسجل بمداد من نور شكر العالم الاسلامي للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية على احيائه ذكرى شيخ الاسلام الامام ابن تيمية بدمشق ، في وقت تغط فيه الجامعة الازهرية وكليات الشريعة في العالم العربي والاسلامي في نوم عميق عن التراث الضخم لهذا المصلح والمجدد الذي املأ الدنيا وشغل الناس.

انه لمن نكران الجميل والتعصب المقوت والجهل المذري ان يبقى الامام ابن تيمية نسياً منسياً في كهوف المكتبات العربية والاسلامية، بينما تتهافت جامعاتنا على دراسة المذاهب الفلسفية القديمة والحديثة ومافيها من ضلالات وكفريات كانت من اهم اسباب اضطراب الجيل الجديد .

(١) وقد ذكر الامام احمد بن حنبل وابن المبارك وسفيان الثوري وغيرهم من كبار العلماء بأن هذه الطائفة هم اهل الحديث. فاسع يااخي المسلم ان تكون منهم لتكون من الفائزين.

موضوع هذا الكتاب بطل عظيم من ابطال التاريخ لم يشهد العالم له مثيلا في عبقريته واخلاصه وشجاعته منذ قرون طويلة .

بطل في ميدان العلم ...

بطل في ساحات الحروب ...

بطل في معارك السياسة...

هذا البطل ملأ الدنيا وشغل الناس منذ شب بين العلماء حتى يومنا هذا ، فلا يكاد يذكر اسمه في الاوساط الاسلامية حتى تسمع دوياً عظيماً ويثار النقاش حوله ، فمن منصف معجب يذكره بتعظيم واحترام ،ومن مكابر مقلد يأكل الحسد والحقد قلبه!.

كان بحراً في العلوم ، فارساً في اللغة ، ترجمانا للقرآن ، اماما للزاهدين ، قهر الملحدين ، وقمع المبتدعين وترك العالم الاسلامي في دوي

« كأنما تداول سمع المرء أنملة العشر »

فمن هو هذا البطل العظيم ?

انه تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن تيمية ..

نشأته وطلبه للعلم

ولد بحران من اعمال لورفه في تركيا عام ٦٦١ هجري وهاجر ابواه به وباخوته الى دمشق ،تخلصاً من ظلم التتار ، فساروا ليلا ، وهم يجرون عجلة كبيرة ، لعدم وجود الدواب ولم يكن في هذه العربة مال او متاع ، بل فيها كتب خشوا عليها من ان يحرقها هؤلاءالغزاةأعداء العلم والحضارة . وقد توقفت العجلة في الطريق وكاد العدو يلحق بهم فاستغاثوا بالله وابتهلوا اليه فنجوا وسلموا بما معهم من الكتب .

وصل ابن‌تيمية الى دمشق وسارع الى حفظ القرآن وطلب العلوم على اختلاف أنواعها من كبار الاساتذة والمحدثين الذين ادهشهم بقوة ذهنه ، وفرط ذكائه ، ولم يكد يبلغ من العمر بضعة عشر عاما حتى‌اتقن اصول الدين وحاز قصب السبق في التفسير والحديث واللغة .

وشيوخه الذين سمع عنهم ، أكثر من مئتي شيخ ، وسمع مسند الامام احمد بن حنبل مرات ، وسمع الكتب الستة الكبار والاجزاء ، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير .

اتفق أن بعض كبار العلماء بحلب قدم الى دمشق ، فصادف‌خياط في حانوته فقال : « سمعت في البلاد بصبي يقال له « أحمد بن تيمية » وانه سريع الحفظ ، وقد جئت اليه قاصداً لعلي اراه »

قال له‌الخياط :

«هذه‌طريق كتّابه ، وهو الآن‌ماجاء ، فاقعد عندنا، الساعة‌يجيء يعبر علينا ذاهبا الى‌الكتّاب..»

فجلس الشيخ الحلبي قليلا ، فمر صبيان . فقال الخياط للحلبي : ذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير ، هو أحمد بن تيمية !

فناداه الشيخ ، فجاء اليه ، فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه ثم قال:
ياولدي : امسح هذا حتى أملي عليك شيئا تكتبه .

ففعل ، فاملى عليه من متون الحديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً . وقال له :

اقرأ هذا !

فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته اياه ، ثم دفعه اليه وقال:
اسمعه عليّ !

فقرأ عليه عرضا كأحسن ماأنت سامع . فقال له الشيخ :

امسح هذا !.

ففعل ، فاملى عليه عدة أسانيد انتخبها ، ثم قال :

اقرأ هذا !

فنظر فيه ، كما فعل أول مرة ، فقام الشيخ ، وهو يقول :
ان عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم . فان هذا لم ير مثله !(١)

●

نشأ ابن تيمية منذ صغره بين العلماء ، راتعا في رياض الكتب النافعة ينفق أوقاته في الدراسة والمطالعة خصوصا في كتاب الله تعالى وسنة نبيه (ﷺ) .

وكان الى جانب ذلك صوّاما قواما يقف عند حدود الله ويتبع أوامره ويجتنب نواهيه. وقد كان يقول :

« انه ليقف خاطري في المسألة ، والشيء أو الحالة التي تشكل علي، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينحل

---

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الاسلام احمد بن تيمية تأليف الحافظ المحقق ابي عبد الله محمد بن احمد عبد الهادي (ص ٤) وقد حقق هذا الكتاب محمد حامد الفقي رئيس جماعة انصار السنة المحمدية ومن علماء الازهر الشريف .

اشكال ما أشكل ، وقد أكون إذ ذاك في السوق ، أو المسجد ، أو المدرسة ، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار الى أن انال مطلوبي ! »

واستمر ابن تيمية على هذا الدأب والجد حتى أصبح من كبار الفقهاء وانتهت اليه الامامة في العلم والعمل .

ثناء العلماء عليه

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه « الكواكب الدراري » (١) الذي ألفه في مناقب الامام ابن تيمية: قد أكثر أئمة الاسلام من الثناء على هذا الامام ، كالحافظ المزي وابن دقيق العيد، وابي حيان النحوي، والحافظ ابن سيدالناس، والحافظ الزملكاني، والحافظ الذهبي، وغيرهم من أئمة العلماء .

وقال الحافظ المزي : مارأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه . وما رأيت احداً اعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال القاضي ابو الفتح بن دقيق العيد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ مايريد ويدع مايريد ، وقلت له ما كنت اظن ان يخلق مثلك !

وقال الشيخ ابراهيم الرقي : ان تقي الدين يؤخذ عنه ويقلد في العلوم، فان طال عمره ملأ الارض علماً وهو على الحق ، ولابد من أن يعاديه الناس لانه وارث علم النبوة .

وقال القاضي ابن الحريري : ان لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن هو؟!

---

(١) من « مجموع : الرد الوافر » ومامعه من الرسائل طبع مصر سنة ١٣٢٩هـ

وقال فيه شيخ النحاة أبو حيان لما اجتمع به : مارأت عيناي مثله.
ثم مدحه أبو حيان على البديهة في المجلس وقال :

لما أتينا تقي الدين لاح لنا ... داع الى الله فردا ماله وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا ... خـير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهرنا حبرا ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم اذ عصت مضر
وأظهر الحق اذ آثاره درست ... وأخمد الشر اذ طارت له شرر
كنا نحدث عن حبر يجيء فها ... أنت الامام الذي قد كان ينتظر

وقال الحافظ الزملكاني : لقد اعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف . وجودة العبارة والترتيب ، والتقسيم والتعيين . وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد . كان اذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع انه لايعرف غير ذلك الفن . وحكم ان احداً لايعرفه مثله (الى ان قال) :

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا اعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

وقال عماد الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الواسطي عنه: انموذج الخلفاء الراشدين والائمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم، ونسيت الامة حذوهم وسبيلهم، فكان في دارس نهجهم سالكا، ولأعنة قواعدهم مالكا.

وقال في ذيل الصفحة الرابعة من كتاب « القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي » : ومما وجد في كتاب كتبه القاضي ابو الحسن السبكي الى الحافظ الذهبي في الشيخ تقي الدين ماصورته: واما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسعه

في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والملوك يقول ذلك دائما ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل . مع ماجمع الله له من الورع والزهادة والديانة ونصرة الحق . والقيام فيه لالغرض سواه . وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الاوفى .وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان .

مخالفته لعلماء عصره وحسد الادعياء له

اشتهر ابن تيمية وذاع صيته . واجتهد في امور كثيرة خالف فيها علماء عصره .فدب الحسد والغضب الى مدعي العلم والمقلدة والخرافيين الذين يضيقون أن يروا عالما يبذهم ويظهر جهلهم .فوشوا به الى الحكام واتهموه بالكفر ، فزجوا به في اعماق السجون تارة في القاهرة ، وتارة في الاسكندرية ، ولا يكاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون يفرج عنه لما يجد من فضله وعلمه حتى يسارع هؤلاء الهدامون من جديد للوشاية به واختلاق الاكاذيب واثارة الفتن ضده حتى يعاد به الى السجن بعد تسليط الرعاع والغوغاء عليه وايذائهم له واعتدائهم عليه ، وكان يسجن معه أحيانا اخواه شرف الدين عبدالله ، وزين الدين عبدالرحمن .

ملخص مناظرة الشيخ للعلماء

وقد ذكر الشيخ رحمه الله صورة ماجري في هذه المناظرات ملخصاً وعلق في ذلك شيئا مختصراً فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، وأشهد أن

لا اله الا الله وحده لاشريك له ، ولا ظهير ولا معين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أرسله الى الخلق اجمعين .صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلى سائر عباد الله الصالحين .

أما بعد ، فقد سئلت غير مرة ، أن أكتب ماحضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة ،في أمر الاعتقاد بمقتضى ماورد به كتاب السلطان من الديار المصرية الى نائبه أمير البلاد لما سعى اليه قوم من الجهمية ، والاتحادية ، والباطنية ، وغيرهم : من ذوي الاحقاد . فأمر الامير بجمع القضاء الاربعة : قضاة المذاهب الاربعة ، وغيرهم من نوابهم والمفتين ، والمشايخ : ممن له حرمة وبه اعتداد . وهم لايدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة .

فقال لي : هذا المجلس عقد لك . فقد ورد مرسوم السلطان : أن أسألك عن اعتقادك ، وعما كتبت به الى الديار المصرية ، من الكتب التي تدعو بها الناس الى الاعتقاد .

وأظنه قال : وأن أجمع القضاة والفقهاء وتتباحثون في ذلك .

فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ، ولا عمن هو اكبر مني ، بل يؤخذ عن الله ورسوله ، وما اجمع عليه سلف الأمة . فما كان في القرآن وجب اعتقاده . وكذلك ماثبت في الاحاديث الصحيحة ، مثل صحيح البخاري ومسلم .

واما الكتب ، فما كتبت الى احد كتابا ابتداء أدعوه به الى شيء من ذلك . ولكنني كتبت أجوبة أجبت بها من يسألني من اهل الديار المصرية وغيرهم .

وكان قد بلغني انه زور علي كتاب الى الأمير ركن الدين الجاشنكير

استاذ دار السلطان ، يتضمن ذكر عقيدة محرّفة . ولم أعلم بحقيقته .
لكن علمت ان هذا مكذوب . وكان يردُ عليّ من مصر وغيرها من يسألني
مسائل في الاعتقاد أو غيره ، فاجيبه بالكتاب والسنة . وما كان عليه
سلف الامة .

فقال : نريد ان تكتب لنا عقيدتك .

فقلت : اكتبوا .

فأمر الشيخ كمال الدين ان يكتب .

وكتبت له جمل الاعتقاد في ابواب الصفات ، والقدر ، ومسائل
الايمان ، والوعيد ، والامامة ، والتفضيل .

وهو ان اعتقاد اهل السنة والجماعة : الايمان بما وصف الله به نفسه ،
وبما وصفه به رسوله . من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا
تمثيل . وان القرآن كلام الله ، غير مخلوق . منه بدا واليه يعود . والايمان
بان الله خلق كل شيء من افعال العباد وغيرها . وانه ماشاء الله كان ،
وما لم يشأ لم يكن . وانه أمر بالطاعة ورضيها وأحبها . ونهى عن المعصية
وكرهها . والعبد فاعل حقيقة . والله خالق فعله . وان الايمان والدين
قول وعمل يزيد وينقص . وان لاتكفر احداً من أهل القبلة بالذنوب .
ولا نخلد في النار من أهل الايمان أحداً ، وان الخلفاء بعد رسول الله ﷺ
ابو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم . وان مرتبتهم في الفضل
كمرتبتهم في الخلافة . ومن قدم علياً على عثمان ، فقد أزرى بالمهاجرين
والأنصار .

وذكرت هذا ونحوه . فاني الآن قد بعد عهدي . ولم أحفظ لفظ
ما أمليته اذ ذاك .

ثم قلت للامير والحاضرين : أنا أعلم ان اقواما يكذبون عليّ ، كما قد كذبوا عليّ غير مرة . وان أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون: كتم بعضه ، أو داهن ودارى . فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين ، قبل مجيء التتر الى الشام .

قلت ، قبل حضورها كلاماً قد بَعُد عَهْدي به . وغضبتُ غضباً شديداً ، لكني أذكر أني قلت :

أنا أعلم أن أقواماً كذبوا عليّ . وقالوا للسلطان أشياء . وتكلمت بكلام احتجت اليه . مثل أن قلت :

من قام بالاسلام في أوقات الحاجة غيري ؟ ومن الذي أوضح دلائله ، وبيّنه ، وجاهد أعداءه ، وأقامه لما مال ، حين تخلّى عنه كل أحد ، فلا أحد ينطق بحجته ، ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهراً لحجته ، مجاهداً عنه ، مرغباً فيه ؟

فاذا كان هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ ، فكيف يصنعون بغيري؟

ولو أن يهودياً طلب من السلطان الانصاف لوجب عليه أن ينصفه وأنا قد أعفو عن حقي ، وقد لا أعفو . بل قد أطلب الانصاف منه . وان يُحضِر هؤلاء الذين يكذبون ليحاققوا على افترائهم .

وقلت كلاماً أطول من هذا ، من هذا الجنس . لكن بَعُد عهدي به .

فأشار الأمير الى كاتب الدَّرَج : محيي الدين ، ان يكتب ذلك

وقلت أيضاً : كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه .

وما أدري ، هل قلت هذا قبل حضورها ، أو بعدها ؟

لكنني قلت أيضاً : بعد حضورها وقراءتها : ماذكرت فيها فصلاً الا وفيه مخالف من المنتسبين الى القبلة . وكل جملة فيها خلاف لطائفة من الطوائف .

ثم أرسلت من أحضرها ، ومعها كراريس بخطي من المنزل . فحضرت العقيدة الواسطية .

وقلت لهم : هذه كان سبب كتابتها : أنه قدم من أرض واسط بعض قضاة نواحيها : شيخ يقال له رضي الدين الواسطي . قدم علينا حاجاً . وكان من أهل الخير والدين . وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد وفي دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ، ودروس الدين والعلم ، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ، ولأهل بيته .

فاستعفيت من ذلك ، وقلت : قد كتب الناس عقائد متعددة فخذ بعض عقائد أئمة السنة .

فألح في السؤال . وقال : ما أحب الا عقيدة تكتبها أنت .

فكتبت له هذه العقيدة . وأنا قاعد بعد العصر .

وقد انتشرت بها نسخ كثيرة في مصر والعراق وغيرهما .

فأشار الامير بان لاأقرأها انا — لرفع الريبة .. واعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين فقرأها على الحاضرين حرفا حرفا ، والجماعة الحاضرون يسمعونها . ويورد المورد منهم ماشاء ، ويعارض فيما يشاء ، والامير ايضا : يسأل عن مواضع فيها .

وقد علم الناس ما كان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى : ماقد علم الناس بعضه . وبعضه بسبب الاعتقاد . وبعضه بغير ذلك .

ولايمكن ذكر ماجرى من الكلام والمناظرات فى هذه المجالس ،

فانه كثير لاينضبط. لكن اكتب ملخص ماحضرني مع بعد العهد بذلك .

ومع انه كان يجري رفع اصوات ولغط لا ينضبط . فكان مما اعترض عليه بعضهم لما ذكر في اولها « ومن الايمان بالله : الايمان بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله محمد ﷺ : من غير تحريف، ولا تعطيل ، ولا تكييف، ولا تمثيل »

فقال : ما المراد بالتحريف والتعطيل ؟

ومقصوده : ان هذا ينبغي التأويل الذي يثبته اهل التأويل ، الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره ، اما وجوباً او جوازاً .

فقلت : تحريفُ الكَلِم عن مواضعه ، كما ذمّه الله في كتابه ، وهو ازالة اللفظ عما دل عليه من المعنى ، مثل تأويـــل بعض الجهْميّةِ لقوله تعالى « وَكلم الله موسى تكليما » اي جرّحه باظافير الحكمة تجريحا . ومثل تأويل القَرامِطة والباطنية وغيرهم من الجَهْمية والباطنيـــة والقدرية ، وغيرهم . فسكت ، وفي نفسه مافيها .

وذكرت في غير هذا المجلس : انِي عدلت عن لفظ التأويل » الى لفظ « التحريف » لان التحريف اسم جاء القرآن بذمه . وانا تحرّيْت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة . فنفيتُ ماذمّهُ الله من التحريف ولم اذكر فيها لفظ التأويل بنفي ولا اثبات . لانه لفظ له عدة معان كما بينته في موضعه من القواعد (١) فان معنى لفظ « التأويل » في كتاب الله غير معنى لفظ « التأويل » في اصطلاح المتأخرين من أهل الاصول

---

(١) قواعد التفسير لشيخ الاسلام ابن تيمية طبعت بالشام .

والفقه ، وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من اهل التفسير والسلف (١) ولأن من المعاني التي قد تسمى تأويلا :ما هو صحيح منقول

---

(١) قال العلامة المحقق ابن القيم رحمه الله في مختصر الصواعق المرسلة في بيان حقيقة التأويل :

هو تفعيل من آل يؤول الى كذا ، اذا صار اليه ، فالتأويل : التصيير وأولته تأويلا : اذا صيرته اليه . وتأول هو مطاوع اولته . وقال الجوهري : التأويل: تفسير مايؤول اليه الشيء . ثم تسمى العاقبة تأويلا ، لان الامير يصير اليها . قال الله تعالى : (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا) ، وتسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلا . لان الامر ينتهي اليها . ومنه قوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) فمجيء تأويله : مجيء نفس ماأخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد والجنة والنار . ويسمى تعبير الرؤيا تأويلها بالاعتبارين . وتسمى العلة الغائية والحكمة المطلوبة بالفعل تأويلا ، لانها بيان لمقصود الفاعل وغرضه من الفعل الذي لم يعرف الرائي غرضه منه . ومنه قول الخضر لموسى (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) فالتأويل المراد منه في كتاب الله : حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ اليه ، وهي الحقيقة الموجودة في الخارج . وتأويل الوعد والوعيد : هو نفس الموعود والمتوعد به . وتأويل ماأخبر الله به من صفاته وافعاله : هو نفس ماهوسبحانه موصوف به من الصفات . وتأويل الامر : هو نفس الافعال المأمور بها . قالت عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك يتأول القرآن » فهذا التأويل هو فعل المأمور به . هذا التأويل في كلام الله ورسوله. واما في اصطلاح اهل التفسير والسلف من اهل الفقه والحديث : فمرادهم به معنى التفسير والبيان ومنه قول ابن جرير وغيره : القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا . ومنه قول الامام احمد في الرد على الجهمية فيما تأولوه من القرآن على غير تأويله . فأبطل تلك التأويلات التي ذكروها . وهو تفسير مرادهم بها ، وهو تأويلها عنده . فهذا التأويل يرجع الى فهم المؤمن ويحصل في الذهن . والاول يعود الى وقوع حقيقته في الخارج . واما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فمرادهم بالتأويل: صرف اللفظ عن ظاهره ←

عن بعض السلف . فلم أنف ما تقوم الحجة على صحته اذا ماقامت الحجة على صحته ، وهو منقول عن السلف ، فليس من التحريف .

وقلت له ايضا : ذكرت في النفي « التمثيل » ولم اذكر «التشبيه» لان « التمثيل » نفاه الله بنص كتابه حيث قال (ليس كمثله شيء)وقال (هل تعلم له سميا) فكان أحب الي من لفظ ليس في كتاب الله ، ولافي سنة رسول الله ﷺ . وان كان قد يعني بنفيه معنى صحيح ، كما قد يعني به معنى فاسد .

ولما ذكرت « فانهم لا ينفون عنه ماوصف به نفسه ، ولايحرّفون الكلمَ عن مواضعه ، ولا يُلحدون في اسماء الله وآياته » . جعل بعض الحاضرين يَمْتَعِضُ من ذلك ، لاستشعاره مافي ذلك من الرد لما هو عليه ، ولكن لم يتوجه له مايقوله .

واراد ان يدور عليّ بالاسئلة التي أعلمها ، فلم يتمكن لعلمه بالجواب .

ولما ذكرت آية الكرسي ، أظن سأل الأمير عن قولنا « لا يَقربه شيطان حتى يُصبح »

فذكرت له حديث ابي هريرة رضي الله عنه في الذي كان يسرق

وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من الاصوليين والفقهاء. ولذلك يقولون : التأويل على خلاف الاصل . والتأويل يحتاج الى دليل. وهذا التأويل هو الذي صنفوا في تسويغه وابطاله من الجانبين . فمن صنف في ابطاله على رأي المتكلمين : القاضي ابو يعلى والشيخ موفق الدين بن قدامة . وقد حكى غير واحد اجماع السلف على عدم القول به — الى ان قال — : وبالجملة فالتأويل الذي يوافق مادلت عليه النصوص وجاءت به السنة : هو التأويل الصحيح . وغيره هو الفاسد . ثم ذكر انواع التأويل الباطل في كلام نفيس .فارجع اليه .

صدقة الفطر . وذكرت أن البخاري رواه في صحيحه (١)

واخـــذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ويُطنبون في هـــذا ويُعرّضون بما ينسبه بعض الناس (٢) الينا من ذلك .

فقلت : قولي « من غير تكييف ، ولاتمثيل » ينفي كل باطل . وانما اخذت هذين الاسمين . لان « التكييف » مأثور نفيه عن السلف . كما

(١) عن ابي هريرة رضي الله عنه قال « وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان : فأتاني آت ، فجعل يحثو من الطعام . فأخذته . فقلت : لارفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : اني محتاج وعلي دين وعيال وفي حاجة شديدة. فخليت عنه . فاصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ياأبا هريرة مافعل اسيرك البارحة؟ قال : قلت يارسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته فخليت سبيله . قال : اما انه قد كذبك وسيعود . فعرفت انه سيعود ، فرصدته . فجاء يحثو من الطعام — وذكر الحديث الى ان قال : فأخذته يعني في الثالثة فقلت : لأرفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا آخر ثلاث مرات تزعم انك لاتعود ثم تعود . قال: دعني اعلمك كلمات ينفعك الله بها . قلت : ماهن ؟ قال : اذا اويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لااله الا هو الحي القيوم) حتى تختم الآية . فانك لايزال عليك من الله حافظ ولايقربك حتى تصبح . فخليت سبيله فاصبحت ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : مافعل اسيرك البارحة ؟ قلت : زعم انه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله . قال : ماهي ؟ قال لي : اذا اويت الى فراشك — الحديث — الى ان قال صلى الله عليه وسلم صدقك وهو كذوب » .

(٢) ومن الدساسين المفترين على شيخ الاسلام ابن تيمية ، الرحالة المشهور ابن بطوطة فقد جاء في كلامه العبارة الآتية عن شيخنا الجليل : « وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة ، وهو يعظ الناس على منبر الجامع الاموي ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال : ان الله نزل الى سماء الدنيا كنزولي هذا ، ونزل درجة المنبر » . ان ابن بطوطة كاذب في روايته هذه شأنه في كثير مما يرويه في رحلته ، وقد كان وصوله الى دمشق في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان عام ٧٢٦ هـ ، وكان شيخ الاسلام في هذا التاريخ سجينا في قلعة دمشق . هذا وان ما كتبه ابن تيمية في كتبه المختلفة عن نفي التشبيه فيـــه دلالة صريحة وحجة بالغة عن افتراء ابن بطوطة ، وليس هو اول من افترى عليه ، والمفترون كثيرون قال تعالى : « وانما يفتري الكذب الذين لايؤمنون » .

قال ربيعة . ومالك . وابن عُيَيْنة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول « الاستواء معلوم . والكَيْفُ مجهول . والايمان به واجب . والسؤال عنه بِدعة »

فاتفق هؤلاء السلف على ان الكَيْف غير معلوم لنا . فنفيت ذلك اتباعا لسلف الامة . وهو ايضا منفيٌّ بالنص . فان تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف وحقيقة صفاته . وهذا من التأويل الذي لايعلمه الا الله . كما قد قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل، والمعنى . والفرق بين علمنا بمعنى الكلام ، وبين علمنا بتأويله .

وكذلك « التمثيل » يُنْفى بالنص والاجماع القديم . مع دلالة العقل على نفيه . ونفي التكييف . اذ كُنْهُ الباري تعالى غير معلوم للبشر .

وذكرت في ضمن ذلك كلام الخَطّابي الذي نقل انه مذهب السلف . وهو : « اجراء آيت الصفات واحاديثها على ظاهرها ..مع نفي الكيفية، والتشبيه عنها . اذ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يُحتذى فيه حذوه . ويتبع فيه مثاله . فاذا كان إثبات الذات إثبات وجود لااثبات تكييف »:

فقال احد كبراء المخالفين : فحينئذ يجوز أن يقال : هو جسم ، لا كالاجسام ؟

فقلت له . انا وبعض الفضلاء الحاضرين : انما قيل : انه يوصف الله بما وصف به نفسه . وبما وصفه به رسوله ﷺ . وليس في الكتاب والسنة ان الله جسم ، حتى يلزم هذا السؤال .

واخذ بعض القضاة الحاضرين والمعروفين بالديانة يريد إظهار أن ينفي عنا مايقوله . فجعل يزيد في المبالغة في نفي التشبيه والتجسيم . فقلت :

قد ذُكر فيها في غير موضع « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ،ولاتمثيل ». وقلت في صدرها : « ومن الايمان بالله : الايمان بما وصف الله به نفسه في كتابه . وبما وصف به رسوله محمد ﷺ . من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل » .

ثم قلت : « وما وصف الرسول به ربه من الاحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الايمان بها كذلك »

الى ان قلت : « الى امثال هذه الأحاديث الصحاح التي يخبر فيها رسول الله ﷺ بما يخبر به . فان الفرقة الناجية أهلَ السنة والجماعة يؤمنون بذلك ، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه . من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل . بل هم الوسط في فرق الامة . كما أن الامة هي الوسط في الامم ، فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية . وأهل التمثيل المشبهة » .

ولما رأى هذا الحاكم العدل تمالؤهم وتعصبهم . ورأى قِلة المعاون منهم والناصر . وخافهم قال : أنت قدصنفت اعتقاد الامام أحمد.فنقول: هذا اعتقادأحمد؟

يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه . فأن هذا مذهب متبوع .

وغرضه بذلك : قطع مخاصمة الخصوم .

فقلت له : ماجمعت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم . ليس للامام أحمد اختصاص بهذا . والامام أحمد إنما هو مبلغ العلم الذي جاءبه النبي ﷺ ولو قال أحمد من تلقاء نفسه مالم يجيء به الرسول ﷺ لم نقبله . وهذه عقيدة محمد ﷺ .

وقلت مرات : قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين . فان جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة التي اثنى عليها النبي ﷺ . حيث قال : « خير القرون : القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين

يلونهم »[١] يخالف ماذكرته فانا ارجع عن ذلك . وعليّ ان آتي بنقول جميع الطوائف من القرون الثلاثة توافق ماذكرته : من الحنفية، والمالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، والاشعرية ، وأهل الحديث ،وغيرهم.

رسالة من الامام الى اصحابه وتلاميذه

يدعوهم الى الصبر والهدوء

لقد ضج اصحاب الشيخ ابن تيمية وتلاميذه من سجنه في مصر وساءهم هذا المصير بالمصلح والمجدد الاسلامي الكبير ، فأرسل اليهم الرسالة التالية يدعوهم فيها الى السكينة والاعتصام بالصبر ، مما يدل على حسن ادبه وبعد نظره وأخلاصه وحرصه على وحدة الكلمة وجمع الصف :

اما بعد ، فان الله — وله الحمد — قدانعم علي من نعمه ومننه الجسيمة، وآلائه الكريمة . ماهو مستوجب لعظيم الشكر ، والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن الصبر ، على فصل المأمور ، والعبد مأمور بالصبر في السراء اعظم من الصبر في الضراء قال تعالى : (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته، ليقولن ذهب السيئات عني ، انه لفرح فخور ، الا الذين صبروا ، وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير)[٢].

وتعلمون ، ان الله سبحانه منّ في هذه القضية من المنن التي فيها من اسباب نصر دينه ، وعلو كلمته ، ونصر جنده ، وعزة اوليائه ، وقوة

---

(١) رواه الامام احمد والبخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء اقوام تسبق شهادة احدهم يمينه ، ويمينه شهادته » .

(٢) سورة هود الايات (٩، ١٠، ١١) .

أهل السنة والجماعة ، وذل أهل البدعة والفرقة ، وتقرير ما قرر عندكم من السنة ، وزيادات على ذلك بانفتاح ابواب من الهدى والنصر ، والدلائل ، وظهور الحق ، لأمم لايحصي عددهم الا الله تعالى ، واقبال الخلائق الى سبيل السنة والجماعة ، وغيرذلك من المنن ، ما لا بد معه من عظيم الشكر ، ومن الصبر ، وان كان صبرا في سراء .

وتعلمون ان من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فان الله تعالى يقول : (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم) [1] ويقول :(واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا) [2] ويقول: (ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم) [3] وامثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف ،

وتنهي عن الفرقة والاختلاف . وأهل هذا الاصل هم أهل الجماعة كما ان الخارجين عنه هم أهل الفرقة.

وجماع السنة طاعة الرسول . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابي هريرة : « ان الله يرضى لكم ثلاثاً : ان تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً ، وان تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وان تناصحوا من ولاه الله اموركم » وفي السنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود – فقيهي الصحابة – عن النبي ﷺ انه قال : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه الى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه . ثلاث لايغل

---

(١) سورة الانفال الآية الاولى.

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣)

(٣) سورة آل عمران اية (١٠٥)

عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين فان دعوتهم تحيط من ورائهم»[1] . وقوله: «لايغل» اي لايحقد عليهن، فلايبغض هذه الخصال قلب المسلم ، بل يحبهن ويرضاهن .

واول ما ابدأ به من هذا الاصل مايتعلق بي ، فتعلمون رضي الله عنكم اني لاأحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين _ فضلاً عن اصحابنا _ بشيء اصلا ، لاباطناً ولاظاهراً ، ولاعندي عتب على احد منهم ولالوم اصلا ، بل لهم عندي من الكرامة والاجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ما كان كل بحسبه . ولايخلو الرجل اما ان يكون مجتهداً مصيباً، او مخطئاً، اومذنباً، فالاول مأجور مشكور ، والثاني مع اجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له. والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المسلمين.

فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الاصل كقول القائل : فلان قصر ، فلان ما عمل ، فلان اوذي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب هذه القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان ، ونحو هذه الكلمات التي فيها خدمة لبعض الاصحاب والاخوان ، فاني لااسامح من آذاهم من هذا الباب ، ولاحول ولاقوة الابالله . بل مثل هذا يعود على قائله بالملام ، الا ان يكون له من حسنة ، وممن يغفر الله ان شاء، وقد عفا الله عما سلف.

وتعلمون ايضاً ان ماجرى من نوع تغليظ او تخشين على بعض الاصحاب والاخوان ـ مما كان يجري بدمشق، وماجرى الآن بمصر ـ فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه ، ولاحصل بسبب ذلك تغير منا ولابغض ، بل هو بعدما عومل به من التغليظ والتخشين ارفع قدراً ، وانبه ذكراً ، واحب وأعظم . وانما هذه الامور هي من مصالح المؤمنين التي يصلح بها بعضهم ببعض ، فان المؤمن للمؤمنين كاليدين : تغسل احداهما الاخرى ، وقد لا

---

(١) رواه البزاز باسناد حسن

ينقلع الوسخ الابنوع من الخشونة ، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما يحمد معه ذلك التخشين .

وتعلمون انا جميعاً متعاونون على البر والتقوى : واجب علينا نصر بعضنا بعضاً اعظم مما كان واشد . فمن رام ان يؤذي بعض الاصحاب والاخوان – لما قد يظنه من نوع تخشين عومل به بدمشق اوبمصر الساعة أوغير ذلك – فهو الغالط . وكذلك من ظن ان المؤمنين يبخلون عما امروا به من التعاون والتناصر فقد ظن ظن سوء (وان الظن لايغني عن الحق شيئاً) وماغاب عنا احدمن الجماعة ، اوقدم الينا الساعة اوقبل الساعة ، الاو منزلته عندنا اليوم اعظم مما كانت واجل وارفع .

وتعلمون رضي الله عنكم ان مادون هذه القضية من الحوادث يقع فيها – من اجتهاد الآراء ، واختلاف الاهواء ، وتنوّع احوال اهل الايمان ، ومالابد منه من نزغات الشيطان – مالايتصور ان يعرى عنه نوع الانسان ، وقد قال تعالى «وَحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيما [1] » .

بل أنا اقول ماهو ابلغ من ذلك [2] تنبيهاً بالادنى على الاعلى ، وبالاقصى على الادنى : تعلمون كثرة ماوقع في هذه القضية من الاكاذيب المفتراة والاغاليط المظنونة ، والاهواء الفاسدة ، وان ذلك امر يجل عن الوصف ، وكل ماقيل من كذب وزور فهو – في حقنا – خير و نعمة قال تعالى (ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لاتحسبوه شراً

(١) آخر سورة الاحزاب

(٢) اي مما تقدم من كلامه عن اختلاف آراء الناس واهوائهم في مثل هذه القضية وماهو دونها

لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم مااكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) وقد اظهر الله من نور الحق وبرهانه مارد به افك الكاذب وبهتانه ، فلا احب ان ينتصر من احد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه ، فاني قد احللت كل مسلم ، وانا احب الخير لكل المسلمين ، واريد لكل مؤمن من الخير ما احبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي . واما مايتعلق بحقوق الله فان تابوا تاب الله عليهم ، والا فحكم الله نافذ فيهم . فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله لكنت اشكر كل من كان سبباً في هذه القضية، لمايترتب عليه من خير الدنيا والآخرة، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه واياديه التي لايقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . واهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، واهل العمل الصالح يشكرون على عملهم ، واهل السيئات نسأل الله ان يتوب عليهم . وانتم تعلمون هذا من خلقي ، والأمر ازيد مما كان واوكد ، لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض ، وحقوق الله عليهم هم فيها تحت حكم الله .

وانتم تعلمون ان الصديق الاكبر – في قضية الافك التي انزل الله فيها القرآن – حلف لايصل مسطح بن اثاثة ، لانه كان من الخائضين في الإفك ، فانزل الله تعالى (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ألاتحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فلما نزلت قال ابو بكر : «بلى والله ، اني لأحب ان يغفر الله لي » فاعاد الى مسطح النفقة التي كان ينفق [1]» .

---

(١) روى ذلك الامام احمد في مسنده ، والبخاري ومسلم في صحيحيهما ، عن عائشة رضي الله عنها . وهذه الاخلاق الاسلامية لم تعرفها الانسانية الافي الاسلام واهله.

ومع ماذكر من العفو والاحسان ،وأمثاله واضعافه ، فالجهاد على مابعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة امر لابد منه (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه : أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ، ولايخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . انماوليكم الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما .

اخراجه من سجن الاسكندرية .

لما دخل السلطان الناصر الى مصر بعد خروجه من الكرك ،وقدومه الى دمشق ، وتوجه منها الى مصر — وكان قدومه اليها يوم عيد الفطر ،من سنة تسع وسبعمائة — نفذلاحضار الشيخ من الاسكندرية في اليوم الثامن من شوال .

وخرج الشيخ منها متوجها الى مصر ، ومعه خلق من اهلهايودعونه ويسألون الله ان يرده إليهم . وكان وقتاً مشهوداً.

ووصل الى القاهرة يوم الجمعة الرابع والعشرين منه . واكرمه وتلقاه في مجلس ، حفل فيه قضاة المصريين والشاميين والفقهاء . واصلح بينه وبينهم .

قال بعض اصحابنا : [1]

أخبرك بأمر عجيب ، وقع من السلطان في حق الشيخ تقي الدين ، وذلك حين توجه السلطان الى الديار المصرية ، ومعه القضاة والاعيان ، ونائب الشام الأفرم .

---

(١) العقود الدرية ص ٢٧٩

فلما دخل الديار المصرية وعاد الى مملكته، وهرب سلار والشنكير، واستقر أمر السلطان ، جلسا يوما دست السلطنة وأبهة الملك ، واعيان الامراء من الشاميين والمصريين حضور عنده ، وقضاة مصر عن يمينه ، وقضاة الشام عن يساره - وذكر لي كيفية جلوسهم منه ، كحسب منازلهم - قال : وكان من جملة من هناك ابن صصري ،عن يسار السلطان، وتحته الصدر علي قاضي الحنفية، ثم بعده الخطيب جلال الدين ، ثم بعده ابن الزملكاني . قال : وأنا الى جانب ابن الزملكاني . والناس جلوس خلفه، والسلطان على مقعد مرتفع ، فبينما الناس على ذلك جلوس اذ نهض السلطان قائما ، فقام الناس ، ثم مشى السلطان ، فنزل عن تلك المقعدة ، ولا يدرى مابه . واذا بالشيخ تقي الدين ابن تيمية - رحمه الله - مقبل من الباب والسلطان قاصد اليه ، فنزل السلطان عن الايوان . والناس قيام . والقضاة والامراء والدولة . فتسالم هو والسلطان وتكارشا [1] . وذهبا الى صفة في ذلك المكان ، فيها شباك الى بستان ، فجلسا فيها حينا ثم أقبلا - ويد الشيخ في يد السلطان - فقام الناس . وكان قد جاء في غيبة السلطان تلك : الوزير فخر الدين بن الخليل ، فجلس عن يسار السلطان فوق ابن صصري. فلما جاء السلطان جلس على مقعدته . وجاء الشيخ تقي الدين فجلس بين يدي السلطان على طرف مقعدته متربعاً .

فشرع السلطان يثني على الشيخ عند الامراء والقضاة بثناء ماسمعته من غيره قط . وقال كلاماً كثيراً . والناس تقول معه ، ومثله القضاة والامراء .

وكان وقتا عجيباً . وذلك مما يسوء كثيراً من الحاضرين من ابناء جنسه .

---

(١) كذا بالاصل ، ولعلها : وتسارا

وقال في الشيخ من الثناء والمبالغة مالا يقدر أحد من أخص اصحابه أن يقوله .

خروج الشيخ الى الشام مع الجيش المصري

ثم توجه الامام ابن تيمية الى الشام ، صحبة الجيش المصري قاصداً الغزاة . فلما وصل معهم الى عسقلان توجه الى بيت المقدس ، وتوجه منه الى دمشق ، وجعل طريقه على عجلون وبعض بلاد السواد . وزرع . ووصل الى دمشق في اول يوم من شهر ذي القعدة سنة اثنتي عشرة وسبعمائة . ومعه اخواه وجماعة من أصحابه . وخرج خلق كثير لتلقيه . وسروا سروراً عظيماً بقدمه وسلامته وعافيته .

وكان مجموع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع .

من محراب العلم الى ميدان القتال

لقد جاء التتار الى الشام سنة ٦٦٩ وهزموا عساكر الناصر بن قلاوون، شذر مذر بعد ان ابلى الجميع بلاء حسنا ولكن كان امر الله قدرا مقدورا ، فولى جند مصر والشام الادبار ، واجتازوا دمشق فارين الى مصر وصار جند التتار على ابواب دمشق واهلها في ذعر . وفر كثيرون من اعيان العلماء الى مصر كقاضي الشافعية امام الدين ، وقاضي المالكية الزواوي ، وغيرهم من كبار العلماء وكبار الرجال، حتى صار البلد شاغرا من الحكام وكبار رجال الدين .

ولكن عالماً واحداً بقي مع العامة ، فلم يفر ولم يخرج ، لان له قلبا يحول بينه وبين الفرار [1] وله شعور يمنعه من ان يترك العامة من غير

«١» ابن كثير ص ٩ ج ١٤

مواس في هذه البأساء ، وله دين يمنعه من ان يترك امور النـــاس فوضى لاحاكم يردع ، ولا نظام يمنع ، فقد ســـاد السلب والنهب ، حتى ان المحبوسين من الشطار والسراق خرجوا من الحبس ، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا مايقدرون عليه ، وهكذا غيرهم من اهل الشطـــارة والدعارة [1].

جمع ابن تيمية اعيان البلد ، واتفق معهم على ضبط الامور وان يذهب على رأس وفد منهم يخاطبون ملك التتار في الامتناع عن دخول دمشق.

وقد ذهب الشيخ مع الوفد ، والتقى بقازان [2] ملك التتـــار وقائدهم ، وقد كسا الله الشيخ حلة من المهابة والايمان والتقى ، ولقـــد قال احد الذين شاهدوا اللقاء « كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحـــدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل، ويرفع صوته ، ويقرب منـــه . . . والسلطان مع ذلك مقبل عليه ، مصغ لما يقول، شاخص اليه لايعرض عنه وان السلطان من شدة ما اوقع الله في قلبه من الهيبة والمحبة سأل من هذا الشيخ ؟ اني لم ار مثله ، ولا اثبت قلبا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقيادا لاحد منه، فاخبر بحاله ، وماهو عليه من العـــلم والعمل » [3].

ومما خاطبه عن طريق الترجمـــان : « قل للقازان انت تزعم انك مسلم ؟ ومعك قاضي وامام وشيخ ومؤذنون على مابلغنا ، وابوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا ، وانت عاهدت فغدرت

(١) ابن كثير ص ٩ ج ١٤

«٢» هو رابع ملك مسلم منهم ، وقد توفي سنة ٧٠٣

«٣» القول الجلي في ضمن مجموعة من المناقب ص ١٦٢

وقلت فما وفيت ، وجرت». ثم خرج بعد هذا القول من عنده معززا مكرما بحسن نيته » [١].

انتجت هذه المقابلة خيراً وان كان محدودا . لقد اجل دخول دمشق الى حين ،وأمن الناس وزال فزعهم فقد وعده قازان خيراً ، واعلن الامان وطيف بمنشوره في البلد من اقصاه الى اقصاه ، ولكن طلب من الاهلين تسليم السلاح والخيل والاموال المخبوءة ، وبعد ثمانية ايام كثر عبث الجند خارج المدينة ، فاتلفوا الزرع والضرع ، فقلت الاقوات ، وحاول احد الذين كانوا في خدمة ملوك مصر ومالأ التتار ان يحمل حماة قلعة دمشق على تسليمها ، فامتنعوا بتحريض ابن تيمية الذي كان ملاذ الناس في تلك المحنة الشديدة ، ولكن اندفع الجند مع بعض طوائف الباطنيين من بعد ذلك في الصالحية يعيثون فيها فساداً ، وحرقوا بعض مساجدها ، وقتلوا وسبوا من نساء المسلمين ، وهم يذكرون انهم مسلمون ، وبلغ الناس انهم داخلون دمشق لامحالة .

«١» القول الجلي ص ١٦٢ . وقد جاء فيه ايضاً :« انهم لما حضروا مجلس قازان قدم لهم الطعام فاكلوا منه الا ابن تيمية ، فقيل له لماذا لاتأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامك ، وكله مما نهبتم من اغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من اشجار الناس .. ولقد طلب منه قازان الدعاء له ، فقال في دعائه : « اللهم ان كنت تعلم انه انما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وجاهد في سبيلك فأن تؤيده وتنصره ؛وان كان للملك والدنيا والتكاثر فأن تفعل به وتصنع » فكان يدعو وقازان يؤمن على دعائه ، ونحن نجمع ثيابنا خوفاً من ان يقتل فيطرطس بدمه ، ثم لما خرجنا قلنا له كدت تهلكنا معك ، ونحن مانصحبك من هنا ، فقال : وانا لااصحبكم.فانطلقنا عصبة، وتأخر ، فتسامعت به الخواتين والامراء فأتوه من كل فج ، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته ،فما وصل الا في ثلاثمائة فارس في ركابه .واما نحن فخرج علينا جماعة فشلحونا »

خرج ابن تيمية مرة ثانية لمقابلة قازان ، ولـــكن حجبه عنه الوزراء ، وقد وعد بأن المدينة لايدخلها التتار . ولكنهم دخلوها وعاثوا فيها فسادا ، ثم خرجوا من بعد ، وكان لابن تيمية مسعى حميد في استنقاذ الاسرى ، وفك إسارهم ، ثم ترك التتـــار الشام ، ونسجل هنا ان ابن تيمية عندما فك الأسارى ، فك اسارى الذميين [1] مع اسارى المسلمين .

ولكن في سنة ٧٠٠ تسامع الناس ان التتار سيقصـــدون الشام ، وانهم عازمون على دخول مصر ، فأخذ الاهـلون يفرون كالمرة الاولى وهم في هذه المرة يفرون على السماع ، وكانوا في الاولى يفرون عنـــد العيان .

ولكن ابن تيمية الذي عالج التتار بالسلم في الماضي ، اذ لم يستطع ان يشن عليهم الحرب لخور العزيمة ، ولانهم كانوا اصحاب العتاد والعدة ، ولانهم كانوا قد غزوا الديار في عقرها ، فتمكنوا من الرقاب ، ولانـــه كان يحسبهم مسلمين غير بغاة . أما الان وقد بدت حالهم وفي الوقت فرصا فلم ينتظر الدنية بل اراد ان يتقدم للميدان بالسيف لا بالقول ، فجلس في اليوم الثاني من صفر من هذه السنة ، والجموع تستمع اليه لانه رجلها وقائدها ، ولم يلق عليهم في هذه المرة درسا في الوعظ المجرد ، بل القى عليهم

(١) وتفصيل ذلك ما كتبه في الرسالة القبرصية خطابا للسرجوان ملك قبرص قال : « وقد عرف النصارى كلهم اني لما خاطبت التتار في اطلاق الاسرى ، وأطلقهم قازان وقطلوشاه . وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لي : لكن معنا نصارى اخذناهم من القدس ، فهؤلاء لايطلقون ، قلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فانا نفتكهم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة ، واطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا واحساننا ، والجزاء على الله . وكذلك السبي الذي بين ايدينا من النصارى يعلم كل احـــد احساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم كما اوصانا خاتم النبيين » .

قولا في الجهاد ، فساق الآيات والاحاديث الواردة في الجهاد ، ونهى عن الامراع في الفرار ، ورغب في انفاق المال في الذب عن المسلمين وبلادهم واموالهم ، وبين لهم ان ماينفقونه في الهرب ، وما يضيع منهم بسببه اذا انفق في سبيل الله كان خيراً ، واوجب جهاد التتار في هـذه المرة ، لان الحرب انفى للحرب ، ولانه لاجدوى في سلمهم . وتابع المجالس في ذلك ، ونودي في البلاد ألا يسافر احد الا بمرسوم ، فتوقف النـاس عن السير وسكن جأشهم . وابن تيمية لايكتفي بالمجالس يعقدها ويخطب ، بـل يكتب الكتب بالحجج الواضحة [1] ويرسلها الى الناس حتى اطمأنوا .

وزادهم استيثاقاً واطمئنانا ان السلطان الناصر بمصر قـد اعتزم الخروج ، وان عساكره اللجبة مقبلة تحمي الذمار ، وتدافع عن الديار .

ولكن عاد الذعر وعاد الاضطراب لما بلغهم المرجفون ان التتار قد وصلوا الى حلب ، وبلغهم في الوقت نفسه أن السلطان ناصر الدين قد قفل راجعاً الى مصر .

تلفت الناس في ذعرهم لافرق بين حاكم ومحكوم الى البطل المؤمن القومي تقي الدين بن تيمية ، فخرج الى جند الشام يحثهم على القتـال ويدفعهم الى الميدان ، ووعدهم بالنصر والظفر ، وتلا قوله تعالى : « ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور » .

وقد طلب اليه الامراء ونائب السلطنة ان يركب الى مصر على البريد ليستحث السلطان على المجيء ، ولكنه لم يصل الى السلطان الا وقد عاد الى القاهرة بعسكره راضياً من الغنيمة بالاياب . وانتثر الجند المجموع وتفارطت الجال ، فتقدم البطل الورع ، واستحث السلطان وامراءه على اعداد العدة وجمع الجند . وقال في حدة وغلظة قوله الحق والمصلحة :

---

[1]) ارجع الى العقود الدرية ص ١٢٠ ففيها رسالة طويلة في الحث على الجهاد.

« ان كنتم اعرضتم عن الشام وحمايته اقمنا له سلطاناً يحوطـه ويحميه ، ويستغله في زمن الامن» .ثم قال:«لو قدر انكم لستم حكامه ولا ملوكه واستنصركم اهله وجب عليكم النصر ، فكيف وانتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وانتم مسؤولون عنهم » ثم قوي جأش الامراء . وما زال بهم حتى خرج السلطان بجنده الى الشام [1] .

ولكن ابن تيمية وقد ترك دمشق استولى عليها الذعر ، اذ قد اشتدت الاراجيف . ونادى منادي التردد والهزيمة بالفرار ، فنادى والي المدينة بأن من قدر على شيء فليخرج ، ولكن عاد ابن تيمية اليهم قبل ان يجيبوا ذلك الناعب نعيب البوم ، فعادت القلوب الى جنوبها ، واتاهم الامن من ثلاث نواح ، فابن تيمية قد عاد اليهم وهو أمنهم وملاذهم ، وتأكدوا اقبال جند السلطان ، ثم تأكد لديهم أمر آخر ، وهو ان التتار قد عادوا من عامهم هذا ، لما احسوا بأن خصومهم قد اعدوا العدة وأخذوا الأهبة ، ولاحظوا ضعفاً في انفسهم ، ولم يتقدموا وهم على هذا الضعف .

عاد ابن تيمية الى درسه وعلمه ، وهو لم يفارقه ، في الجملة الابالقدر الذي كان يضطر اليه في مقابلات الملوك والسلاطين ومخاطبة الجموع والجنود ، وان هذه المحنة التي نزلت بدمشق اظهرت ابن تيمية بطلها ورجلها ، لاعالمها فقط ، ولعل العلم يشاركه فيه غيره بقدر ، ولكن في مواقفه هذه لم يشاركه احد ، وقد تمكنت اقدامه بهذا في الدولة وعند العامة . ومامكنها الاهمته وشجاعته ، وصبره وايمانه بالحق والفضيلة فوق علمه .

ولقد أقام الفضيلة والاخلاق عندما صار رجل دمشق ، وحاكمها غير المتوج عندما فر حكامها في سنة ٦٩٩ ، واصبح انكار المنكر حقاً عليه

«١» راجع في هذه الاخبار كلها البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٤ ص ١٥

بالفعل لا بالقول والقلب ، اذ صار مبسوط اليد والسلطان فيها، فقد رأى الحانات والخمور فأخذ هو وصحبه ، وقد صاروا حكام الساعة ، فحطموا أواني الخمر ، وشقوا قرابها، واراقوا الخمور ، وعزروا اصحاب[1] الحانات المتخذة للفواحش . فلقى ذلك من العامة ترحابا ، اذ رأوا حكم القرآن ينفذ ، وعهد الرسول يعود .

واذا عز عليه ان يقيم الحقوق بقوة الحكم اقامها بقوة الاقناع وهو لها أملك ، وعليها اقدر ، فان جند التتار عندما دخلوا مدينة دمشق سنة ٦٩٩ وعاثوا بها فسادا ، اتصل بهم سكان الجبال وما لئوهم ، فخرج اليهم ابن تيمية لقتالهم فجاءه رؤساهم مسترشدين مستهدين ،فوعظهم واستتابهم ، وبين الصواب لهم ، والتزموا برد ما كانوا قد اخذوا من مال الجيش ، وقرر عليهم اموالا كثيرة يحملونها الى بيت المال ، واقطعت اراضيهم وضياعهم ، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون فى طاعة الجند ،ولا يلتزمون الملة ، ولا يدينون دين الحق ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله [2]

انتهت المحنة ولابن تيمية سلطان من الحكم ، ويظهر انه بعد ان زالت المحنة لم يسحب منه ذلك السلطان الذي اكتسبه بقوة الحق ، وقوة الخلق ، وقوة العلم ، فقد كان مرجع الحكام مع انه ليس له منصب رسمي يؤهله للحكم فليس قاضياً ولا والياً ، ولكن سودته مواهبه وهمته وعلمه.

ففي شهر جمادى الاخرة من سنة ٧٠١ عقد مجلس لبعض اليهود ، وألزموا بأداء الجزية اسوة بامثالهم من اليهود والنصارى ، فاحضروا كتابا يزعمون انه من رسول الله ﷺ بوضع الجزية عنهم ، فلما وقف الفقهاء

---

١ » الكتاب المذكور ص ١١

(٢) الكتاب المذكور ص ١٩

عليه تبينوا انه مكذوب مفتعل لما فيه من الالفاظ الركيكة واللحن الفاحش ، وقد جاء لهم ابن تيمية وبين لهم خطأهم وكذبهم وان الكتاب مزور مكذوب ، فانابوا الى اداء الجزية .

ولقد كان ابن تيمية يقيم بعض الحدود بهذا السلطان فثار جماعة من حساده وشكوا منه انه يقيم الحدود ويعزر ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكون منه ، وقد اقر الوالي عمل ابن تيمية . وسكنت الفتنة عند هذا الحد (١)

كانت تلك المنزلة الرفيعة التي نالها ابن تيمية مثيرة لحسد الحساد ، وحقد الحاقدين . ولم يجدوا السبيل لان ينفثوا سم حقدهم عند الامراء ، لان العدو يهددهم ، وقد علمت منزلة ابن تيمية وقت ان يجد الجد، ويشتد الامر ، وتتأزم الاحوال ، فارادوا ان يكيدوا له من هذه الناحية ، ليكون الكلام اوقع ، ولعله ينال استماعاً .

فقد جاء الى نائب السلطنة كتاب فيه ان ابن تيمية ومعه غيره من العلماء والافراد والخواص يناصحون التتار ويكاتبونهم ، ويؤيدون من عمالتهم ، ولكن تبين نائب السلطنة بادىء الرأي انه مفتعل ، وتحرى عن واضعه ، ولم يحتج الى التحري عن حقيقته ، فعرف كاتبه وعزر تعزيراً شديداً . وقطعت يد كاتبه (٢)

---

(١) راجع في هذه الاخبار كلها البداية والنهاية

(٢) ومن شجاعته ما حكاه في الكواكب قال : لما وشوا به الى السلطان الاعظم الملك الناصر لدين الله واحضره بين يديه قال من جملة كلامه اني اخبرت انك قد اطاعك الناس ، وان في نفسك اخذ الملك فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت ، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر : انا افعل ذلك ? والله ان ملكك وملك المغل لايساوي عندي فلسا. فتبسم السلطان لذلك ، واجابه في مقابلته بما اوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : انك والله لصادق وان الذي وشى بك الي لكاذب ،

جاء التتار بجموعهم الى الشام سنة ٧٠٢، وساوروا دمشق، وارجف المرجفون، وخرجت القلوب من جنوبها، واستعدت الجيوش المصرية والشامية لملاقاتها، وقد اخذ دعاة التردد والهزيمة ينشرون الفزع في قلوب الناس، ولكن تحالف العلماء والقضاة والامراء على ان يلاقوا العدو، ولا يفروا من دمشق، وابن تيمية يثبت القلوب ويعدهم بالنصر متأولا قوله تعالى مؤمناً به « ومن بغى عليه لينصرنه الله » حتى انه ليقول حالفاً بالله : « إنكم لمنصورون » فيقول له بعض الامراء قل ان شاء الله، فيقول اقولها تحقيقاً لاتعليقاً .

اطمأنت القلوب وسكنت، ولكن دعاة الهزيمة اتوا الناس من ناحية اخرى، من ناحية الدين، كيف نقاتل المسلمين ؟! ان ذلك ليس بحلال، يقولون تلك المقالة كانهم مهاجمون وليسوا مدافعين عندئذ يتقدم ابن تيمية مبينا الحقيقة الدينية في تلك القضية، فيقول : « هؤلاء الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا انهم احق بالامر منهما، وهؤلاء يزعمون انهم احق باقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ماهم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو اعظم منه باضعاف مضاعفة». ثم قال لهم : « اذا رأيتموني في ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني » .

حرك ابن تيمية النخوة في القلوب، وسكن جأش السكان، ثم امتطى صهوة جواده، وخرج الى ميدان القتال محاربا، فما كان لمثله ان يدعو الى الثبات في الجهاد وهو ينكص على عقبيه، بل يتقدم الجموع،

واستقر له في قلبه من المحبة الدينية مالولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة مايلقى اليه من حقه من اقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله العدالة، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة .

وذهب الى مرج الصفر قريباً من دمشق ، وابتدأت الموقعة التي تسمى في التاريخ موقعة شقحب في رمضان سنة ٧٠٢ . وتلاقى الجمعان ، ووقف الفارس الجريء موقف الموت مقاتلا ، وهو يثبت قلوب من حوله قتاله وفعاله ، وقد التقى قبل أن يقف موقفه من القتال بالسلطان يحثه بوجنده على الجهاد في سبيل الله واحقاق الحق ، وردالمعتدين ، وكان قد بلغه أنه كاد يرجع ، فسأله السلطان أن يقف معه في المعركة فقال : «السنة أن يقف الرجل تحت رايةقومه ، ونحن من جيش الشام لانقف إلامعهم» وقد حث الجند وامراءهم على الافطار ليتقووا على القتال ، وكان يروي لهم قوله ﷺ للصحابة في غزوة الفتح : « انكم ملاقو العدو والفطر أقوى لكم » وكان يدور على الاجناد والأفراد يأ كل امامهم من شيء معه ليبين لهم أن افطارهم ليقووا على القتال افضل .

وقعت الواقعة واشتد القتال واشترك فيه ابن تيمية ، ووقف هو وأخوه موقف الموت ، وابلى بلاء حسناً . وصدق أهل الشام وجند مصر القتال ، وقد استمر طول اليوم الرابع من رمضان ، حتى اذا جاء العصر ظهر جند مصر والشام ، وانحسر جند التتار ، فلجأوا الى اقتحام الجبال والتلال،وجند السلطان الناصر ـ أو بالاحرى جند ابن تيمية ـ وراءه يضربون اقفيتهم ، ويرمونهم عن قوس واحدة ، حتى انبلج الفجر ،وقد انكشفت الغمة ، وزال خطر التتار من بعدها ، وكانت ثاني مرة يمنون فيها بالهزيمة ، وآخر مرة يغيرون،[1] وقدكانوا مخاف الشرق والغرب.وقد كانت غاراتهم العنيفة من اقدم العصور اشبه بهزات الطبيعة العنيفة التي تغير وجه الارض ، كما قال جيبون . فقد قال في تصوير هول الغارات التي

---

(١) ابن تيمية : للاستاذ محمد ابي زهرة

يشنونها : « ان بعض سكان السويد قد سمعوا عن طريق روسيا نبأ ذلك الطوفان المغولي، فلم يستطيعوا أن يخرجوا كعادتهم للصيد في سواحل انكلترا خوفاً من المغول [1] !!»

شجاعة الشيخ وبأسه عند القتال

ودخل بعد مدة جيش الاسلام المنصور دمشق المحروسة . والشيخ في اصحابه شاكياً سلاحه ، داخلاً معهم ، عالية كلمته ، قائمة حجته ، ظاهرة ولايته ، مقبولة شفاعته ، مجابة دعوته ، ملتمسة بركته ، مكرماً معظماً ، ذا سلطان وكلمة نافذة . وهو مع ذلك يقول للمداحين له : أنا رجل ملة لا رجل دولة !

ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين . أمير من أمرائهم ، ذو دين متين ، وصدق لهجة معروفة في الدولة قال [2] :

قال لي الشيخ ـ يوم اللقاء ونحن بمرج الصفر . وقد تراءى الجمعان ـ : فلان . اوقفني [3] موقفة الموت

قال : فسقته إلى مقابلة العـــدو ، وهم منحدرون كالسيل ، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم .

---

(١) وفي الحقيقة ان شيخ الاسلام ابن تيمية لم يكن بجهاده قد انقذ العالم العربي والاسلامي فحسب من شر التتار ، بل انقذ الغرب ايضاً الذي كان يشعر بالخطر كما قال جيبون . ونجى الحضارة الانسانية من الدمار ! بينما فر كثير من الادعيـــاء المتمشيخين من دمشق الى مصر لما اشتد وطيس المعركة وفر بسببهم كثير من العامة تاركين دمشق مفتوحة للعدو !! وهكذا كانوا يظهرون شجاعتهم في محاربة المصلحين وجبنهم في محاربة العدو والمستعمر فيا للعار والشنار .

اسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

« م.م »

(٢) العقود الدرية ص ١٧٧

(٣) بالاصل « يا فلان ، الدين اوقفني » والظاهر ان كلمة « الدين » زائدة

ثم قلت له : ياسيدي ، هذا موقف الموت ، وهذا العدو ، قد أقبل تحت هذه الغَبَرة المنعقدة . فدونك وما تريد .

قال : فرفع طرفه الى السماء ، وأشخص بصره ، وحرك شفتيه طويلا ، ثم انبعث وأقدم على القتال . وأما أنا فخيل الي أنه دعا عليهم وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة .

قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام ، وماعدت رأيته ، حتى فتح الله ونصر ، وانحاز التتار الى جبل صغير ، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة . وكان آخر النهار .

قال : واذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما ، تحريضاً على القتال ، وتخويفاً للناس من الفرار .

فقلت : ياسيدي ، لك البشارة بالنصر ، فانه قد فتح الله ونصر ، وهاهم التتار محصورون بهذا السفح ، وفي غد ، ان شاءالله تعالى،يؤخذون عن آخرهم .

قال : فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بماهو أهله ، ودعا لي في ذلك الموطن دعاء وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده .

مقارنة بين النبوة عند الغزالي والنبوة عند ابن تيمية

لعل من خير الكتب التي عرضت لموضوع النبوة وموقف الغزالي منها كتاب PROPHECY IN ISLAM (النبوة في الاسلام)تأليف الاستاذ فيض الرحمن ، وقد طبع بلندن سنة ١٩٥٨ .

وقد بيّن المؤلف أن فكرة الغزالي عن النبوة ، إنما هي استمرار

لفكرة ابن سينا عنها ! »

وابن سينا يرى أن النبي له ثلاث قوى : الأولى : قوة قدسية ، وهي تابعة لقوة العقل النظري ، ويتمكن بها النبي من إدراك الحد الأول دفعة واحدة .

والقوة الثانية : قوة خيالية أو قوة المخيلة أو التخيل والحس الباطن بحيث يتمثل للنبي ما يعلمه من نفسه ، فيراه ويسمعه ، فيرى في نفسه صوراً نورانية هي الملائكة ، ويسمع أصواتاً هي كلام الله أو وحيه ، وهذا كله من جنس ما يحصل للنائم في منامه (!) ومن جنس ما يحصل لبعض الذين يأخذون أنفسهم بالرياضات الروحية ، ومن جنس ما يحصل لبعض المجانين (الذين يصابون بالصراع) (!) .

والقوة الثالثة : القوة النفسانية التي يتمكن بها النبي من التأثير في مادة العالم بحيث تحدث له الخوارق والمعجزات .

وقد تكلم ابن سينا على هذه القوى في كتابه : (الشفاء) وفي العديد من كتبه ورسائله .

وقد نقل لنا الدكتور سليمان دنيا صفحات كاملة من كتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » للغزالي وعقب على ذلك بقوله : « هذه هي خواص النبوة في نظر الغزالي ، وقد ذكر هذه الخواص الثلاث ولم يزد ... وكذلك صنع ابن سينا ... وقد اتفق مع الغزالي فيما ذهب اليه من رأي أو في معنى أصح اتفق الغزالي معه ، ولا أحب أن استرسل في ذكر كل ما اتفقا فيه لئلا يجرنا ذلك إلى نقل النمط العاشر بتمامه » (يقصد من كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا) .

وكلام الغزالي في معارج القدس يُعترض عليه بالطعن في صحة نسبة الكتاب اليه .

ونرد على ذلك بأمرين : الأول بيان صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي والثاني : بيان أوجه التشابه بين كلام الغزالي في « المعارج » وكلامه في كتبه الأخرى ، وخاصة كتبه التي اتفق أكثر الباحثين على صحة نسبتها اليه .

أما بالنسبة للأمر الأول ، فقد أقر كثير من الباحثين بصحة نسبة كتاب « المعارج » إلى الغزالي ، منهم أسين بلاثيوس الذى اعترف بأنه لا يوجد في كتاب « معارج القدس » إشارة إلى كتاب من كتب الغزالي الأخرى ، ثم قال : « ولكن هذا لا يعني التشكيك في صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي »[1] .

ومنهم الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي ناقش صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي ثم قال : « وإن كان ما ورد فيه لا يخالف في شيء ما ورد في سائر كتب الغزالي »[2] .

ومنهم الاستاذ فيض الرحمن الذي يقرر « أن الغزالي يتابع ابن سينا في « معارج القدس » متابعة تامة »[3] ثم يذكر في موضع آخر[4] أنه فيما يتصل بالخاصة الأساسية للنبوة لا يكاد يوجد إلا فروق طفيفة بين كتاب « المعارج » وكتاب : « المنقذ من الضلال » .

ومنهم الدكتور سليمان دنيا الذي يفرد صفحات كثيرة من كتابه « الحقيقة في نظر الغزالي » لبيان أوجه التشابه بين كتب

---

(١) انظر كتاب مؤلفات الغزالي تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ص (٢٤٥ ط) المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة (١٣٨٠ / ١٩٦١).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٤٤) .

(٣) النبوة في الاسلام السابق (ص ٩٥ – ٩٦) .

(٤) المرجع السابق نفسه (ص ١١٢).

الغزالي المختلفة ، وخاصة كتاب « معارج القدس » الذي تتشابه فصول كاملة منه مع فصول « الإحياء » وفصول في « الاقتصاد في الاعتقاد » وفصول في « ميزان العمل » [1] .

ومنهم الدكتور عثمان أمين [2] والدكتور محمد ثابت الفندي [3] والدكتور محمد غلاب [4] والدكتور محمود قاسم [5] والدكتور عبد الكريم عثمان [6] .

أما الأمر الثاني الذي يرد على من اعترض على صحة نسبة كتاب « المعارج » إلى الغزالي فهو يعتمد على بيان أوجه التشابه بين كلامه في « المعارج » ، وكلامه في كتبه الأخرى وخاصة كتبه التي اتفق أكثر الباحثين على صحة نسبتها اليه [7].

ومن أهم هذه الكتب كتاب « المنقذ من الضلال » وهو من آخر كتبه كما أنه من الكتب التي لم يطعن أحد — فيما نعلم — في صحة نسبتها اليه.

ويذكر الغزالي في هذا الكتاب أن المكاشفات والمشاهدات تحدث الصوفية في أول طريق التصوف « حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة

---

(١) الحقيقة في نظر الغزالي (ص ٩٣ — ٩٥) .

(٢) في مقاله في مهرجان الغزالي بدمشق ، انظر مثلا (ص ١٣٤ — ١٣٥).

(٣) في مقاله في مهرجان الغزالي بدمشق ، انظر مثلا (ص ١٠٦ — ١٠٨).

(٤) في كتابه « المعرفة عند مفكري المسلمين » انظر (ص ٣٢٧ — ٣٣٨):

(٥) في كتابه : « في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام » (ص ١٤٥ ٢٠٣ — ٢٠٩) .

(٦) في مقاله في مهرجان الغزالي (ص ٦٦١ — ٦٦٥).

(٧) انظر مؤلفات الغزالي لبدوي (ص ٢٠٢).

وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأفعال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق الخ[1]

ثم يذكر الغزالي أن الله يخلق في الإنسان حواسه من لمس ، وبصر وسمع ، وذوق ، ثم يخلق له العقل ، يقول الغزالي :

« وراء العقل طور آخر تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأمور أخر ، العقل معزول عنها . . .

وهذا الكلام يعني بعبارة أخرى أن الاجتهاد في طريق التصوف يوصل إلى نفس علوم الأنبياء ويرى الإمام ابن تيمية أن كلام الغزالي كان الاساس الذي بنى عليه ابن عربي فكرته عن خاتم الأنبياء الذي يرى أنه أفضل من خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى النبي ، أي أنه يأخذ من الله مباشرة أما محمد ﷺ ، فإنه يأخذ من جبريل الذي يأخذ من الله [2].

ويعلق ابن تيمية على كلام الغزالي ، بأن هذا الكلام لا يقوله المسلمون واليهود والنصارى ، بل هو من أقوال الملاحدة من الصابئين والفلاسفة

---

(١) المنقذ من الضلال (ص ١١٨) بتحقيق عبد الحليم محمود شيخ الجامع الازهر ، الطبعة الثالثة .

(٢) انظر جامع الرسائل لابن تيمية (ص ٢٠٥ — ٢٠٦) .

(٣) السبعينية (ص ١٩) .

النبوة عند ابن تيمية

رأينا فيما سبق كيف أن الغزالي كان تابعاً في آرائه عن النبوة للفلاسفة المسلمين الذين كانوا تابعين بدورهم للفلاسفة اليونانيين ، ورغم نقده لهم في بعض كتبه ، فإن الغزالي سار بأكثر آرائهم في النبوة في كتبه الأخرى ، وزاد عليهم بأنه التمس لآرائهم مزيداً من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة (مع الخطأ والتعسف في التأويل) كما أنه مزج الفلسفة بالتصوف ، مما مهد لمذاهب متفلسفة الصوفية المنحرفة مثل ابن عربي في وحدة الوجود ولذلك ، فإننا نلاحظ أن ابن تيمية أوقف جزءاً كبيراً من كلامه عن النبوة على عرض مذهب الفلاسفة ومن تبعهم ، ثم شرع في نقد هذا المذهب نقداً قوياً من الناحيتين العقلية والنفسانية وهو يمتاز في هذا النقد بفهمه العميق لآراء الفلاسفة ومعرفته بأصول تلك الآراء ، ثم بوضوح فهمه للفروق الكبيرة بين الفلاسفة ومذهب أهل السنة والجماعة .

ويعرض ابن تيمية لمذهب أهل السلف والجماعة في النبوات في أثناء نقده للفلاسفة والمتكلمين والصوفية وقد عرض ابن تيمية لمسألة النبوات في كثير من كتبه ، ولكنه خصص كتابين من كتبه لها ، أولهما وأهمهما كتاب : « الصفدية » وقد كتبه للرد على من زعم أن معجزات الانبياء قوى نفسانية ، وهو يستهل الكتاب بعرض آراء الفلاسفة في النبوة ثم يجعل رده عليهم هو موضوع الكتاب الرئيسي .

وأما الكتاب الثاني فهو كتاب النبوات ، ويهتم فيه ابن تيمية بالرد على آراء المتكلمين في مسألة النبوة ، وأرجح أن قسماً لا يستهان من الكتاب مفقود ويرى ابن تيمية أن أصل مذهب الفلاسفة في النبوة مستمد من كلام

الصابئة والباطنية الذين كان منهم إخوان الصفا وابن سينا [١] .

ويوجه ابن تيمية نقداً عنيفاً إلى طريقة الباطنية التي اتبعها الفلاسفة ، وبعض مفلسفة الصوفية ، ووافقهم عليها الغزالي ، وينكر صحة ما يزعمه الباطنية من أحاديث ينسبونها إلى النبي مثل قولهم أنه قال : « القرآن باطن والباطن باطن إلى سبعة أبطن » .

ويقول ابن تيمية إنه إذا أريد بالعلم الباطن علماً مخالفاً لظاهر الشريعة فإن قائل ذلك إما ملحد زنديق ، وإما جاهل ضال ، وأنواع التأويل التي تلجأ اليها الفلاسفة وباطنية الصوفية هي من هذا النوع [٢] .

وابن عربي وابن سبعين والتلمساني والسهروردي المقتول ، كان منهم من يرى أن باب النبوة مفتوح ، لا يمكن إغلاقه .

وكان السهروردي المقتول يقول : لا أموت حتى يقال لي « قم فأنذر [٣] » .

ويذكر ابن تيمية ان هناك فروقاً أساسية بين الانبياء والسحرة ويمكن تلخيص هذه الفروق فيما يلي :

الاول : إن النبي صادق فيما يخبر عن الله ، لا يكذب . أما السحرة والكهان ، فلابد أن يكذبوا كما قال تعالى : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كافرون) الشعراء : ٢٢١ .

---

(١) الصفدية مخطوط (ظ ١) .

(٢) رسالة في العلم الظاهر والعلم الباطن ، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/٢٢٩ - ٢٣٠) .

(٣) تعارض العقل والنقل (١/٣١٨).

الثاني : الأنبياء لا يأمرون إلا بالعدل ، وطلب الآخرة ، وعبادة الله وحده ، وفي أعمالهم البر والتقوى ، أما السحرة والكهان فيأمرون بالشرك والظلم . ويعظمون الدنيا ، وفي أعمالهم الإثم والعدوان .

الثالث : إن السحر والكهانة أمور معتادة معروفة مقدورة للجن والإنس وليست خارقة ، ويمكن معارضتها بمثلها . أمّا آيات الأنبياء فلا يمكن لأحد أن يعارضها بمثلها .

الرابع : أن السحر والكهانة يناله الإنسان بتعلمه وسعيه واكتسابه وهذا مجرب عند الناس ، بخلاف النبوات ، فإنه لا ينالها أحد باكتسابه .

الخامس إن النبوة لو قدّر أنها تنال بالكسب فإنما تنال بالتوحيد والصلاح.

السادس : إنه إذا كان من المعجزات ما تقدر عليه الملائكة ، فإن الملائكة لا تكذب على الله ، ولا تدعي الرسالة أو النبوة ، وإنما تفعل ذلك الشياطين .

السابع : إن كرامات الصالحين ممكنة ، ولكنها ليست خارقة ، وهي تُنال بالصلاح والدعاء والعبادة ، وأما معجزات الأنبياء ، فلا تنال بذلك ، حتى لو طلبها الناس ، إلا بإذن الله ، كما قال تعالى : إنما الآيات عند الله) (العنكبوت : ٥٠)

الثامن : إن النبي ﷺ قد تقدمه أنبياء ، فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله ، فله نظراء يعتبر بهم ، وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتد بهم .

التاسع : إنّ ما يأمر به النبي يوافق العقول والفطر ، كما يوافق ما جاء به الأنبياء قبله ، فيوافق ما يأمرون به صريح المعقول وصحيح المنقول[1].

---

(١) النبوات (ص ١٢٧ – ١٢٨) وهذه المقارنة منقولة باختصار من كتاب مقارنة بين الغزالي وابن تيمية (ص ٤٩ – ٢٣٣) للدكتور محمد رشاد سالم.

مذهب ابن تيمية في الصفات

يرجع غالباً إلى ثلاث قواعد :

١ الأولى ان كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله من صفات يجب إثباته وما صرح الله أو رسوله بنفيه عنه تعالى يجب نفيه وما لم يصرح الشرع لا بنفيه ولا بإثباته يجب استفسار قائله . فان اراد به معنى صحيحاً موافقاً لما أثبته الشرع قبل والا وجب رده .

ويوضح تلك القاعدة قول ابن تيمية في تفسير سورة الاخلاص :

« وذلك ان ننظر فما وجدنا الرب قد أثبته لنفسه في كتابه أثبتناه وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه وكل لفظ وجد في الكتاب والسنة بالاثبات أثبت ذلك اللفظ وكل لفظ وجد منفياً نفي ذلك اللفظ .

وأما الالفاظ التي لاتوجد في الكتاب والسنة بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين لا اثباتها ولا نفيها وقد تنازع فيها الناس ، فهذه لالفاظ لاتثبت ولاتنفى الا بعد الاستفسار عن معانيها ، فان وجدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبتت وإن وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت وان وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل ، أو نفي به حق وباطل ، أو كان مجملاً يراد به حق وباطل ، وصاحبه ارد به بعضها ، ولكن عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما اراد وغير ما اراد ، فهذه الالفاظ لا يطلق اثباتها ولا نفيها (١)

---

(١) تفسير سورة الاخلاص .

وكذلك قوله في منهاج السنة :

« فالواجب ان ينظر في هذا الباب فما أثبته الله ورسوله أثبتناه وما نفاه الله ورسوله نفيناه والالفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الاثبات والنفي فنثبت ما أثبتته النصوص من الالفاظ والمعاني وننفي مانفته النصوص من الالفاظ والمعاني . وأما الالفاظ التي تنازع فيها من ابتدعها من المتأخرين مثل لفظ الجوهر والمتحيز والجهة ونحو ذلك فلا نطلق نفياً ولا اثباتاً حتى ينظر في مقصود قائلها ، فان كان قد اراد بالنفي والاثبات معنى صحيحاً موافقاً لما اخبر به الرسول ﷺ صوب المعنى الذي قصده بلفظه ولكن ينبغي أن يعبر عنه بألفاظ النصوص لايعدل إلى هذه الالفاظ المبتدعة المجملة الا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد بها .

والحاجة مثل ان يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه أن لم يخاطب بها ، وأما إن أريد بها معنى باطل نفى ذلك المعنى ، وإن جمع فيها بين حق وباطل أثبت الحق وأبطل الباطل

وإذا اتفق شخصان على معنى وتنازعا هل يدل ذلك اللفظ عليه أم لا ، عبر عنه بعبارة يتفقان على المراد بها وكان اقربهما إلى الصواب من وافق اللغة المعروفة [1]

٢ ــ أما القاعدة الثانية فمضمونها نفي مماثلة الله عز وجل لشيء من خلقه في ذاته وصفاته وافعاله فهو سبحانه لا يماثل شيئاً ولا يماثله شيء ، وكل ماثبت له من صفات الكمال فهو مختص به لا يشركه فيه غيره

وان كان هناك من الاسماء مايطلق على صفات الله كما يطلق على صفات خلقه فان هذا ليس الا محض اشتراك في الاسم لا يقتضي مماثلة صفاته لصفاتهم

(١) منهاج السنة جـ ص ٣٤٩ .

عصره ، فان ابن تيمية تصدى التتار بكل ما يملك من قوة علمية ونفسية بل وبدنية ، فقد وقف في دمشق مع نائب السلطان الافرم يحرض المسلمين على الثبات ضد التتار في حين فر من المدينة أكثر العلماء و كبار رجال الدولة ، كما أغلظ سلطان التتار غازان لسوء معاملته للمسلمين مع ما في ذلك من خطر على حياته ، ولما رأى اشتداد خطر التتار سافر من سوريا الى مصر وحرض السلطان الناصر ورجاله على حروب التتار سافر من سوريا الى مصر وحرض السلطان الناصر ورجاله على حروب التتار بعبارات شديدة ، ثم اشترك بنفسه في معركة « مرج الصفر » وانطلق بين الجنود يحرضهم ويؤكد لهم استحقاقهم لنصر الله ماداموا قد أخلصوا في طاعة الله ، ثم انطلق يقاتل معهم قتالاً شديداً ضد التتار (١) حتى تم النصر للمسلمين .

= الحروب كما يفرضه عليه الله تعالى ، وكما فعل الامام ابن تيمية في محاربة التتار ، بل لم يكتب حرفاً عن هـذه الحرب وعن الجهاد في جميع كتبه وخاصة « الاحياء » التي ألفها خلال الحروب الصليبية ، بخلاف حتى بطرس الراهب الذي كان يطوف أوربا ويحرض أهلها على قتال المسلمين !

قال الدكتور عمر فروخ : وقد وقف جميع الصوفية (كالغزالي) موقفاً هادئاً من الحروب الصليبية التي كانوا يعتقدون أنها كانت عقاباً للمسلمين على معاصيهم.

وكان ذلك نتيجة سلوك طريق التصوف مقال رجوع الغزالي إلى اليقين ص ٣٠٠ — ٣٠١ مهرجان الغزالي بدمشق

(١) نقلت هذا البحث القيم عن رسالة : « مقارنة بين الغزالي وابن تيمية باختصار للاستاذ محمد رشاد سالم ، وكان سبقه يبحث عن « ثقافة الغزالي » وشتان بين الثقافتين، وقد رأينا فيها تقدم ثقافة الامام ابن تيمية المبينة على الكتاب والسنة والتي لا يضل صاحبها ولا يشقى « بخلاف ثقافة الغزالي التي أسسها على التصوف كما قال عنه الامام ابن الجوزي في كتابه القيم :« تلبيس ابليس » وغيره وترك فيه قانون الفقه » يريد الشرع كما أسسها أيضاً على الفلسفة وعلم الكلام اليونانيين، وقد فشل فيها بشهادة =

فالصفة تتبع الموصوف فان كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة وان كان الموصوف هو العبد فصفاته مخلوقة [1]

. ويستدل ابن تيمية لنفي المماثلة من السمع بمثل قوله تعالى (ليس كمثله شيء) وقوله (هل تعلم له سمياً) وقوله (قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)

ومن العقل بأن المتماثلين يجوز على احدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

فلو قدر انه ماثل غيره في شيء من الأشياء لزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع على ذلك الغير .

ومعلوم ان كل ما سواه ممكن قابل العدم . بل معدوم مفتقر الى فاعل ومصنع مربوب محدث .

فلو ماثل غيره في شيء من الأشياء لزم ان يكون هو والشيء الذي ماثله فيه ممكناً قابلاً للعدم بل معدوماً مفتقراً إلى فاعل ممنوعاً مربوباً محدثاً [2].

٣ ــ القاعدة الثالثة : ان الكمال ثابت لله تعالى بل الثابت له اقصى ما يمكن من الاكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه الا وهو ثابت للرب تعالى يستحقه بنفسه المقدسة ويتنزه عن الاتصاف بضده .

فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها بريء عن سمات النقص والاحتيــــاج

وكل كمال ثبت للمخلوق وأمكن ان يتصف به الخالق كان الخالق اولى به وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق اولى بتنزيهه عنه .

وقد قدمنا ان ابن تيمية قد عول على هذه القاعدة تعويلاً كبيراً ويرى أنها كانت ولا تزال معتمد العقلاء في اثبات الله عز وجل وصفاته [3]

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ٢ ص ٥٤ (٢) منهاج السنة جـ ص ١٩٥ .
(٣) عن كتاب : « ابن تيمية السلفي » باختصار .

شيخ الاسلام والصوفيه

قال الاستاذ محمد ابي زهرة [٢] استاذ الشريعة في كلية الحقوق في جامعةالقاهرة :

شغل الفكر الاسلامي بافكار أثارها المتصوفة ، تتعلق بصلة الله سبحانه وتعالى بخلقه ، وان المعروف بين علماء المسلمين المقرر في مصادر الدين انها صلة الخالق بالمخلوق ، والمبدع بما أبدعه ، والله واجب الوجود الذي ليس كمثله شيء ، والمخلوق ممكن الوجود ، عرض له الوجود بعد ان لم يكن .

لكن بعض المتصوفة اثاروا أموراً تجعل الصفة ليست كذلك فقط ، فقد قالوا تابعين لأراء قديمه بجواز حلول الله في بعض الآدميين اذا كان مستعداً لذلك بصفاء نفسه وصقل روحه ، واظهر من قال ذلك الحلاج ، ثم جاء ابن عربي [٣] فحكم بوحدة الوجود ، وان الموجود واحد ،

---

(١) ان هذا البحث والذي بعده منقولان عن كتابه (ابن تيمية)

(٢) ومن أقواله الدالة على وحدة الوجود :

ياخالق الاشياء في نفسه ... انت لما تخلقه جامع
تخلق ماينتهى كونه ... فيك ،فأنت الضيق الواسع !!

ومن اقواله :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فرعى لغزلان ودير لرهبان !!
وبيت الاوثان ! وكعبة طائف ... والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب اي توجهت ... ركائبه ، فالدين ديني وايماني !! ←

تعددت صوره وأشكاله ومظاهره ثم جاء بعد ذلك فكرة الاتحـــاد بين المخلوق والخالق من حيث المحبه والشوق ، فانه بهذه المحبة يتصل بالله تعالى ويعلو اليه ، وانه عندما يصل الى درجة الاتحاد بالذات العليه يكون في غيبوبة يسمونها المحو ، أي فناء ذاته الفانية في ذات الله الباقية أو يسمونها السكر لأنه يغيب فيها عن الحس ، ويسمى اولئك هذه الحال بوحـــدة الشهود ، وهي مقابل ماقاله ابن عربي وحدة الوجود . وقد جـاء ذلك المذهب في شعر عمر بن الغارض [١] ، وحكم ابن عطاء الله السكندي الذي عاصر ابن تيمية وشكاه الى أولي الامر سنة ٧٠٧

نقض ابن تيمية هذه المذاهب التي تربط الخالق بالمخلوق . لانه اولاً راها منافية لمعنى توحيد الله سبحانه وتعالى الذي شرحه وبينه ، وثانيـاً

← ومن اقوال الحلاج يبحث عن حلول محبوبه فيه وهو الله جل جلاله ، تنزه عن ذلك .

أنا من أهوى ،ومن أهوى أنا — نحن روحان حللنا بـدنا
فاذا أبصرتني أبصـرته — واذا أبصرته أبصـرتنا؟

ومن أقوال الحلاج أيضاً يصف حلول الله سبحانه فيه :

أنت بين الشغاف والقلب تجري — مثل جري الدموع من اجفان
وتحل الضمير جوف فؤادي — كحلول الارواح في الابدان

(١) ومن أشنع ماقاله ابن القارض في وحدة الوجود مما يؤدي الى اسوأ المفاسد الخلقية قوله :

وصرح بأخلاق الجمال ولا تقل — بتقييده ميلا لزخرفة زينـة
فكل مليح حسنه من جمـالها ! — معار له بل حسن كل مليحـة!
بها قيس لبني هام، بل كل عاشق ! — كمجنون ليلى ، أو كثير عزة
فكل صبا منهم الى وصف لبسها — بصورة حسن لاح في حسن صورة!
وما ذاك الا أن بدت بمظاهر — فظنوا سواها وهي فيها تجلت !!

لانه رأى بعض قائليها يدعون لانفسهم حالا يعلون فيها على التكليف ، وابن تيمية يرى ان من ينزع ذلك المنزع معطل لاحكام الشرع خالــع الربقة ، وثالثاً لانه رأى الناس يزعمون في أصحابها قدرة خارقة للعادة، فيتقربون الى الله بهم ، وهم من يسمون عندهم اولياء.

رأى ابن تيمية فيهم ذلك فشن عليهم حرباً شعواء أقض بهــا مضاجعهم ، ونالوا منه عند السلطان والناس ، ونال منهم عند الناس ، ولقد ناقش اقوالهم مناقشة العارف لها الفاحص لدقائقها ، العارف لأسرارها ، ولكنــه سماها كلها مذهب الاتحاد ، أو الاتحاديــين ، وكأنه نظر الى المعنى المشترك في هذه الامور الثلاثة ، وهي وحدة الوجود ، والحلول ، والفناء في الله بالمحبة ، وذلك لأن هذه المناهج الثلاثة تلتقي في معنى الاتحاد ، اتحاد المخلوق بالخالق ، بيد ان وحدة الوجود فيها اتحاد لاتعــدد فيه ، فليس هناك اثنان ، بل وحدة لاثنية فيه ، والاخران فيهما اتحــاد بين اثنين ، على تفرقة بين الاصطلاحين.

ولقد قال في مقدار فهمه لمذهب هــؤلاء الاتحاديين في نظره : « لقد افترقوا بينهم على فرق ، ولا يهتدون الى التمييز بين فرقهم ، مع استشعارهم انهم مفترقون ، ولهذا لما بينت لطوائف من اتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم وسر مذهبهم صاروا يعظمون ذلك ، ولولا ما أقرنــه بذلك من الذم والرد لجعلوني من أئمتهم ، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم مايجل عن الوصف ، كما تبذل النصارى لرؤسائهم ، والباطنية لكبرائهم ، وما بذل آل فرعون لفرعون . وكل من يقبل قول هؤلاء فهو اما جاهل بحقيقة أمرهم ، واما ظالم يريد علواً في الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين وهذه حال اتباع فرعون ، الذين قال الله فيهم : «فاستخف قومه فأطاعوه »».

ويرى رضي الله عنه أنه يكفي لرد هذه المذاهب تصورها ، فان تصورها كاف في بيان فسادها ، ولا يحتاج مع حسن التصور الى دليل آخر « وانما تقع الشبهة لأن اكثر الناس لايفهمون حقيقة قولهم وقصدهم » .

ويقول مشنعاً على مذهب وحدة الوجود : « أصلهم الذين بنوا عليه ان وجود المخلوقات والمصنوعات حتى وجود الجن والشياطين والكافرين والفاسقين والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر والفسوق والعصيان عين وجود الرب ! لا أنه متميز عنه منفصل في ذاته ، وان كان مخلوقاً مربوباً مصنوعاً له قائماً به ، وهم يشهدون ان في الكائنات تفرقا وكثرة ظاهرة بالحس والعقل ، فاحتاجوا الى جمع يزيل الكثرة ، ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها » .

وهو مع شدته على المذهب وقائليه يقول في ابن عربي قولا رقيقاً نسبياً ، فيقول : « مقالة ابن عربي مع كونها كفراً هو أقربهم الى الاسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد ، ولأنه لايثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو ماتم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى ، والله أعلم بما مات عليه »

يقوم مذهب ابن عربي في نظر ابن تيمية على دعامتين ، أو اصلين كما عبر هو :

أحدهما : أن المعدوم شيء ثابت في حال العدم أي أن كل معلوم يمكن وجوده ـ حقيقته وماهيته وعينه ثابتة في العدم ، لانه لولا ثبوتها ماصح قصده بارادة ايجاده ! لأن القصد يستدعي التمييز ، والتمييز لايمكن

الا في شيء ثابت ، وعلى ذلك لايكون ايجاد المعدوم خلقاً لماهيته وحقيقته وعينه ، بل هو جعل للصورة المحدثة من حيوانية أو نباتية أو معدنية أو حجرية أو نحو ذلك من الاعراض المتغيرة ، اما الجوهر فثابت [1]

ثانيهما : أن وجود الخلق هو وجود الحق وعينه ، ويقرر ابن تيمية ان ذلك هو مفتـــاح كلام ابن عربي وفلسفته ، ويقول في ذلك : «فمن فهم هذا فهم كلام ابن عربي نظمه ونثره ، ومايدعيه من ان الحق يغتذي بالخلق ، لأن وجود الاعيان الحادثة معتمد بالاعيان الثابتة في العـدم ، ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود ، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان الحادثة ، ويزعم أن هذا هو سر القدر ، لأن الماهيات لاتقبل الا ماهو ثابت لها في العدم في انفسها ، فهي التي احسنت واساءت ، وحمدت وذمت ، والحق لم يعطها شيئاً الا ما كانت عليه حال العدم والصورة العارضة .

وبعد أن يقرر ابن تيمية مذهب ابن عربي كما رآه يعود عليه بالنقض والهدم ، والمقصد الذي يتجه اليه أولاً وبالذات في هدمه هو بيـــان أنه لايتفق مع الحقائق المقررة في الاسلام ، وانه والاسلام على طرفي نقيض لايجتمعان ولا يتلاقيان ، ولذا يتجه الى نقضه بالمنقول مع المعقول ، ويعتمد على المنقول اكثر لسببين :

أولهما : ان ذلك المذهب الفلسفي هو من ضمن مذاهب الفلاسفة الذين حكموا بقدم العالم ، وهو ان لم يكن مثلهم قد قاربهم أو سار على

---

(١) رسالة مذهب الاتحاديين ص ٧

مناهجهم ، وقد ناقش ابن تيمية اولئك الفلاسفة في مذاهبهم ، وبين بطلانها في كتبه وبحوثه المختلفة مثل منهاج السنة وغيره .

ثانيها : ان ابن عربي قد اعتنق رأيه كثيرون من المسلمين،وحسبوه اسلاما ، بل حسبوه لب الاسلام ومعناه ! وخصوصا ان ابن عربي زينه لهم باثبات ان محمداً ﷺ هو العقل الأول ، وأنه كان قبل كل شيء،فسهل على بعض المسلمين قبوله ، ورغب كثيرون في اعتناقه ، وكادت الفكرة فيه تعم الصوفية في عصر ابن تيمية ، لذلك وجد ابن تيمية أن الحاجة ليست الى ابطال أصله العقلي فقط ، بل هي ماسة وضرورية لابطاله من الوجهة النقلية ، ولذلك هاجمه بمجرد تمام تصويره بأنه مناف للمقررات الاسلامية المعلومة من الاسلام بالضرورة فقال : « فتدبر كلامه ، كيف انتظم شيئين : انكار وجود الحق ، وانكار خلقه لمخلوقاته ، فهو منكر للرب الذي خلق ، فلا يقر برب ولا بخلق ، ومنكر لرب العالمين ، فلا رب ولا عالمون مربوبون ، اذ ليس هناك الا أعيان ثابتة ، ووجود قائم بها ، فلا الأعيان مربوبة ، ولا الوجود مربوب ، ولا الأعيان مخلوقة ، ولا الوجود مخلوق [1].

وعندما يتجه ابن تيمية الى ابطال ذلك المذهب بالنقل والعقل ، يبتدىء فيبطل الدعامة الاولى من دعائمه وهي ان المعدوم كان شيئاً وكانت ماهيته ثابتة ، فيقول في ذلك :

« والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الاصناف . ان المعدوم ليس في نفسه شيئاً ، وان ثبوته ووجوده وحصوله

---

(١) مذهب الاتحاديين ص ١٧

شيء واحد . وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والاجماع في القديم .قال الله تعالى لزكريا « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » فأخبر أنه لم يك شيئاً . وقال تعالى : « أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » وقال تعالى : « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » فأنكر عليهم اعتقادهم أن يكونوا خلقوا من غير شيء خلقهم ، أو خلقوا هم أنفسهم » .

ثم يرد استدلالهم ببعض الآيات مثل قوله تعالى : « انما قولنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون » . فيقول قد استدل بها من قال المعدوم شيء وهو حجة عليه ، لأنه أخبر أنه يريد الشيء ، وأنه يكونه ، وعندهم أنه ثابت في العدم ، وانما يراد صورته لاعينه نفسه . والقرآن قد أخبر أن نفسه تراد ، وتكون ، ويعتمدون على أن الوجود صفة عارضة على الذات وهي غير الذات ، فيقول ابن تيمية في رد قولهم : « ان الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء أن الماهيات مجعولة،وان ماهية كل شيء عين وجوده ، وأنه ليس وجود الشيء قدراً زائداً على ماهيته ، بل ليس في الخارج الا الشيءالذي هو الشيءوهو عينهونفسهوماهيتهوحقيقته، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائداً على ذلك »[1] .

ويبطل ابن تيمية الأصل الثاني ، وهو الوحدة بين الحق والخلق ، أو بين المخلوق والخالق بوجوه عقلية كثيرة ، ووجوه شرعية ، ولنختر واحداً من الأدلة العقلية التيساقها ! وهو أولها .

لقد قرر ابن تيمية أن هؤلاء يرون أن هذه الحقائق الكونية كانت معدومة في نفسها ، ولكنها أشياء في عينها ، وفى علم الله سبحانه ، وفي

---

(١) الرسالة المذكورة ص ١٥

تجليه المطلق ، ووجوده المطلق ، وكانت متحدة بنفسه ووحدته الذاتية، ثم كانت بعد ذلك على هذه الاشكال . فينظر ابن تيمية كيف تحولت من حالها الأولى ، أخلقها الله وبرأها وجعلها موجودة ، أم لم تزل على حالها الأول معدومة وان كانت شيئاً ولها ماهية ، فان كانت لم تزل معدومة ترتب على ذلك ألا يكون شيء من الكونيات موجوداً ، وهذه مكابرة للحس والعقل والشرع ، ولا يقوله عاقل ، ولم يقله عاقل ، وان كانت موجودة بعد أن كانت معدومة على النحو الذي يقررونه في معنى العدم ، يترتب على ذلك الا تكون وموجدها شيئاً واحداً ، لأنه لم يكن معدوماً ووجد ، ولأنه هو المؤثر فيها بهذا التغيير ، ويجب أن يكون المؤثر والمتأثر شيئين متغايرين [١] .

ويبين هذا المذهب من الناحية الدينية فيقول : « وجماع أمر صاحب الفصوص [٢] وذويه هدم أصول الايمان الثلاثة ، فان أصول الايمان : الايمان بالله ، والايمان برسله ، والايمان باليوم الآخر ، فأما الايمان بالله فزعموا أن وجوده وجود العالم ليس للعالم صانع غير العالم ، وأما الرسول فزعموا أنهم أعلم بالله منه ومن جميع الرسل ، ومنهم من يأخذ العلم بالله الذي هو التعطيل ووحدة الوجود من مشكاته [٣] ، وأنهم يساوونه في اخذ العلم بالشريعة عن الله ، وأما الأيمان باليوم الآخر فقد قال :

فلم يبق الا صادق الوعد وحده ... وبالوعيد الحق عين تعاين

وان دخلوا دار الشقاء فانهم ... على لذة فيها نعيم يباين

---

(١) مذهب الاتحاديين ص ٢٧

(٢) هو ابن عربي لان مذهبه دونه في كتابه الفصوص وكتابه الفتوحات المكية .

(٣) يعرض بحجة الاسلام الغزالي صاحب كتاب مشكاة الانوار .

وهذا يذكر عن بعض أهل الضلال قبله أنه قال : « ان النار تصير لاهلها طبيعة نارية يتمتعون بها ، وحينئذ فلا خوف ولا محذور، ولاعذاب لأنه أمر مستعذب [1] »

ويرى ابن تيمية أن ذلك المذهب يسقط التكليف ويبيح المآثم ، فيقول : « ثم انه في الأمر والنهي عنده الآمر والناهي والمأمور والمنهي واحد ، ولهذا كان أول ماقاله ابن عربي في الفتوحات المكية التي هي اكبر كتبه :

الرب حق والعبد حق ياليت شعري من المكلف؟
إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب أنى يكلف؟!

ولكي يقبح مذهبه في نظر العامة الذي غزت هذه الافكار نفوسهم وإن لم يفهموا معناها ينقل عن العلماء الذين لهم منازل خاصة عند العامة في مصر والشام رأيهم في ابن عربي وتكفيره [2] او تقبيح مذهبه فينقل عن القسطلاني وابن دقيق العيد رأيهم فيه ، وينقل عن عز الدين بن عبد السلام قوله في ابن عربي : « شيخ سوء مقبوح ، يقول بقدم العالم ، ولا يحرم فرجا!» .

ولا يكتفي بالنقل عن الفقهاء والمحدثين . بل ينقل عن الصوفية انفسهم ، فينقل عن ابي العباس الشاذلي تلميذ ابي الحسن الشاذلي أنه قال في اصحاب مذهب وحدة الوجود :«هؤلاء كفار يعتقدون ان الصنعة هي الصانع » [3] .

---

(١) رسالة مذهب الاتحاديين ص ٧٤

(٢) لازلنا ننقل عن الاستاذ الشيخ محمد ابي زهرة

(٣) راجع هذه النقول في الرسالة المذكورة ص ٧٥ و ٧٦

ويسترسل ابن تيمية في ابطال هذا المذهب بالأدلة العقلية تارة ، والنقول تارة اخرى ، ويشنع عليه بأقوال كبار رجال العصر فيه لينفر الناس منه ، ويبعدهم عنه اذ كان يخشى على العامة منه ، وقد اعتنقه بعضهم من غير ان يفهمه.!

وانا نكتفي بهذا القدر من نظر ابن تيمية الى مذهب وحدة الوجود، فلننتقل الى نظره في المذهبين الآخرين المشاركين له في الاتحاد بذات الله تعالى ، وأن افترقا في المعنى ، واولهما مذهب الحلول الذي نادى به الحلاج كما بينا وغيره ، وقد اختلفت فيه الانظار .

ويحكي ابن تيمية أن القائلين بالحلول فريقان : فريق يقول ان الله سبحانه حال بذاته في كل مكان ويسميهم حلولية الجهمية ، ويقول فيهم: « هم الذين يقولون إنه بذاته في كل مكان ، كما تقول النجارية أتباع حسن النجار » [1] ويرى أن القائلين بالحلول على ذلك النحو يتقاربون من القائلين بوحدة الوجود ، ولكن كان ثمة فرق دقيق ، وهو أن اصحاب وحدة الوجود يرون أن الوجود كله شيء واحد ، أما هؤلاء الحلوليون فانهم يرونهما متغايران ، ولكن الموجد حل في الموجود.

والفريق الثاني هم الذين قالوا ان الله يحل في بعض مخلوقيه ، كما يدعون من أنه حل في الحلاج ، ومهما يكن فان الحلاج من القائلين بذلك وهو القائل :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
حتى بدا في خلقه ظاهراً ... في صورة الآكل والشارب !!

(١) مجموعة الرسائل والمسائل الجزء الاول ص٧٠

ويقول ابن تيمية في هذا المذهب انه كقول النصارى في المسيح عليه السلام ، بل انه يقول انه شر من قول النصارى « لان النصارى ادعوا ذلك في المسيح لكونه خلق من غير أب ، والشيوخ لم يفضلوا في نفس التخليق ، وانما فضلوا بالعبادة والمعرفة والتحقيق والاتحاد ، وهذا أمر حصل لهم بعد ان لم يكن ، واذا كان هذا سبب الحلول ، وجب أن يكون الحلول فيهم حادثا ، لامقارنا ، وحينئذ فقولهم ان الرب ما فارق أبدانهم أوقلوبهم طرفة عين قط كلام باطل »[1] .

وان الذين يفرقون بين قول هؤلاء وقول النصارى : يقولون ايضا ان المسيح عليه السلام هو ابن الله في نظرهم : فالعنصر الالهي فيه هو الأصل ، والناسوت عارض له ، اما الحلوليون في الاسلام فانهم يقولون ان العنصر الانساني هو الأصل ، والعنصر الالهي حل فيه ، وذلك بفضل العبودية والمحبة حتى فني في الله سبحانه وتعالى .

ومهما يكن من قرب الفكرة بين الحلاج وقول النصارى فمن المؤكد ان نظره بعيد عن الاسلام بعد النصرانية عنه !

ولاشك في ان من سلك ذلك المسلك يخالف المعقول والمنقول.

هذا نظر ابن تيمية الى مذهب الحلول وهو رأي سليم لاشبهة فيه ، والمذهب الثالث الاتحاد ، واصحابه كما ذكرنا عند الكلام على الصوفية في عصر ابن تيمية يقررون ان الناسكين المتعبدين قد تصفو نفوسهم وتعلو حتى تفنى في ذات الله سبحانه وتعالى ، وهذا المذهب لا ينظر اليه ابن تيمية على انه كفر كالمذهبين السابقين ، ولكنه يرى أنه لايخلو من بعد عن حقيقة الشريعة ، وذلك اذا وصل الى الحال التي يدعون فيها سقوط

---

(١) المجموعة المذكورة ج ١ ص ٨٠

التكليف ، فانه لايرتضي ذلك ولا يقبله ، فانه زيغ عنــد من يعتقده ، فالفناء في الله يقبله مالم يؤد الى القول الذي يزعمه بعض المتصوفة .

ولقد قسم الفناء الى ثلاثة اقسام : اثنان غير محمودين ، وواحدمنها محمود ، وهذه هي الاقسام الثلاثة :

القسم الاول : وهو المحمود الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل ، وانزلت به الكتب ، وهو أن يفنى عما لم يأمر به الله بفعل ماأمر الله به ، فيفنى عن عبادة غيره بعبادته ، وعن طاعة غيره بطاعته ، وطاعة رسوله ، وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه ، وعن محبة سواه بمحبته ومحبة رسوله ، وعن خوف غــيره بخوفــه ، بحيث لايتبع العبد هواه بغير هدى من الله ، وبحيث يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، كما قال تعالى : « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم وازواجكم وعشيرتكم وامــوال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » فهذا كله مما أمر الله به .

القسم الثاني : وهو الذي يذكره الصوفية ، وهو ان يفنى عن شهود ماسوى الله فيفنى بمعبوده عن عبادته ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفته ، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله ، فهذه حال ناقصة قد يعرض لبعض السالكين وليس هو من لوازم طريق الله ، ولهــذا لم يعرض مثل هذا النبي ﷺ والسابقون الاولون ، ومن جعل هــذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالاً مبيناً . وكذلك من قال انه لوازم طريق الله فهو مخطىء ، بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض ، وليس هو من اللوازم التي تعرض لكل سالك .

القسم الثالث : « وهو الفناء عن وجود السوي ، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، وأن الوجود واحد بالعين ، فهو قول أهل الالحاد والاتحاد الذين هم من أضل العباد [١] » .

والقسم الثاني هو الذي ينطبق عليه الفناء الذي يقوله أصحاب الاتحاد . وأما الثالث فهو يتجه الى قول أصحاب وحدة الوجود ، وانه يحكم على أصحاب القسم الثاني بأنهم ضالون ، ولم يحكم بأنهم ملاحدة ، ولا زنادقة ، بل قال جهلة أوضالون ، ولكنه بغير الحكم اذا قالوا انهم يصلون الى الحال التي يسقط فيها التكليف في زعمهم .

منهج ابن تيمية في معرفه العقيدة

وعلاقته بالمناهج الفلسفية

درس ابن تيمية الفلسفة وعرفها ، ولكنه درسها ليهدمها ، وهو قد رآها داء قد اصاب فكر المسلمين ، فجعل منهم المتكلمين والمتفلسفين ، وانها سرت الى العقل الاسلامي فسيطرت على مساربه ، ويرى أنه قبل أن يخوض في بيان العقيدة الاسلامية وموافقتها لصريح المعقول لابد من ابعاد العناصر الفلسفية التي هي أخيلة واوهام ، كما يبعد عن الجسم الانساني الأخلاط الضارة لتتم سلامته ، فيقول في ذلك :

« لما كان بيان مراد الرسول في هذه الابواب لايتم الا بدفع المعارض العقلي ، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الانبياء ، بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله ، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، اذ كان أي دليل أقيم على بيان مراد

---

(١) التدمرية ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

الرسول لاينفع اذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه ، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول ، وقدحاً فيمن استدل بكلامه ، وصار هـذا بمنزلة المريض الذي تكون به اخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء ، فلا ينفعه مع وجود هذه الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء ، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات أو بعضها ، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيه، أو امتناع المعاد أو غير ذلك لاينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة ، الا مع بيان فساد ذلك المعارض، والمعارض قد يعلم جملة وتفصيلا [1] » .

درس اذن ابن تيمية الفلسفة وما عند الفلاسفة ، لا ليطلب الحقائق من ورائها ، بل ليبين بطلان مايعارض الدين منها ، فهو آمن بما جاء به الرسول اولاً ، ثم اراد ان ينفي عنه خبث الفلسفة ، فدرس ذلك الخبث ليعرف حقيقته ثم ليبين بطلانه بعد معرفته .

وهو في هذا يفترق عن منهاج الغزالي رضي الله عنه ، فهو قد درس الفلسفة ليطلب الحقيقة من ورائها ، وخلص نفسه من كل شيء ليصل الى الحق المستقيم ، واعتبر الشك هو الطريق للوصول الى الحق، ولكن تبين له بطـلان مايقوله الفلاسفة ، فعاد الى الدين ، وأشرق في نفسه نور الحقائق في خلوات [2] صوفية عرف فيها نفسه ، ثم حمل حملته على الفلاسفة وبين تهافتهم .

ومع ذلك هل تجرد منها ؟ انه بقيت في نفسه أثارة منها ، بل انه لم يتركها الا وقد تكون عقله تكوناً فلسفياً ، وأخذ احـد شعب الفلسفة وجعله جزءاً من دراساته ، وهو المنطق ، فهو في مقدمة كتاب المستصفى

---

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول المطبوع على هامش منهاج السنة ص ٩ ج ١

(٢) معرفة النفس لاتكون بمثل هذه الخلوات! (م)

في علم الاصول ، والذي يعد احد دعائم علم اصول الفقه الثلاثة [١] يقرر ان الحقائق لايمكن انتعرف في اي علم من العلوم على وجهها الا اذا كان المنطق ميزانها، ويقول فيمقدمة كتاب المستصفى التي شرح بها علم المنطق اجمالاً مانصه :

« نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارهافيالحدوالبرهان، ونذكر شرط الحد الحقيقي ، وشرط البرهان الحقيقي ، واقسامهما على منهاج أو جز مما ذكرناه في كتاب محك النظر ، وكتاب معيار العلم ، وليست هذه المقدمة من جملة علم الاصول ، ولامن مقدماته الخاصة به ، بل هي مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه اصلا [٢] »

وهذا ايمان بشعبة من شعب الفلسفة عميق ، فان علم المنطق فرع من فروعها ، بل لعله أعظم تراث تركه ارسطو من بعده .

هذا هو الفرق بين المقصد عند هذين العالمين من دراسة الفلسفة ، وقد تأدىبالأول الىنقضها ، وتأدى بالثاني الى اعتناق بعضها ، لذا قال بعض تلاميذ الغزالي : انه دخل في بعض الفلسفة ، ولما اراد الخروج منها لم يستطع ، فكانت منه تلك المناهج الفلسفية التي سلكها في دراسة العقائد ، ودراسة اصول الفقه، بل كان منه تلك الحيرة التي بدت في آرائه في الفلسفة والفلاسفة ، فبينا تراه يحمل على الفلاسفة ،ويبين تهافتهم ، تراه يقبض قبضةمن علومهم ويجعلها وحدها ميزان العلوم . ولذا قال ابن تيمية فيه :

---

(١) الكتب الثلاثة هي : المعتمد لابي الحسين البصري ، والبرهان لامام الحرمين ، والمستصفى للغزالي .

(٢) مقدمة المستصفى ص ١٠ الجزء الاول .

« كان ابو حامد مع مـايوجد في كلامـه من الرد على الفلاسفة ، وتكفيره لهم ، وتعظيم النبوة وغير ذلك ، ومع مـ ايوجد فيه من أشياء صحيحة حسنة ، بل عظيمة القدر نافعة، يوجد في بعض كلامه مادةفلسفية وأمور اضيفت توافق أصول الفلاسفة المخالفة للنبوة ، بل المخالفة لصريح العقل . حتى تكلم فيه جماعات من علمـاء خراسان والعراق والمغرب [1] » .

ويقول فيه ايضاً :

« وابو حامد لايوافق المتفلسفة على كل مايقولون ، بـل يكفرهم ويضللهم في موضع ، وان كان في الكتب المضافة اليه ماقد يوافق بعض اصولهم ، بل في الكتب التي يقال انها مضنون بها على غير اهلها مـا هو فلسفة محضة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى ! وان كان قد عبرعنها بعبارات اسلامية ، لكن هذه الكتب في الناس من يقول انها مكذوبةعلى ابي حامد ، ومنهم من يقول: بل رجع عنها . ولاريب انه صرح فيبعض المواضع ببعض ماقاله في هذه الكتب ، واخبر في المنقذ من الضلال وغيره من كتبه بما في هذه من الضلال [2] » .

ثم بين أن الغزالي كان ينقل كتب الفلسفة ، وأقوال الفلاسفة . وينقل عن ابي عبد الله المازري المتكلم فيقول :

« قال (ابن المازري) ووجدت هذا الغزالي يعول على ابن سيناء في اكثر مايشير اليه من علوم الفلسفة ، حتى انه في بعض الاحايين ينقل نص كلامه من غير تغيير واحيانا يغيره . وينقله الى الشرعيات اكثر

---

(١) شرح العقيدة الاصفهانية ص ١١٥

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٩

مما نقل ابن سينا ، لكونه أعلم باسرار الشرع منه ، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل اخوان الصفا عول الغزالي في علم الفلسفة [1] » .

من هذا يتبين كيف غمر الغزالي نفسه في الفلسفة ولم يستطع الخروج منها ! ! لأنه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها فكانت نبتة في الطلب سبباً في أن أحاط به غمارها ، وكان يعيش في اقطارها ، فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي ، ففلسف الشريعة ، أو ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشعر أو لا يشعر .

أما ابن تيمية فقد طلبها ليهدمها ، فكان يقرؤها ويفهمها ، وهو في غير محيطها ، ولم ينغمر في غمارها ، وشدد النكير على الغزالي في منهاجه ، وأخذ يتبع هفواته وينقض هناته !

ولقد كان يرى أن علم الشرع من النبوة وحدها ، سواء في ذلك أصول العقيدة ، وفروع الفقه والاحكام العلمية ، لأن النبوة جاءت بكل ذلك ، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ، ولا طريق سواه ، ويرى ان اولئك الذين يضعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية ، ويجعلون ما جاء في القرآن يسير على منهاجها ، فيؤولون صريحه ليوافقها ، انما يجعلون علم العقل فوق علم النبوة ، ويقول في ذلك :

« يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم ، وأن النظر يوجب العلم وأنه واجب ، ويتكلمون في جنس النظر وجنس العلم كلام قد اختلط فيه الحق بالباطل ، ثم اذا صاروا الى ما هو الأصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الاعراض على حدوث الاجسام ، وهو دليل

---

(١) الكتاب المذكور ص ١١٧

مبتدع في الشرع [1] » .

ينتقدابن تيميةهؤلاء لأنهم يقدمون عند دراستهم لماجاءت بهالنبوة، تلك الدراسة العقلية عليها . ثم يحكمون على الاوصاف التي جاءت في في القرآن بقوانينها . ويوجهونها بتوجيهها . فما يوافقها اقروه كما ورد . ومالم يوافقها وجهوه على اتجاهها، واولوه بتأويلها . ثم هم في هذاالسبيل لم يلتفتوا الى السنة ، ولم يعلموا أنها شارحة الكتاب . مبينة لكل ما جاء به ، وأنها الطريق الوحيد لتفسيره .

ينقد ابن تيمية ذلك المسلك . لأنه يجعل الحاكم محكوماً .فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكومة بها خاضعة .

ولقد قسم ابن تيمية طرائق العلماء في فهم العقائد الاسلامية كما يفهم من رسالته معارج الوصول الى اربعة اقسام :

القسم الاول : الفلاسفة . وهؤلاء يقولون : « القرآن جاء بالطريقة الخطابية والمقدمات الاقناعية التي تقنع الجمهور ويدعون أنهم هم أهــل البرهان اليقين»! .

والقسم الثاني : المتكلمون وهم الذين ذكر ابن تيمية أنهم يقدمون قضايا عقلية على النظر في الآيات القرآنية ! وقد ذكر انهم يجعلون المحكوم حاكما . فيما نوهنا آنفا . وكلامه فيهم يدل على أنهم المعتزلة .

والقسم الثالث : طائفة من العلماء لاينظرون الى القرآن من جهة ما شتمل من ادلة هادية مرشدة مثبتة للحق . وليست لمجرد الاقناع . بـل يعتبرون مافي القرآن من آيات دالة على التوحيد والصفات من ناحية أنها أخبار ، لا أدلة مثبتة . وهؤلاء لهذا . قد جعلوا الايمان بالرسول قداستقر

---

(١) معارج الوصول ص ٤ من مجموعة رسائل لابن تيمية طبعة الخانجي

فلا يحتاج الى أن يبين الادلة الدالة عليه ، وعيب هؤلاء عند ابن تيمية أنهم أعرضوا عن الاصول التي بينها الله سبحانه وتعالى بكتابه ، ولم يلتفتوا الى وجه الادلة فيها ، وهي التي تثبت بذاتها الجزم واليقين ، وقد قال في هذه الطائفة والتي سبقتها ، وهم المتكلمون : « والطائفتان يلحقهما الملام ، لكونهما اعرضتا عن الأصول التي بينها الله بكتابه ، فانها أصول الدين وأدلته وآياته ، فلما أعرض عنها الطائفتان وقعت بينهما العداوة ، كما قال تعالى « فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » .

فالعيب الذي يعيبه ابن تيمية على هذه الطائفة انها لم تالتفت الى أدلة القرآن ، وأخذت أخباره ، والطائفة التي سبقتها وهم المتكالمون مثلها ، لانهم لم يلتفتوا الى أدلة القرآن ، وان كانوا اقد سلكوا الطريق الى أدلة أخرى عقلية ، وحاولوا التعرف عن غير طريقه ، أما هؤلاء فلم يحاولوا شيئاً واكتفوا باخباره .

والقسم الرابع : قوم آمنوا بما جاء في القرآن ، ولهم تفكير فيه ، وخالفوا الطوائف السابقة كلها ، وقالوا : « ان طرائقهم ضارة وان السلف لم يسلكوها ونحو ذلك مما يقتضي ذمها » ولكنهم يرون أن أدلة القرآن مجملة ، وأن لابد من التفصيل ، ولا بد من التسلح بأدلة أخرى لقمع المخالفين ، وعلى ذلك يتجهون الى أدلة المتكلمين ، وبذلك ينتهون الى مثل ماينتهي اليه أولئك ، ويقول في هذا الفريق ابن تيمية « قد يعتقد طريق المتكلمين مع قوله انه بدعة ، ولا يفتح ابواب الأدلة التي ذكرها الله في القرآن الكريم التي تبين ان ماجاء به الرسول حق ، ويخرج الذكي بمعرفتها عن التقليد ، وعن الضلال والبدعة والجهل » .

ولم يذكر في رسالة معارج الوصول من يعني من هذا القسم الرابع، وبمراجعة مجموع كتاباته يتبين أنه يقصد الأشاعرة والماتريدية، فان أولئك آمنوا بكل ماجاء عن السلف ، ولكنهم لم يسلكوا في استخراج الادلة من القرآن ، بل سلكوا المسلك العقلي ، بسبب الخصومة الشديدة التي وقعت بينهم وبين المعتزلة ، فاضطروا لأن يستخدموا أسلحتهم ، والمحارب مأخوذ دائما بسلاح خصمه ، فلا بد أن يستخدم من الأسلحة مايستخدم خصمه ، وقد استخدم أولئك المنطق والأدلة العقلية ، فحق على من ينازلهم أن يستخدم مااستخدموا من مسالك وبراهين .

من هذا النقد الذي وجهه ابن تيمية لهذه الفرق يتبين أنه يرى أن القرآن بما فيه من أدلة وحجج فيه غناء لطالب العقيدة الاسلامية ، لا لأنه كتاب ثبت أنه من عند الله (فحسب) بل الادلة التي يسوقها لاثبات الوحدانية والصفات واليوم الآخر والمعاد ، فهو ليس فيه الاخبار فقط ، بل فيه الدليل على صحة الخبر ، فهو في نفسه يحمل دليل صدقه .

وأشد ماياخذه على الذين خالفهم من المتقدمين والمتأخرين أنهم أهملوا أدلة القرآن ، ولعل أشد ماأثر فيه أنه رأى الفلاسفة لم يكتفوا بعدم الالتفات إلى أدلة القرآن ، بل تهجموا فقالوا : انها أدلة خطابية اقناعية وانها ليست براهين قطعية ملزمة ، وأن البراهين الحقيقية هي مااشتمل عليه علم المنطق ، بل انه ليرى أن المتكلمين من المعتزلة ،ومن نهج منهاجهم في الاحتجاج من الاشاعرة واخوانهم الماتريدية يقرون مقال الفلاسفة في هذا ، بل ان بعضهم ليصرح بمثل ماصرح به أولئك الفلاسفة ، فالرازي يقول : « ان الاستدلال بالسمعيات في المسائل الأصولية لايمكن بحال ، لأن الأستدلال بها موقوف على مقدمات ظنية ، وعلى رفع المعارض العقلي،

وان العلم بانتفاء المعارض لايمكن ، اذ يجوز أن يكون في نفس الأمر دليل عقلي يناقض مادل عليه القرآن ، ولم يخطر ببال المستمع ، وقد بسطنا القول في أوجه ذلك ، مثل نقل اللغة والنحو والتصريف ، ونفي المجاز والاضمار ، والتخصيص والاشتراك وهكذا [1] » .

هال ابن تيمية ذلك القول ، لأنه يؤدي الى أنه لابراهين الا مايكون المنطق طريقه ، كأن العلم الاسلامي مدين للمنطق اليوناني في فهمه ، وهاله أكثر أن مؤداه أن الصحابة لم تكن لديهم الوسائل القطعية لفهم هذا الدين الحكيم ، ولا لفهم عقائده ، لأنهم لم يكونوا على علم بمنطق أرسطو الذي لم يدخل في الفكر الاسلامي الا في القرن الثاني الهجري ، كأن الصحابة والتابعين ما كانوا عالمين باصول هذا الدين الا عن طريق ظني ، ولم يتوافر لديهم الطريق القطعي ، ويقول في ذلك رضي الله عنه : « يقولون ان لم يكن الرسول يعرف معنى ماأنزل عليه من هذه الآيات ولا أصحابه يعلمون معنى ذلك ، بل لازم قولهم أنه هو نفسه لم يكن يعرف معنى ماتكلم به من أحاديث الصفات ، بل يتكلم بكلام لايعرف معناه [2] » .

وذلك لأن النبي ﷺ لم يحاول تأويل الصفات في القرآن تأويلاً يتفق مع القواعد الفلسفية التي قررها علماء الكلام من بعده ، ولأن النبي ﷺ كان علمه هو القرآن ، والأدلة التي كان يعلمها هي أدلة القرآن ، ولم يتجاوز ذلك ، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم ، والفقهاء المجتهدون ، وذلك لأن أولئك لم يكونوا على علم بمنطق اليونان ، ولا بتأويل علماء الكلام لما جاء في القرآن .

---

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ج ١ ص

(٢) نقض المنطق ص ٥٧

وجد كل هذا من منطق أرسطو الذي تعلق به علماء المسلمين ، وأدخله أبو حامد الغزالي في مقدمة علم الأصول ، فثار على ذلك المنطق الذي أعتبره من علوم الصابئة ، وأثار حوله عجاجة ، وأخـــذ يبين أنه دخيل على الفكر الاسلامي ، وأن ادراك الحقائق الاسلامية لم يكن في حاجة اليه ، وأنه ميزان ليس بصادق ، انما هو أوهام ، أوقيودمن أوهام ، وشجعه على ذلك الهجوم أنه وجد أن الفقهاء قبل أبي حامد الغزالي كانوا ينظرون اليه نظرة البغض ، ويتوجسون منه خيفة على العلوم الاسلامية ، وان الغزالي أول من صرح بوجوب اتخاذه ميزاناً للعلوم ، وأن من كان قبله أخذوه على استخفاء ، ولم يجهروا به كما جهر الامام الغزالي .

وهذا ابن الصلاح يعد المنطق شراً كلـــه فيقـــول : « المنطق مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه ممـا أباحه الشارع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، والسلف الصالح وسائر مايقتدى به » .

ويقول في استخدام المصطلحات الفلسفية او المنطقية في العلوم الاسلامية: «إن هذا من المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشريعة افتقار الى المنطق أصلاً ، وما يزعمه المنطقي بالمنطق من أمر الحد والبرهان ففقاقيع قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن ، ولاسيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ، ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاضها في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لامنطق ولا فلسفة ولا فلاسفة ، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان [1]».

يقر ابن تيمية بلا ريب فتوى ابن الصلاح ، وينقل عن العلمـــاء ستنـكارهم لما جاء في مقدمة المستصفى للغزالي من اعتباره المنطق ميزان

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٣٥ ؛

العلوم كلها فيقول : « يحكى عن يوسف الدمشقي مدرس المدرسة النظامية ببغداد ، وكان من النظار المعروفين أنه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فأبو بكر وعمر وفلان وفلان يعني أن أولئك السادة عظمت حظوظهم من الثلج واليقين ولم يحيطوا بهذه المقدمة وأسبابها ، قال الشيخ أبو عمرو وقد ذكرت بهذا ماحكي صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة (يعني أبا حيان التوحيدي) ان الوزير ابن الفرات احتفل مجلسه ببغداد بأضعاف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم ، وفي المجلس متى الفيلسوف النصراني فقال الوزير ، اريد أن ينتدب منكم انسان لمناظرة متى فى قوله : انه لاسبيل الى معرفة الحق من الباطل، والحجة من الشبهة، والشك من اليقين، الا بما حويناه من المنطق ، واستفدناه من واضعه على مراتبه ، فانتدب أبو سعيد السيرافي ، وكان فاضلا ، وكلمه في ذلك حتى أفحمه » .

وهكذا نرى ابن تيميـــة يغير على المنطق بأقوال السابقين وبأن مترجمه من اليونانية الى العربية قد عجز عن الدفاع عنه ، وهو في هـــذا يعتقد أن الأساليب المنطقية التي نهجها الفلاسفة ، والمتكلمون ، ثم عممها الغزالي في علوم الدين ، وهي التي جعلت العلماء يتنقصون بها أدلة القرآن، ابل لازم قولهم تجهيل الصحابة بأدلة التوحيد ، وبراهين اليقين ، وان هم يظنون الا ظناً .اه

فقه الإمام ابن تيمية

تلقى شيخ الاسلام ابن تيمية الفقه الحنبلي في بادىء نشأته من ابيه حتى تولى مقام التدريس بعد وفاته وتعمق فيه كثيراً ، ولما شب وتوسع

ذهنه ، لم يعد يتقيد بهذا المذهب ، وعكف على دراسة المذاهب الاربعة وغيرها ، يعمل ويفتي بما وافق منها للكتاب والسنة دون تعصب لاحدها . ولم يكتف بهذا ، بل أنه كثيراً مايخرج عن اطار المذاهب الاربعة كلها . اذا وجد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلافها كما فعل في كثير من قضايا الطلاق ، مماذكرناه في فتاواه ، وكان يقول بهذا الصدد:

« ان الانسان ينشأ على دين أبيه ، أو سيده ، أو أهل بلده ، كما يتبع الطفل في الدين ابويه ، وسادته ، وأهل بلده ، ثم اذا بلغ فعليه أن يلتزم طاعة الله ورسوله حيث كانت ، ولايكون ممن اذا قيل لهم : « اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ! » فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله ورسوله الى عادته وعادة أبيه وقومه ، فهو من أهل الجاهلية ، وكذلك من تبين له مسألة من مسائل الحق الذي بعث الله به رسوله ، ثم عدل عنه الى عادته ، فهو من أهل الذم [1] » .

● ●

وكان الشيخ رحمه الله تعالى يحترم ائمة المذاهب كلهم ، فهم جميعاً مخلصون في بحثهم ، سعوا جهدهم للوصول الى الحقيقة الاسلامية التامة في زمنهم حيث لم تكن ميسرة كلها لكل امام منهم على انفراد! مما أدى الى الخلاف المذهبي وقتئذ! ، وقد أوجد لهم الاعذار في كتابه « رفع الملام عن الأئمة الاعلام » فقال في مقدمة هذا الكتاب :

« وبعد فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن ، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الانبياء الذين جعلهم

---

(١) الفتاوى ج ٢ ص ٢٠٢ طبع الكردي

الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم في ظلمات البر والبحر . وقد اجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم اذ كل امة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماؤها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم، فانهم خلفاء الرسول في امته . والمحيون لما مات من سنته . بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا . وليعلم أنه ليس أحد من الائمة المقبولين عند الامة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته دقيق ولا جليل ، فانهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله ﷺ! ولكن اذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلابد له من عذر في تركه . وجميع الاعذار ثلاثة اصناف : احدها عدم اعتقاده ان النبي ﷺ قاله . والثاني عدم اعتقاده ارادة تلك المسألة بذلك القول. والثالث اعتقاده ان ذلك الحكم منسوخ .

« وهذه الاصناف الثلاثة تتفرع الى أسباب متعددة منها : أن لا يكون الحديث قد بلغه . ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالماً بتوجيه! واذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر أو بموجب استصحاب، فقد يوافق ذلك الحديث (تارة) ويخالفه اخرى . وهذا السبب هو الغالب على أكثر مايوجد من اقوال السلف مخالفاً لبعض الاحاديث فان الاحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحد من الامة! وقد كان النبي ﷺ يحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل الشيء فيسمعه أو يراه من يكون حاضراً ويبلغه اولئك أو بعضهم لمن يبلغونه فينتهي علم ذلك الى من شاء الله من العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ثم في مجلس آخر قد يحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل شيئاً

ويشهده بعض من كان غائباً عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن امكنهم فيكون عند هؤلاء من العلم ماليس عنـــد هؤلاء ، وعند هؤلاء ماليس عند هؤلاء وانما يتفاضل العلماء من الصحابة ومن بعدهم بكثرة العلم أو جودته».

ثم يوضح الامام ابن تيمية ان عدم اطلاع امام المذهب على بعض الأحاديث قبل جمعها وتدوينها ـ الذي تم بعد عدهم ـ لاينقص من مكانتهم العلمية . واستشهد بالخلفاء الراشدين أنفسهم وضرب الأمثـال الكثيرة في كتابه المذكور فقال :

« وأما احاطة واحد بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لايمكن ادعاؤه قط . واعتبر ذلك بالخلفاء الراشدين الذين هم أعلم الأمـــة بامور رسول الله ﷺ وسنته وأحواله خصوصاً الصديق رضي الله عنه الذي لم يكن يفارقه حضراً ولا سفراً بل كان يكون معه في غالب الاوقات حتى أنه يسمر عنده في الليل في امور المسلمين وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه ﷺ كثيراً مايقول دخلت انا وابو بكر وعمر وخرجت انا وابو بكر وعمر

عدم اطلاع ابي بكر على كثير من احاديث رسول الله ﷺ

« ثم مع ذلك لما سئل ابو بكر رضي الله عنه عن ميراث الجدة قال مالك في كتاب الله من شيء وماعلمت لك في سنة رسول الله ﷺ من شيء، ولكن أسأل الناس ، فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمـد بن مسلمة فشهد ان النبي ﷺ اعطاها السدس وقد بلغ هذه السنة عمران بن حصين ايضاً وليس هؤلاء الثلاثة مثل ابي بكر وغيره من الخلفاء ثم قد اختصوا بعلم هذه السنة التي قد اتفقت الامة على العمل بها .

عدم اطلاع عمر بن الخطاب على كثير من احاديث رسول ﷺ

وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن يعلم سنة الاستئذان

حتى اخبره بها ابو موسى واستشهد بالانصار . وعمر أعلم ممن حدثه بهذه السنة ، ولم يكن عمر أيضاً يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها بل يرى أن الدية للعاقلة، حتى كتب اليه الضحاك بن سفيان وهو أمير لرسول الله ﷺ على بعض البوادي يخبره أن رسول الله ﷺ ورث امرأة أشيم الضبابي من ديةزوجها ، فترك رأيه لذلك وقال لو لم نسمع بهذا، لقضينا بخلافه .

ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى اخبره عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « سنوا بهم سنةأهل الكتاب».

ولما قدم سرغ وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ثم مسلمة الفتح فأشار كل عليه بما رأى ولم يخبره أحد بسنة رسول الله ﷺ في الطاعون وأنه قال « اذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه »[1].

وتذاكر هو وابن عباس أمر الذي يشك في صلاته فلم يكن قد بلغته السنة في ذلك حتى قال عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ أنه يطرح الشك ويبني على ما استيقن .

وكان مرة في السفر فهاجت ريح فجعل يقول من يحدثنا عن الريح قال ابو هريرة فبلغني وأنا في أخريات الناس فحثثت راحلتي حتى ادركته فحدثته بما أمر به النبي ﷺ عند هبوب الريح .

فهذه مواضع لم يكن يعلمها حتى بلغه اياها من ليس مثله. ومواضع أخر لم يبلغه ما فيها من السنة فقضى فيها أو أفتى فيها بغير ذلك مثل ماقضى في دية الأصابع انها مختلفة بحسب منافعها . وقد كان عند ابي موسى وابن عباس وهما دونه بكثير في العلم ، علم بأن النبي ﷺ قال « هذه وهذه سواء » يعني الابهام والخنصر فبلغت هذه السنة لمعاوية رضي الله عنه في

---

(١) حتى أعلمه بذلك عبد الرحمن بن عوف

امارته فقضى بها ولم يجد المسلمون بداً من اتباع ذلك . ولم يكن عيباً في عمر رضي الله عنه حيث لم يبلغه الحديث .

وكذلك كان ينهي المحرم عن التطيب قبل الاحرام وقبل الافاضة الى مكة بعد رمي جمرة العقبة وهو وابنه عبد الله رضي الله عنهما وغيرهما من أهل الفضل ولم يبلغهم حديث عائشة رضي الله عنها : طيبت رسول الله ﷺ لحرمه قبل أن يحرم ولحله قبل أن يطوف.

وكان يأمر لابس الخف أن يمسح عليه الى أن يخلعه من غير توقيت وأتبعه على ذلك طائفة من السلف ولم تبلغهم احاديث التوقيت التي صحت عند بعض من ليس مثلهم في العلم . وقد روي ذلك عن النبي ﷺ من وجوه متعددة صحيحة .

عدم اطلاع عثمان على كثير من أحاديث رسول الله ﷺ

وكذلك عثمان رضي الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعقد في بيت الموت حتى حدثته الفريعة بنت مالك اخت أبي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي زوجها وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» فأخذ به عثمان .

واهدي له مرة صيد ــ يعني وهو محرم ــ صيد كان قد صيد لأجله فهم بأكله حتى أخبره علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رد لحما اهدي له .

عدم اطلاع علي على كثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكذلك علي رضي الله عنه قال كنت اذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه واذا حدثني غيره استحلفته فاذا حلف لي صدقته . وحدثني ابو بكر وصدق ابو بكر وذكر حديث صلاة التوبة المشهور .

وأفتى هو وابن عباس وغيرهما بأن المتوفى عنها اذا كانت حاملاً تعتد بأبعد الاجلين . ولم يكن قد بلغتهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيعة الاسلمية حيث افتاها النبي صلى الله عليه وسلم بأن عدتها وضع حملها .

وأفتى هو وزيد وابن عمر وغيرهما بأن المفوضة اذا مات عنها زوجها فلا مهر لها . ولم تكن بلغتهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بروع بنت واشق .

وهذا باب واسع يبلغ المنقول منه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عدداً كثيراً جداً ».اه

اذا كان حال هؤلاء الصحابة – رضي الله عنهم – كما ذكر الشيخ ابن تيمية في عدم استيعاب كل منهم احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف الحال بسواهم مما لا يبلغون علمهم ؟ لاشك أن عدم استيعابهم لهذه الاحاديث أوضح. يقول ابن تيمية :

عدم اطلاع ائمة المذاهب على كثير من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

« وأما المنقول منه عن غير (الصحابة) فلايمكن الاحاطة به فانه ألوف ، فهؤلاء كانوا أعلم الأمة وأفقهها وأتقاها وأفضلها فمن بعدهم أنقص ، فخفاء بعض السنة عليه أولى فلا يحتاج الى بيان فمن اعتقد أن كل حديث صحيح قد بلغ كل واحد من الأئمة أو اماماً معيناً فهو مخطيء خطأ فاحشاً قبيحاً !

ولا يقولن قائل : من لايعرف الأحاديث كلها لم يكن مجتهداً ، لأنه ان اشترط في المجتهد علمه بجميع ماقاله النبي صلى الله عليه وسلم وفعله فيما يتعلق بالأحكام فليس في الامة مجتهد وانما غاية العالم أن يعلم جمهور ذلك

ومعظمه بحيث لايخفى عليه الا القليل من التفصيل ثم أنه قد يخالف ذلك القليل من التفصيل الذي يبلغه [١] » .

اقوال الائمة في اتباع السنة وترك اقوالهم المخالفة لها!

لهذا كله كان ائمة المذاهب رضي الله عنهم شاعرين بعدم اطلاعهم على جميع السنة فكانوا ينصحون النـاس بوجوب الرجوع الى الحديث اذا صح .

ومن المفيد أن نسوق هنا ما وقفنا عليه منها أو بعضها ، لعل فيهـا عظة وذكرى لمن يقلدهم ، بل يقلد من دونهم بدرجات تقليداً أعمى [٢]، ويتمسك بمذاهبهم وأقوالهم كما لو كانت نزلت من السماء ، والله عزوجل يقول : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ، ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون!» .

الامام أبو حنيفة

فأولهم الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه، وقدروى عنه أصحابه أقوالاً شتى وعبارات متنوعة كلها تؤدي الى شيء واحـد وهو وجوب الأخذ بالحديث ، وترك تقليد آراء الأئمة المخالفة له :

١ ـ « اذا صح الحديث فهو مذهبي ».

٢ ـ « لايحل لأحد أن يأخذ بقولنا مالم يعلم من أين أخذه» . وفي رواية : « حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي» زاد في رواية: « فاننا بشر نقول اليوم ونرجع عنه غداً » .

٣ ـ « اذا قلت قولاً يخالف كتاب الله وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولي » .

---

(١) عن رسالة رفع الملام عن الائمة الاعلام باختصار

(٢) وهذا التقليد هو الذي عناه الامام الطحاوي حين قال : «لايقلد الا عصي أو غبي » نقله ابن عابدين في « رسم المفتي» ص ٣٢ ج ١ من «مجموعة رسائله».

الامام مالك

وأما الامام مالك رضي الله عنه فقال :

١ ـ « انما أنا بشر اخطيء واصيب فانظروا في رأيي فكل ماوافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه »!.

٢ ـ « ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم الا ويؤخذ من قوله ويترك الا النبي صلى الله عليه وسلم ». [١]

الامام الشافعي

وأما الامام محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه فالمنقول عنه في ذلك أكثر وأطيب واتباعه أكثر عملاً بها وأسعد ، فمنها :

١ ـ ما من أحد الا من تذهب عليه سنة لرسول الله صلى عليه وسلم وتغرب عنه ، فمهما قلت من قول ، أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ماقلت ، فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولي » .

٢ ـ « اجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد !» .

٣ ـ « اذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ماقلت !» .

٤ ـ « اذا صح الحديث فهو مذهبي » .

٥ ـ « انتم أعلم بالحديث والرجال مني ، فاذا كان الحديث الصحيح فاعلموني به أي شيء يكون : كوفياً أو بصرياً أو شامياً ، حتى أذهب اليه اذا كان صحيحاً » .

---

(١) جاء في كتاب « الباعث الحثيث » للحافظ بن كثير : « وقد طلب المنصور من الامام مالك » أن يجمع الناس على كتابه (أي الموطأ) فلم يجبه الى ذلك، وذلك من تمام علمه واتصافه بالانصاف ، وقال : (ان الناس قد جمعوا واطلعوا على اشياء نطلع عليها !!)(م.م)

٦ - « كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي » .

الامام احمد ابن حنبل

وأما الامام أ احمد رضي الله عنه فهو أكثر الأئمة جمعاً للسنة وتمسكا بها حتى « كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريـــع والرأي » ولذلك قال :

١ - « لاتقلدني ولا تـقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الاوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث اخذوا !».

٢ - « رأي الاوزاعي ورأي ابي حنيفة كلـه رأي ، وهو عندي سواء ، وانما الحجة في الآثار !».

٣ - « من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة !!».

تلك هي اقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم في الامر بالتمسك بالحديث والنهي عن تقليدهم دون بصيرة ، وهي من الوضوح والبيان بحيث لاتقبل جدلاً ولا تأويلاً ، وعليه فان من تمسك بكل ماثبت في السنة ولو خالف بعض أقوال الائمة ، لايكون مبايناً لمذهبهم ولا خارجاً عن طريقتهم ، بل هو متبع لهم جميعاً ، ومتمسك بالعروة الوثقى التي لاانفصام لها ، وليس كذلك من ترك السنة الثابتة لمجرد مخالفتها لقول بعضهم ، بل هو عاص لهم ومخالف لاقوالهم المتقدمة والله تعالى يقول : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم [1] » .

---

(١) اقوال الائمة منقولة عن كتاب صفة صلاة النبي (صلى الله عليه وسلم) لمحدث الشام استاذنا محمد ناصر الدين الالباني ، ومصادرها موجـــودة مفصلة في كتابه المذكور ..

خلاف الائمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة

لقد رأينا من المفيد هنـــا أن ننقل طرفا من رسالة [1] للامام ابن

---

(١) لقد نشر هذه الرسالة المصلح الاسلامي السيد محمد رشيد رضا في المنار (ج ٤ م ١٠) ثم افردها في نشرة خاصة وقدم لها بقوله :

« شرع الله تعالى لعباده على ألسنة جميع رسله ان يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ولكنهم كانوا يتفرقون في كل أمة فيزول ماأريد بالدين من معنى الاجتماع والائتلاف حتى اذا ماشرع الله لهم الدين العام الذي هو خاتمة الاديان شدد فيه التنفير من التنازع والتفرق والاختلاف واكد الامر بالاعتصام والاتحاد والائتلاف وقال لخاتم النبيين « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء!!» ومع ذلك لم تسلم هذه الامة من اتباع سنن من قبلها والاختلاف كما اختلفوا أواشد ، ولما وقع الخلاف وكثرت المذاهب وصار لكل فريق انصار يخالفون الاخرين ويطعنون عليهم امتاز أهل الحق المعتصمون بحبل الله بالدعوة الى الاجتماع والالفة والتباعد عن التنازع والفرقة وجعلوا المرجع في ذلك الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عمـــلا بقوله عز وجل « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تأويلا » فكتاب الله ثابت لانزاع فيه وسنة رسوله معلومة لاخلاف فيها فما جرى عليه وتبعه فيه اصحابه على طريقة واحدة بلا خلاف بينهم يمتنع فيه الخلاف من المؤمنين وما اختلف فيه العمل كان المؤمنون مخيرين فيه لاينازع احد منهم اخاه ان اخذ بغير ماأخذ هو به وكل جائز .

« وقد سمي هؤلاء بأهل السنة والجماعة لانهم يحكمون السنة العملية المتبعة فيما و تم وفيما هو مخير فيه ويختارون الاجتماع والاتفاق على الخلاف والافتراق ولذلك كان من مزاياهم التباعد عن تكفير اهل القبلة وتضليلهم لاجل الخلاف والعمدة عندهم في صحة الايمان وولاء اخوة الاسلام هو الاخذ المجمع عليه في العصر الاول المعلوم من الدين بالضرورة ويعذرون من اخطأ فيما عدا ذلك .

« ثم ان علماء اهل السنة قد كانوا ينظرون في وجوه الترجيح فيما اختلف فيه عمل اهل العصر الاول او الرواية عنهم فيأخذ كل واحد مايراه ارجح مع كونه يعذر من يأخذ بغير ما اختاره هو لاسيما اذا كان رأياً لارواية.ثم حدث في الامة التقليد←

تيمية بعنوان « خلاف الأئمة في العبادات ومذهب أهل الجماعة والسنة »:

(قاعدة) في صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين الامة والرأي مثل الأذان والجهر بالبسملة والقنوت في الفجر والتسليم في الصلاة ورفع الايدي فيها ووضع الأكف فوق الاكف ومثل التمتع والافراد والقران في الحج ونحو ذلك فان التنازع في هذه العبادات الظاهرة والشعائر اوجب انواعاً من الفساد الذي يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنين .

(احداها) جهل كثير من الناس أو أكثرهم بالأمر المشروع المسنون الذي يحبه الله ورسوله والذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته والذي امرهم باتباعه ,

(الثاني) ظلم كثير من الامة او اكثرهم بعضهم لبعض وبغيهم عليهم تارة بنهيهم عما لم ينه الله عنه وبغضهم على من لم يبغضهم الله عليه وتارة بترك

← وصار كل فريق يتعصب لعالم من ائمة علماء الامصار من بعدهم فعاد بذلك التفرق والاختلاف الممقوتان عند الله الى المنتسبين الى اهل السنة والجماعة ووجد بذلك اهل البدع ماوجدوا من المطاعن عليهم وعلى مذهبهم بل ذلك مما طعن به في اصل الدين! .

« سبق لنا قول في هذا الخلاف ومضاره ورأي في تلافيه واتقاء اخطاره اودعناها مقالات محاورات المصلح والمقلد (التي جمعت من المنار وطبعت في كتاب مستقل) وايدناه بما كتبه الامام ابو حامد الغزالي في كتابه القسطاس المستقيم من الدعوة الى ازالة الخلاف بالاخذ بالمجمع عليه والتخير في المختلف فيه وقليل من الناس من يترك كل ما أجمع على وجوبه ويفعل ماسهل عليه مما أجمع على ندبه واستحبابه ولكن المرزوئين بالتعصب للمذاهب يسهل عليهم قطع اخوة الايمان بسبب خلاف في رواية أو رأي مما لم يجمع عليه المسلمون وهم مع ذلك يتركون بعض الفرائض ويرتكبون بعض المحرمات ويحسبون ذلك أهون من الخلاف في الدين .

« وقد قرأنا في هذه الايام رسالة الشيخ الاسلام ابن تيمية في مسألة الخلاف في العبادات وحقيقة السنة والجماعة فآثرنا نشرها رجاء ان ينفع الله بها المسلمين «وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين».

ما أوجب الله من حقوقهم وصلتهم لعدم موافقتهم له على الوجه الذي يؤثرونه حتى يقدمون في الموالاة والمحبة واعطاء الامـوال والولايات من يكون مؤخراً عند الله ورسوله ويتركون من يكون مقدماً عنـد الله ورسوله لذلك .

(الثالث) اتباع الظن وما تهوى الأنفس حتى يصـير كثير منهم مديناً باتباع الاهواء في هذه الامور المشروعة . وحتى يصير في كثير من المتفقهة والمتعبدة من الأهواء من جنس ما في أهل الاهواء الخارجين عن السنة والجماعة كالخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم . وقد قال تعالى في كتابه (ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) وقال في كتابه (لاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) .

(الرابع) التفرق والإختلاف المخالف للاجتماع والائتـلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضاً ويعاديه ويحب بعضاً ويواليه على غـير ذات الله وحتى يفضي الأمر ببعضهم الى الطعن واللعن والهمز واللمز وبعضهم الى الاقتتال بالايدي والسلاح وبعضهم الى المهاجرة والمقاطعة حتى لايصلي بعضهم خلف بعض، وهذا كله من أعظم الامور التي حرمها الله ورسوله . والاجتماع والائتلاف من أعظم الامور التي أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ــ الى قوله ــ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل

البدعة بخروجه عن السنة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته ومن أهل الفرقة والمخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله وقال تعالى « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء» وقال تعالى«وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات » وقال تعالى«وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءتهم البينة ، وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » وقال تعالى « ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » وقال تعالى «وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا الا من بعد جاءهم العلم بغياً بينهم » وقال الله تعالى « فما أختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة » وقال تعالى « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » وقال « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم » وقال « الا من أمر بصدقة أو معروف او اصلاح بين الناس » . وهذا الاصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا يتفرق هو من أعظم اصول الاسلام ومما عظمت وصية الله به في كتابه[1] اهـ

يشترك في هذا الرأي مع شيخ الاسلام ، امام جليل هو الامام الشيخ أبو عبد الله بن أبي النصر الحميدي صاحب كتاب «الجمع بين الصحيحين» في رسالة له مخطوطة في مكتبة الأوقاف الاسلامية بحلب تحت رقم (مولوية ١٩٦) رأيت أن اذكر مقاطع منها كتلخيص لها :

«وقد استشرف بعض الطالبين الى معرفة الأسباب الموجبة للاختلاف من بين الائمة الماضين ـ رضي الله عنهم ـ مع اجماعهم على الأصل المتفق

---

(١) نحن لا نشارك الامام الغزالي الذي جاء في تعليق الامام السيد رشيد رضا في ازالة الخلاف بالاخذ بالمجمع عليه، انما تكون ازالة هذا الخلاف بالرجوع الى الكتاب والسنة !

عليه المستبين حتى احتيج الى تكليف التصحيح في طلب الصحيح، وقربت على هذا الطلب معرفة بعض العذر في اختلاف المتأخرين لبعدهم عن المشاهدة وانما تعذر عليه معرفة الوجه في اختلاف الصحابة - رضي الله عنهم - مع مشاهدتهم نزول التنزيل وأحكام الرسول صلى الله عليه وسلم وحرصهم على الحضور لديه والقعود بين يديه والأخذ منه...

لم يكن كل واحد من الصحابة على علم بجميع حـــديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولاشك أن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا بالمدينة حوله صلى الله عليه وسلم مجتمعين وكانوا ذوي معايش يطلبونها، وفي ضنك من القوت فمن محترف في الاسواق ومن قائم على نخله، ويحضره صلى الله عليه وسلم في كل وقت طائفة منهم واذا وجدوا أدنى فراغ فيماهم بسبيله، وقد نص على ذلك ابوهريرة - رضي الله عنه - فقال: ان اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق، وان اخواني من الانصـــار كان يشغلهم القيام على نخلهم، وكنت امرءاً مسكيناً أصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني. وقد قال عمر - رضي الله عنـــه -: الهاني الصفق بالاسواق في حديث استئذان ابي موسى [1]. فكان صلى الله عليه وسلم يسأل عن المسألة ويحكم بالحكم ويأمر بالشيء ويفعل الشيء فيحفظه من حضره ويغيب عن من غاب عنـــه [2] وقد كنـــا ذكرنا فيما سبق من كلام ابن تيمية أمثلة على ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم - رضي الله عنهم - وذكر هذا المؤلف أمثلة غيرها - تؤيد

---

(١) اخرجه البخاري ١٣/٢٧٤-٢٧٥ بشرح الفتح وأحمد رقم ٧٢٧٣ ورقم ٧٦٦١ ومسلم ٢/٢٦١ وغيرهم

(٢) أخرجه البخاري ١١/٢٣ والدارمي ٢/٢٧٤ وأبوداوود رقم ٥١٨٠ وابن ماجه رقم ٣٧٠٦ وغيرهم

كلامه و كلام ابن تيمية في أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يكن كل منهم مطلعاً على جميع السنة !

تفرق الصحابة في البلاد بسبب الفتح

ومما قاله الشيخ الحميدي رحمه الله :

« ... فلما ولي عمر ـ رضي الله عنه ـ فتحت الامصار وتفرق الصحابة في الاقطار ، فكانت الحكومة تنزل بمكة أو بغيرها من البلاد ، فان كان عند الصحابة الحاضرين لها نص حكم به ، والا اجتهدوا في ذلك ، وقد يكون في تلك القضية نص موجود عند صاحب آخر في بلد آخر . وقد حضر المدني مالم يحضر المصري ، وحضر المصري مالم يحضر الشامي ، وحضر الشامي مالم يحضر البصري ، وحضر البصري مالم يحضر الكوفي ، وحضر الكوفي مالم يحضر المدني ، كل هذا موجود في الآثار وتقتضيه الحالة التي ذكرنا من مغيب بعضهم عن مجلسه ﷺ في بعض الأوقات وحضور غيره ... »

وهكذا اختلف التابعون بعد الصحابة

ثم ينتقل المؤلف بعد كلام طويل الى الكلام على التابعين وائمة المذاهب ـ رحمهم الله تعالى ـ فيقول :

« فمضى الصحابة على هذا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم ، و كل طبقة من التابعين في البلاد التي ذكرنا ، فانما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة ، فكانوا لايتعدون فتاويهم لاتقليداً [1] لهم ولكن لأنهم

---

(١) قال الاستاذ حمدي عبد المجيد الذي راجع احاديث هذه الرسالة تعليقا على كلمة التقليد : « رحم الله المؤلف فانه لم يرض التقليد ! وعدم الرضا بالتقليد هو دأب السلف الصالح ، بل نهوا عن ذلك نهيا شديداً ، فخلف من بعدهم خلف نسوا ما بنى لهم اجدادهم من صروح الفكر وحرية الرأي ضمن نطاق الشريعة الاسلامية ، فرضوا بالتكاسل جناية على عقولهم و افكارهم ! »

أخذوا ورووا عنهم الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كاتباع أهل المدينة في الاكثر فتاوى أبن عمر ـ رضي الله عنه ـ واتباع أهل مكة في الاكثر فتاوى ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ واتباع أهل الكوفة فتاوى ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ .

رفع الملام عن الائمة الاعلام

ثم اتى من بعد التابعين فقهاء الامصار كأبي حنيفة وسفيان وابن أبي ليلى بالكوفة ، وابن جريج بمكة ، ومالك وابن الماجشون بالمدينة ، وعمار البتي وسوار بالبصرة ، والاوزاعي بالشام ، والليث بمصر ، فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده وتابعوهم عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيما كان عندهم ، وفي اختلافهم فيما ليس عندهم وهو موجود عندهم « ولايكلف الله نفساً الا وسعها » وكل من ذكرنا مأجور على ما أصاب فيه أجرين ، ومأجور فيما خفي عنه ولم يبلغه أجراً واحداً ، قال الله تعالى: «لانذركم به ومن بلغ!..»

زوال سبب الخلاف ولم يبق لاحد عذر في ترك السنة بعد أن جمعت

ثم قال الشيخ الحميدي :

« ثم كثرت الرحل الى الآفاق وتداخل الناس ، وانتدب أقوام لجمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمه وتقييده ، ورحل من البلاد البعيدة الى من لم يكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شيء منه وجمعت الاحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأولة في الحديث ، وعرف الصحيح من السقيم وزيف الاجتهاد المؤدي الى خلاف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى ترك عمله ، وسقط العذر عن من خالف

ما ابلغه من السنن ببلوغها اليه ، وقيام الحجة بها عليه، فلم يبق الا الانقياد والتقليد [1] اهـ

وقبل ختام هذا الموضوع لابد من ان ارسلها صيحة مدوية في وجوه الذين يزعمون أن للاختلاف فائدته ، استناداً الى الحديث الباطل «اختلاف امتي رحمة» قائلا لهم ان الاختلاف نقمة ، وقد ذمه الله سبحانه في مواضع عديدة (وما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون!) ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) ، (ولو كان من عند غير الله لوجـدوا فيه اختلافاً كثيراً) ، (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) قال المزني: «فذم الله الاختلاف وأمر عنده بالرجوع الى الكتاب والسنة، فلو كان الاختلاف من دينه ماذمه ولو كان التنازع من حكمه ما أمرهم بالرجوع عنـده الى الكتاب والسنة [2] .»

قال المزني ايضاً : « ... وقد اختلف اصحاب رسول الله ﷺ ، فخطأ بعضهم بعضاً ، ونظر بعضهم في أقاويل بعض وتعقبها !! ولو كان قولهم كله صواباً عندهم لمافعلوا ذلك ، وغضب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من اختلاف ابي بن كعب وابن مسعود في حكم الصلاة في الثوب الواحد...فخرج عمر مغضباً ، فقال : اختلف رجلان من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن ينظر اليه ويؤخذ عنه !! وقـد صدق

---

(١) اي التقليد لرسول الله المعصوم ، لا لرجال غير معصومين. وهذا مما يفهم من كلام المولف (م)

(٢) مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ١٤٦

أبي ، ولم يأل ابن مسعود ، ولكني لا اسمع احداً يختلف بعد مقامي هـذا الا فعلت به كذا وكذا !!

وجاء في كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله (ص ١٤٤)«عن اشهب قال سئل مالك عن اختلاف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خطأ وصواب ! فانظر في ذلك . وعن يحيى بن ابراهيم بن مزين عن اصبغ قال قال ابن القاسم سمعت مالكاً والليث يقولان في اختلاف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليس كما قال ناس فيه توسعة! ليس كذلك انما هو خطأ وصواب » .

قال ابو عمر : الاختلاف ليس بحجة عند احد علمته من فقهاء الامة الا من لا بصر له ولا معرفة عنه ولا حجة في قوله . قال المزني يقال لمن جوز الإختلاف وزعم ان العالمين اذا اجتهدوا في الحادثة ،فقال احدهما حلال والآخر حرام ، فقد ادى كل واحدمنهما جهده وما كلف ، وهو في اجتهاده مصيب الحق ، (يقال له) : أبأصل قلت هذا ام بقياس ! ؟ فان قال بأصل ، قيل له كيف يكون اصلا والكتاب اصل ينفي الخلاف! او ان قال بقياس ، قيل كيف تكون الاصول تنفي الخلاف ويجوز لك ان تقيس عليها جواز الخلاف ، هذا مالا يجوزه عاقل فضلاً عن عالم !..

وملخص القول ان الله سبحانه امرنا بتحكيم القرآن والسنة ،وكذلك حثنا رسول صلى الله عليه وسلم كما حثنا ائمة المذاهب انفسهم ونهونا عن تقليدهم وحضونا على طلب الدليل كما رأينا فيما سبق ، فان التقليد آفة العلماء ، وقد ذمه الله سبحانه في مواضع عديدة ، فهو يبعد المسلم عن دينه الصحيح في كثير من الاحيان ، ويؤدي الى جمود الذهن وبلادة النفس مما يسبب انحطاط الافراد والجماعات، واني استطيع ان اجزم أن انهيار الامة

الاسلامية كانت بدايته يوم ان ترك علماؤها الاجتهاد وأخلدوا الى الكسل والتقليد ! فكم ازدهرت الحضارة الاسلامية يوم كان العلماء وتلاميذ ائمة المذاهب يردون أقوالهم ويعارضونها بالادلة .

ثم لما اخذ التقليد برقاب من يدعون العلم ويحسبون انهم علماء ومفات، وما كان لعالم او لمفتي ان يقلد ، جمدت الاذهان وانحطت الهمم وضعفت الامة وانهارت الدولة الاسلامية

قامع البدع والاوهام

وجه الامام ابن تيمية اهتمامه العظيم الى تنقية الاسلام مما ألحق به الادعياء والخرافيون من البدع والاوهام التي أضاعت رونقه وبهاءه وقوته ، حتى ظنه الكثيرون عبارة عن طرق وحلقات رقص، وطبول وزمور ، وتمائم . كما ظنوه اذ كاراً وأوراداً مبتدعة وخلوات بطـــالة وحرمان من طيبات الدنيا واستسلام للاوهام واستغاثة بقبور الصالحين والنذر لها . وآمنوا بالجبر الذي لا يفيد معه العمل، فزهد المسلمون وتواكلوا حتى غدوا في تأخر وانحطاط عظيمين .

وقد الف شيخ الاسلام عشرات الرسائل في بيان مزايا الاسلام والرد على خصومه ، واوضح بكل جرأة وصراحة أعمال المضللين الذين حجبوا نور الاسلام الصحيح عن الناس رغبة منهم في استثمارهم وتركهم في غفلاتهم يعمهون فلاهم موقظونهم من ضلالهم خشية على امتيازاتهم ، ولاهم يدعون المصلحين يقومون بدور الاصلاح ، فاثاروا الغوغاء والرعاع الذين يعتمدون عليهم في محاربة المصلحين واختلقوا عليهم مختلف الافتراءات والأكاذيب والتهـــم بالكفر والزندقة !

لم يبال الامام ابن تيمية بهذا الهجوم فكان يحارب البدع والمنكرات بالحماسة التي كان يحارب بها اعداء الله ، وذلك لما لهذه البدع من آثار سيئة ونتائج خطيرة على المسلمين نحن ذاكرون بعضها :

١ ـ ان في عمل البدعة ترك ما أمر الله ورسوله به ، وبذلك يحرم المسلمون النصر والتوفيق اللذين وعد الله سبحانه عباده الطائعين .

٢ ـ التمسك بسفاسف وأوهام على أنها من الاسلام ، والاسلام بريء منها ، فتثير الشكوك والشبه من الدين نفسه ، وتبعث على النفور منه .

٣ ـ تؤدي أكثر البدع الى اضاعة الثروة القومية ، وتسبب لفاعلها خسائر مادية كثيرة ، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً ، لنأخذ مثالاً على ذلك بدع المآتم والجنائز .

٤ ـ اضاعة طاقة المسلم وصرفها عن الابداع في امور الدنيا التي أمر بوجوب الابتداع فيها . والغريب أن المبتدع حريص على الابداع في الدين لا في الدنيا !!

٥ ـ ارتكاب المسلم للحرام وقت قيامه بالبدعة ، مادمت كل بدعة ضلالة ، فيدخل في مضمون الآية الكريمة : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » .

٦ ـ ان كل بدعة تطرد سنة وتطمس معالم الاسلام .

٧ ـ صعوبة تطبيق البدع ، فينفر المسلمون منها ظانين ابتعادهم عن الاسلام ، فتوحي اليهم نفوسهم الوقوع في الخطيئة ، وهم ابرياء منها ، مما يسبب اضطراباً في الشخصية .

٨ ـ ترك مبادىء الاسلام القوية والمفيدة ، والتمسك بالاوهام

والخرافات ، مما يسبب ضعف مقاومة المسلمين وسرعة انهيارهم أمام العدو .

٩ ـ اختلاف المسلمين في النسق ، مما يسبب خلافهم ونزاعهم وتفرقهم الى طوائف وفرق متباينة . ولايخفى أن توحيد العبادات بين الناس خليق بتوحيد الأهداف والميول .. والى هذا المعنى يشير ابن تيمية في رسالة الفرقان : «فاذا ترك الناس بعض ماانزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، اذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول ﷺ وماتمسكوا به من شرعة ، مما أخبر به وما أمر به ، أما ما ابتدعوه فكله ضلالة !!»

والحق ـ والحق أقول ـ أن من أعظم عوامل ضعف المسلمين هذه البدع والأوهام والخرافات المنتشرة بينهم التي بدلت مفهوم الاسلام القوي بمفهوم ضعيف سخيف ، هو أشبه بافيون منه الى قوة الاسلام وعظمة الاسلام . فكان نتيجة ذلك انحطاط المسلمين ونومهم وتقهقرهم . واليوم لانجاح لهم ولا نصر الا بالعودة الى الاسلام في صفائه الفطري وأصله الأول الذي جعل منهم خير أمة اخرجت للناس .

وقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية مولعاً بمحاربة البدع بيده ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، شأن العلماء الحقيقيين ، عملا بالحديث الشريف «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

وقد صنف خادم ابن تيمية ، ابراهيم بن أحمد الغياني ، رسالة صغيرة في هذا الموضوع يذكر فيها بعض الحوادث العملية في محاربة الامام للبدع والاوهام ، جاء في مطلعها :

« أما بعد فهذا فصل فيما قام به الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس احمد بن تيمية ـ رضي الله عنه ـ وتفرد به دون غيره من العلماء ـ رضي الله عنهم ـ الذين كانوا قبله ، وفي زمانه وذلك بتكسير الاحجار [1] التي كان الناس يزورونها ويتبركون بها، ويقبلونها وينذرون لها النذر ، ويلطخونها بالخلوق، ويطلبون عندها اقضاء حاجاتهم ، ويعتقدون أن فيها ـ أولها ـ سراً ، وأن من تعرض لها بسوء ـ بقال أو فعال ـ أصابته في نفسه آفة من الآفات .

«فشرع الشيخ يعيب تلك الأحجار ، وينهي الناس عن اتيانها، أو أن يفعل عندها شيء مما ذكر، أو أن يحسن بها الظن .

« فقال له بعض الناس : انه جاء حديث أن ام سلمة سمعت النبي ﷺ يقرأ بالتين والزيتون ، فأخذت تينة وزيتونة ، وربطت عليهما وعلقتهما حرزاً وبقيت ،كلما جاء اليها أحد به مرض تحطه عليه فيبرأ من ذلك المرض فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك، فقالت : سمعتك تقرأ بالتين والزيتون ، فقلت : ماقرأ رسول الله ﷺ بذلك الا وفيه سراً ومنفعة، فعملت تينة وزيتونة لي حرزاً ، وأحسنت ظني به ، ونفعت بذلك الناس . فقال لها النبي ﷺ: لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به !!

« فقال الشيخ : هذا الحديث كله ـ من أوله الى آخره ـ كذب مختلق ، وافك مفترى على رسول الله ﷺ وعلى ام سلمة رضي الله عنها والذى صح وثبت عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : « أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه اذا دعاني...» الحديث و « أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي خيراً » وقال : « لايموتن أحدكم الا ويحسن

---

(١) مثل العمود المخلق الذي داخل «الباب الصغير» وبلاطة سوداء في العلافين في مسجد الكهف وصخرة مسجد النارنج .

ظنه بالله الذي تفرد بخلقه وأوجده من العدم ، ولم يكن شيئاً ، وبيده ضره ونفعه ، كما قال امامنا وقدوتنا ابراهيم خليل الرحمن : «الذي خلقني فهو يهدين ، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفرلي خطيئتي يوم الدين » فهذا الرب العظيم الكبير المتعال ، الذي بيده ملكوت كل شيء يحسن العبد به ظنه ، مايحسن ظنه بالاحجار ، فان الكفار احسنوا ظنهم بالاحجار ، فأدخلهم النار . وقد قال الله تعالى في الأحجار وفيمن أحسنوا بها الظن حتى عبدوها من دونه : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة » . وقال: « انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » وقد أمر النبي ﷺ ان يستجمر من البول بثلاثة أحجار ، ما قال أحسنوا ظنكم بها ، بل قال : استجمروا بها من البول » وقد كسر النبي ﷺ الأحجار التي أحسن بها الظن حتى عبدت حول البيت وحرقها بالنار » .

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

رأي الامام ابن تيمية بثاقب فكره وبعد نظره أن الوحدة الوطنية تتم بالوحدة العقائدية، فأخذ رضي الله عنه يسعى لتوطيد دعائم هـذه الوحدة على اسس ثابتة بالبرهنة للنصاري على التوحيد الخالص ، وعلى صحة الاسلام وصدق نبوة محمد ﷺ من كتبهم نفسها فألف كتابه العظيم « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » لهذه الغاية [1] وقدنقلت هذا البحث من كتاب « حياة شيخ الاسلام ابن تيميـة » للاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار الذي مهد له بمقدمة قيمة :

وأنا لنأمل أن يكون في هذا البحث لاخواننا في الدين ، عون لمعرفة الحق وبيانه للناس ، كما يكون لاخواننا في الوطن شعلة للنجاة من تضليل المضللين خدام الاستعمار وأعداء الوحدة الوطنية التي تقوم على أساس من العقيدة الواحدة والعاطفة المشتركة !

والغريب أن تستمر هذه الهوة بين المواطنين في وقت بشر السيد المسيح عليه السلام بمجيء نبي عربي بعده وميزه عن مدعي النبوة الكذبة بقوله: « من ثمارهم تعرفونهم ! »

فهل في البشرية جمعاء من هو أعظم ثماراً من محمـد عليه صلوات الله وسلامـه ؟

---

(١) وكان الامام ابن تيمية تحقيقاً للهدف نفسه ، كتب الى سلطـان المسلمين رسالة مطولة ذكرناها في هذا الكتاب ينصحه فيها بتصحيح عقيدة الباطنيين عن طريق القرآن والسنة فلا يعودون يتعاوتون مع اعداء الوطن كالصليبيين والتتار ، نتيجـة الخلاف الديني الذي اختلفه اعداء العروبة والاسلام لتمزيق الشمل وتفريق الجمـع والقضاء على المجد وتسهيل عملية الاستعمار !

لقد شهد بصدقه وعظمته حكماء الغربْ والشرق ، فالى متى هذا الانتظار للنبي الموعود !؟

آيات التوحيد الخالص في الكتب السماوية

من تصفح كتب العهدين القديم والجديد ومزامير داوود (التوراة والانجيل والزبور) وجدهـا طافحة بالدعوة الى توحيد الله تعالى، والوعيد الشديـد على الشرك ، مملوءة بالبشارات بظهور رسـول لله محمد عليه الصلاة والسلام الى الناس كافة . فأما تنزيه الآله والرب عن الوالد والولد ، وعن الند والضد ، فتراه في الفصول والاعداد ، (وهي كالسور والآيات) من أسفار التوراة ، كتثنية الاشتراع، وسفر الخروج، وأشعياء ، مثل قوله : « ان الرب هو الاله ، وليس آخر سواه »«لايكن لك آلهة أخرى أمامي » «لاتسجد لهن ولاتعبدهن ، لأني أنا الرب الهك اله غيور » « ولكي يعلموا من مشرق الارض ومن مغربها أن ليس غيري أنا الرب وليس آخر » .

وفي انجيل مرقس : فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا هي : اسمع يااسرائيل : (الرب الهنا رب واحد).(الفصل ١٢ عدد ٢٩). وفي انجيل يوحنا : « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته »(الاصحاح ٣/١٧).

ليس من قصدي استيفاء آيات التوحيد الخالص من الكتب المقدسة فهي كثيرة ، ولا تقل البشائر التي لاتنطبق الا على النبي العربي محمد خاتم النبيين فقد نقل منها المحقق الكبير الشيخ رحمة الله الهندي الشهير ، في كتابه (اظهار الحق) عن الكتب المعتبرة عند علماء البروتستانت ثماني عشرة بشارة ، وسبقه الى مثل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية الذي عقدنا

هذا الفصل للكلام على كتابه (الجواب الصحيح) ، وتبعه فيه تلميذه الأمام ابن القيم في كتابه (ارشاد الحيارى) . وحسبي الآن أن أنقل شاهداً واحداً من التوراة ، وآخر من الأنجيل ، وكلمات قليلة من الزبور أو المزامير ، تأييداً لما جاء في القرآن من بشائر الوحدة والسلام ، والهتاف ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكي لايكون على المؤمنين بالكتب المقدسة حرج اذا هم صدقوا برسالة النبي العربي الذي آمن بكتب اخوانه المرسلين وصدقهم ، ولتقوم الوطنية على أساس المساواة التامة بين أبناء الوطن الواحد ، وهذا موضوع جليلَ ، ومطلب خطير ، يهم أهل الملل السماوية ، وعلماء الاجتماع الانساني ، لأنه يدعو الى الوحدة الصحيحة ، بلسان الكتب الإلهية ، والعاملين بها ، ومن واجب العلماء بيان هذه الوحدة الدينية من الكتب المنزلة ، لتؤيد بها وحدتنا القومية .

بشارة موسى بمحمد

جاء في العدد الخامس عشر من الأصحاح (أو الفصل كما في الطبعة اليسوعية من سفر التثنية [1] من التوراة) : « ويقيم لك الرب الهك نبياً من وسطك من اخوتك مثلي ، له تسمعون » فهذه البشارة صريحة في محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأنه لم يقم نبي مثل موسى من وسط اليهود ، ومن اخوتهم بني اسماعيل غير النبي العربي محمد ، وأبناء العم يسمون أخوة ، ومن ذلك تسمية أبناء عمهم (عيسو) أخوة لهم كما في ٢ : ٤ و ٨ من التثنية ، ولو كان المراد من هذه البشارة المسيح عليه الصلاة والسلام لقال : أقيمه منكم أو من نسلكم ، لا من اخوتكم ، لأن يسوع المسيح

---

(١) التثنية : اسم السفر الخامس من أسفار العهد القديم . وقد أطلق عليه التثنية ، لانه ذكرت فيه الشريعة الموسوية مرة ثانية .

ابن داود ابن ابراهيم ، كما في متى (١١ : ١ - ١٦) فهو من نسل اسحق ، لامن نسل اسماعيل عليهم السلام .

بشارة الانجيل بالنبي العربي

جاء في أنجيل يوحنا (١٦ : ١٢ و١٣) ان لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء روح الحق فهو يرشدكم الى الحق ، لأنه لايتكلم من نفسه ، بل كل مايسمع ، يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ، فمحمد هو الذي كان يتكلم بما يسمع من وحي الله اليه ، قال تعالى : سورة النجم : ٣ و ٤ « وماينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » ومملكة محمد هي مملكة الله في الارض المسماة في العهد الجديد بملكوت الله ، وبملكوت السموات ، وكان المسيح وتلاميذه يبشرون الناس بمجيئها ، وأمر عليه السلام أن يطلبوا اتيانها من الله في صلواتهم ، أنظر متى (٣ : ٢ و ٤ : ١٧ ، ٢٣ و ٦ : ١٠ و١٣ : ٣١ و٣٢ و٢٠ : ١ - ١٦ و٢١ : ٣٣ - ٤٤ ولوقا : ١٠ : ٢٩ ، ١١) وهذه المملكة هي التي بدأت صغيرة ثم نمت وكبرت حتى ملأت العالم ، ولذلك شبهها عليه السلام بالزرع الجيد وبالخميرة وبحبة الخردل ، التي تصير أكثر البقول ، حتى أن طيور السماء تأتي ، وتتأوى في أحضانها ، (وفي طبعة الجزويت : تستظل في أغصانها ، متى ١٣ : ٢٤ - ٣٥) وهي منطبقة على مافي القرآن الكريم في محمد وأتباعه ، « ومثلهم في الأنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فأستوى على سوقه» (سورة الفتح الآية : ٤٨) شطأه : أي فراخه يقال : أشطأ الزرع ، اذا فرخ ، فآزره من المؤازرة ، وهي المعاونة ، أي فشد أزره وقواه ، فاستوى على سوقه : فاستقام على قصبه ، جمع ساق وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الاسلام ، والنبي عليه السلام ، قام وحده

ثم قواه الله بمن آمن معه ، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف به مما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع .

بشارة حبقوق وذكر بلاد العرب فيها

قال حبقوق [1] (٣:٣و٤) « الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال فاران ، سلاه [2] جلاله غطى السموات ، والارض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع،وهناك استتار قدرته ».

فتيمان بلاد العرب ، ومعنى كلمة تيمان الصحراء الجنوبية ، لأنها جنوب بلاد الشام ، ولا يزال الآن على طريق القوافل بين دمشق ومكة قرية تسمى (تيماء) ومعنى هذه الكلمة ايضاً الصحراء الجنوبية ، وتيماء ايضاً اسم قبيلة اسماعيلية تسلسلت من تيماء ، وكانت تقطن بلاد العرب (تك ٢٥ : ١٥ و ١١ي ١/ ٣٠) كما في قاموس الكتاب المقدس العربي . أما جبل فاران فهو في البرية التي سكنها اسماعيل ابو العرب(تك٢١/٢١) فكأن حبقوق أشار بعبارته هذه الى مسكن رسول الله . وهو بلاد العرب (أو التيمان) والى مسكن أهله ، أوجده اسماعيل.وهو برية فاران.

التصريح ببكة وهي مكة

ومنه قول المزمور الرابع والثمانين (٥و٦) « طوبى لأناس عزهم

---

(١) نبوة حبقوق : هي السفر الخامس والثلاثون من أسفار العهد القديم حسب ترتيبها الاصلي ، وأما زمن كتابتها فقبل المسيح بنحو ستمائة سنة كما بين قاموس الكتاب المقدس.

(٢) قال بعض المحشين : سلاه : اختلفوا في تفسيرها على أقوال، أرجحها فيرأينا وهو ماذهب اليه اشهر المتأخرين من علماء العبرانية - أنها عبارة عن الامر بالسكوت او الوقف - ايعاز للمنشدين ان يقطعوا الغناء ويتخذوا فترة تنفرد فيها الآلات باللحن

بك ، طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكا » والأصل العبراني: وادي (بكة) فأبدل لفظ (بكا) بلفظ (بكة) وهي(مكة) في نص القرآن [1]

التصريح باسم محمد

من ذلك ماجاء في الفصل الخامس من النشيد ١٦ : حلقه حلاوة ، وكله مشتهيات ، هذا حبيبي ، (هذه ترجمة البروتستانت ، وترجمة اليسوعيين : حلقه أعذب مايكون ، بل هو بجملته ، هذا حبيبي).

ولفظ مشتهيات في الأصل العبراني(محمد يم) والقواميس العبرانية تقول : ان هذه اللفظة لاتفيد مشتهيات ، ولكن تفيد أنه محمود ، ونقول أن هذه صريحة في نبينا عليه السلام ، وقوله قبلها حلقه حلاوة : كناية عن فصاحة كلامه ، لم يأت نبي بكلام أحلى مما جاء به خاتم الأنبياء ، وقوله بعدها هذا حبيبي نص في لقب النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه حبيب الله عز وجل .

ومنه ماجاء في الفصل الثاني من النشيد : أسمعيني صوتك ، لأن صوتك لطيف ، ووجهك جميل ، وفي الأصل العبراني : (عرب) بدل (جميل) أي عربي . ومنه مافي الفصل الثاني من نبوة حجي أو حجاي أو حكاي كما في الأصل العبري: ٧ وازلزل كل الامم ويأتي مشتهى كل الامم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود . وكلمة مشتهى هذه ، أصلها العبراني (حمدات) ومعناه محمود ، وهي من الفعل العبراني (حمد)

علمنا من هذه النصوص والبشائر الصريحة في الكتب المقدسة أنها

---

(١) ضبطنا الالفاظ العبرية على أهلها ونقلنا بعض معانيها الى العربية بالتعاون معهم .

بشرت بالنبي العربي ، وذكرته باسمه الكريم ، وصرحت باسم بلاده ، ومحل ميلاده وهو مكة .

أفرأيتم كيف ألفت هذه النصوص الصريحة بين الأديان الثلاثة ؟ وهذا هو الأخاء الصحيح ، بين محمد وموسى والمسيح ، عليهم الصلاة والسلام ، وهذا بعض نصوصه وبشائره ، وهي قليل من كثير مما عثونا عليه ، ولو اقتصر رجال الكنيسة الأكارم على ما بين أيديهم من الكتب المقدسة ، ـ دون عقائد وعوائد ليست في هذه الأناجيل التي هي أصل العقيدة ومستندها ـ لاجتمعت الكلمة ، واحكمت عرى المودة القلبية بين المختلفين .

الجواب الصحيح . . . لمن بدل دين المسيح

«الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » المطبوع بمصر (١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٥ م) يقع في اربعة أجزاء وهي تبلغ أكثر من الف واربعمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وقد ذكر شيخ الاسلام في طلائع كتابه أنه جعله جواباً لكتاب ورد من قبرص « فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم ، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى أن نذكر من الجواب ، مايحصل به فصل الخطاب ، (ثم قال) : وأنا أذكر ماذكروه بألفاظهم بأعيانها ـ فصلا فصلا ، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً ، وعقداً وحلا ... فان هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة ، وهي مضافة الى بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي كتبها الى بعض اصدقائه ، وله مصنفات » .

وقد اشتمل رد شيخ الاسلام على ستة فصول :

١ - دعواهم أن محمداً ﷺ لم يبعث الا الى أهل الجاهلية من العرب .

٢ - دعواهم أن القرآن أثنى على دينهم الذي هم عليه .

٣ - دعوى أن نبوات الأنبياء المتقدمين تشهدلدينهم الذي هم عليه من الاقانيم والتثليث والاتحاد وغيرذلك .

٤ - فيه تقرير ذلك بالمعقول .

٥ - دعوى أنهم موحدون والاعتذار عما يتولونه من الالفاظ يظهر منها تعدد الآلهة كالفاظ الاقانيم الخ ...

٦ - أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال فلا حاجة بعد النهاية الى شرع مزيد على الغاية [1].

والغرض الأول من تأليف « الجواب الصحيح » على مايظهر ، هو بيان اصول الشرائع السماوية والكتب المنزلة ، وانها واحدة . (قال) وهذا أصل دين المسلمين ، فمن كفر بنبي واحد ، أو كتاب واحد فهو عندهم كافر ، « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله » [2] والمنسوخ التي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة الى عما اتفقت عليه الكتب والرسل. فان الذي اتفقت عليه هو الذي لابـد للخلق منه في كل زمان ومكان ، وهو الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، كما قال تعالى: «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، ولاخوف

---

(١) ص ١٩و٢٠

(٢) سورة البقرة الآيه : ٢٥٨

عليهم ولاهم يحزنون »[1] وعامة السور المكية كالأنعام والاعراف وآل حم وآل طس وآل الر - هي من الاصول الكلية الذي اتفقت عليها شرائع المرسلين ، كالأمر بعبادة الله وحده لاشريك له ، والصدق والعدل والاخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش والشرك ، والقول على الله بلا علم وعامة ماعندهم من النقول الصحيحة عن الانبياء من التوراة والانجيل والزبور ونبوات الأنبياء ، توافق المنقول عن محمد ﷺ يشهد هذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد ﷺ ومن دلائل نبوة اولئك الانبياء[2]

الابن وروح القدس لا اختصاص لهما بالمسيح عليه السلام

وقد أوضح ان الابن ليس كلمة ولاصفة ، ولاهو خاص بالمسيح ، وانما يراد به المصطفى المكرم ، (قال)[3] : المراد بالابن ناسوت المسيح ، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي ، والملك الذي نزل به ، فيكون قد امرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبما انزله على رسوله ، والملك الذي نزل به ، وبهذا أمرت الانبياء كلهم (قال)[4] : وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر الأنبياء ولا كلام غيرهم ان كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى ابناً ولا روح قدس ، ولايوجد قط في كلام الانبياء اسم الابن واقعاً الا على مخلوق ، والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب الله ، كما ينقلونه أنه قال لاسرائيل : انه ابنه بكره . ولداود ابني وحبيبي ، وان المسيح قال للحواريين : أبي وابيكم ، فجعله أباً للجميع ، وهم كلهم مخلوقون

---

(١) سورة البقرة الآية : ٦٢

(٢) ج ٣ ص ٢٤٥

(٣) ج ١ ص ٢٥٠

(٤) ج ٢ ص ٦٥

فيكون اسم الابن واقعاً على المسيح ، الذي هو ناسوت مخلوق. قال[1]:
« وفي الانجيل في غير موضع يقول المسيح : أبي وابيكم كقوله اني ذاهب الى أبي وأبيكم ، والهي والهكم » فيسميه أباً كما يسميهم ابناً له، فان كان هذا صحيحاً ، فالمراد بذلك أنه الرب المربي الرحيم ، فان الله ارحم بعباده من الوالدة بولدها ... فيكون المراد بالأب الرب ، والمراد بالابن عبده المسيح الذي رباه ، وأما روح القدس فهي لفظة موجودة في غير موضع من الكتب التي عندهم وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحل في ابراهيم وموسى وداود وغيرهم من الانبياء والصالحين وروح القدس قد يراد بها الملك المقدس ، ويراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطة .

(وفي ص٩٦) : فالذي فسر (بعض) النصارى به ظاهر كلام المسيح ، هو تفسير لاتدل عليه لغة المسيح ، وعادته في كلامه ، ولا لغة غيره من الأنبياء والامم ، بل المعروف في لغته وكلامه ، وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه ، وبذلك فسره اكابر علماء النصارى.

(وفي ص٣٣٢ من ج ٢):بل أفصح في كل الانجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لايحصى كثرة بانه عبد مثلكم ومربوب معكم ،ومرسل من عند ربه وربكم ومبدي ما أمر به فيكم ،وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته،ووصفوه لمن سأل عنه ، ومن كلامهم بانه رجل جاء من عند الله عز وجل ونبي له قوة وفضل [2] .

(وفي ص ٢٤٤) : ولفظ الابن عندهم في كتبهم يراد به من رباه

---

(١) ج ٢ ص ٩٤ و٩٥.

(٢) ج ٢ ص ٣٣٢

الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم في كلام الانبياء لفظ (الابن) قط الا على مخلوق محدث ، ولا يطلق الا على الناسوت دون اللاهوت، فلايسمى عندهم اسرائيل ابناً ، ولا داود ابناً لله ، والحواريون كذلك . فتبين أن العارف كلما تدبر ماقالته الانبياء وما قاله أهل البدع من ... وغيرهم لم يجد هم في كلام الأنبياء الا مايدل على نقيض ضلالهم .

وقد بين في (ص٣٠٦ ج ٢) : فلسفتهم في الأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) وأعظم فرقهم في ذلك العهد اليعقوبية والملكانية والنسطورية وقد اختلفت وجهات نظرهم واستغرقت صفحات كثيرة . وذكر القائلين منهم ، بالأمانة ، واختلافهم في تفسيرها وامتناع تصورها على الوجه الصحيح ، وهنا تظهر سعة علم شيخ الاسلام بالفرق ، واطلاعه على مقالاتها واحاطته بفلسفتها، وقوة عقله في اظهار تعارضها وفي ردهـا كلها بالمنقول والمعقول .

التوحيد الصحيح في كلامهم

ثم خلص الى افراد الله تعالى بالوحدانية والعبادة على السنة طوائف منهم ،(وقال ص ٣٠٩) : وقال الاريوسية : ان الله ليس بجسم ولاأقانيم له ، وان المسيح لم يصلب ولم يقتل ، وانه نبي ، وحكى عن بعضهم أنه قال : المسيح ليس بابن الله (أي بنوة لاهوت) وحكى عن بعضهم أنه ابن الله على التسمية والتقريب (الى أن قال) : وهذا الذي نقله عنهم أبو الحسن الزاغوني ، هو نحو مانقله عنهم القاضي ابو بكربن الطيب والقاضي أبو يعلى وغيرهما ، (قال) : وقال أبو محمد بن حزم : النصارى فرق ، منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالاسكندرية، ومن قوله : التوحيد المجرد ، وان عيسى عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات

والارض (أي وهي كلمة « كن») وكان في زمن قسطنطين الاول باني القسطنطينيـــة ، وأول من تنصر من ملوك الروم، وان كان على مذهب أريوس هذا .

(قال ابن حزم) : ومنهم أصحـــاب بولس الشمشاطي ، وكان بطريركا بانطاكية قبل ظهور النصرانيـة ، وكان قوله بالتوحيـد المجرد الصحيح ، وان عيسى عبد الله ورسوله كأحد الانبياء عليهم السـلام ، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وانه انسان لا إلهية فيه البتـة ، وكان يقول : لا أدري ما الكلمة ولاروح القدس ، (قال) : وكان منهم اصحاب مقدينوس ـ وكان بطريركا بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانيـة أيام قسطنطين بانيها ـ وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه ، وكان من قول مقدينوس هذا التوحيد المجرد ، وان عيسى هو روح القدس وكلمة الله ، وان روح القدس والكلمة مخلوقان ، خلق الله كل ذلك .

رسالة الحسن بن أيوب الى أخيه

وهذه الرسالة من أخ دان بالتوحيد الخالص ، وكتبها الى اخيه ، وذكر له سبب اسلامه فيها، ثم ذكر فرق النصرانية الثلاث ، وناقشهم في مذاهبهم وقضاياها واحدة واحدة ، وهي من امتع الرسائل وأبلغهـا وفيها ادق المباحث وأهمها ، لم تترك شبهة الا كشفتها ، ولا حجة الاحلتها ومن قرأها يتدبر وامعان علم ماعلمناه منها ، فقد سـبرت غور المسائل ، وقابلت بين الاشياء والنظائر ، وأتت بأحسن النتائج ، التي تسكن اليهـا النفس ويطمئن بها القلب ، ثم هي تزيل الفروق بين الاديان ، وتجعـل أهلها عباداً للرحمن ، لالبني الانســان . وقـد اوردهـا في (الجواب

الصحيح) فبلغت ثلاثا وخمسين صفحة (ج٢/٣١٢-٣٦٣) وصفحتين من أول الثالث .

ذكر مؤلفها فيها ان مريم ولدت انساناً (عليها السلام) وأنه جرى عليه احكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن وتعلم وتعليم ، لايتهيأ لكم أنه كان منه في تلك المدة من اسباب اللاهوتية شيء ولاله من أحوال الآدميين كلها - من حاجاتهم وضروراتهم، وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم - مخرج .

ابن الله ومعناه

(قال) : وقد علمتم ان من يسمى بابن الله كثير لايحصون ، فمن ذلك اقراركم انكم جميعاً أبناء الله بالمحبة ، وقول المسيح ابي وابوكم ، والهي والهكم في غير موضع من الانجيل، ثم تسمية (الله) يعقوب وغيره (بنيه) خصوصاً ، فالسبيل في المسيح اذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور، أن يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار ، ونسبة الملك اياه الى أبيه داود ، تحقق أن أباه داود، وان التسمية الاولى (أي ابن الله) على جهة الاصطفاء والمحبة ، وان حلول الروح عليه على الجهة التي قالها متى التلميذ للشعب عن المسيح في الانجيل لستم انتم متكلمين ، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم . فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين وتتكلم فيهم .

عشرون الف آية تنطق بعبودية المسيح لله تعالى!

ومن تمام كلام الحسن بن ايوب (٣٦١ من ج ٢) قوله : واذا نظرنا في الانجيل وكتب بولص وغيره ممن يحتج به النصارى وجدنا نحواً

من عشرين الف آية [1] مما فيه اسم المسيح . وكلها تنطق بعبودية المسيح، وانه مبعوث مربوب، وان الله اختصه بالكرامات، ماخلا آيات كثيرة مشكلات ، قد تأولها كل فريق من اولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته، وقال في أواخر هذه الرسالة :

ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها ودعوتها ومعبودها واحداً، يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام ، وتلامذته وانجيله، وسنته وشرائعه ، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف ، فمنهم من يقول أنه عبد ومنهم من يقول انه اله الخ ...

وقد ختم شيخ الاسلام كلام هذه الرسالة بقوله في اول الجزء الثالث من جوابه : هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن ايوب - وهو ممن كان من اجلاء علماء النصارى ، وأخبر الناس بأقوالهم، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره ، وقد ذكر في كتابه من الرد على مايحتجون به من الحجج العقلية والسمعية ،وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية مايبين ذلك . (قال) ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم الخ ثم وصف كتاب (نظم الجوهر) لابن البطريق بطريرك الاسكندرية وصفاً شاملاً لاخبارهم ومجامعهم واختلافهم ، وسبب احداثهم ما أحدثوه مع انتصار ابن البطريق لقول الملكية، والرد على من خالفهم (وفي ص ١٦٩ ج ٣) : ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم(أي الطوائف المختلفين في التثليث والاتحاد ، وان كل صنف يحكي أقوالاً غير الاقوال التي حكاها الآخرون) سعيد بن البطريق بطريرك الاسكندرية في اثناء

---

(١) أي أمارة أو علامة

المائة الرابعة من دولة الاسلام ، وقد فند هذا البطريرك أقوال النسطورية والملكانية ، وفند شيخ الاسلام أقوال الطوائف كلها بالعقل والنقل ولم يبق زيادة لمستزيد . (وفي ص ٢٢٢ ج ٣) : ذكر ما امتاز به القرآن على التوراة ، (وفي ص ٢٤٤) : ان جمهور المسلمين لايعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد ﷺ الا باخبار محمد ﷺ بنبوتهم ،فلايمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء الا بعد التصديق بنبوة محمد ﷺ

ما اتفقت عليه الكتب والرسل

ثم انتقل في الجواب الصحيح الى ذكر ما اتفقت عليه الكتب والرسل من الاصول الكلية العامة ، والى ماجاء في التوراة من الجمع بين التوراة والانجيل والقرآن ، والرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام « تجلى الله من طور سينا، واشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » والى بشارة السفر الاول من التوراة بمحمد ، وبشائر الزبور به وهو مزامير داود . وقد ذكرنا قبل هذا شواهد من هذه الكتب الثلاثة المقدسة.

وفي الجواب الصحيح (٣٨٢/٣) قال كثير من العلماء واللفظ لمحمد ابن قتيبة : ليس بهذا خفاء على من تدبر ولاغموض ، لان مجيء الله من طور سينا انزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير ، انزاله الانجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير ارض الخليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها سمي من اتبعه من نصارى، وكما وجب ان يكون اشراقه من ساعير المسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، انزاله القرآن على (محمد ﷺ) وجبال فاران هي جبال مكة . (قال) :

وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هـي مكة، فان ادعوا أنها غير مكة ... قلنا أليس في التوراة أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل (فاران) وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعـد المسيح ؟ (ثم قال) : ولا يمكن أحد أن يدعي أن بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الارض، ولا بعث نبي ، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران الا ارسال محمد ﷺ ، وهو سبحانه ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزماني، فذكر انزال التوراة ، ثم الانجيل، ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه والى أماكن هذه الكتب الثلاثة اشار القرآن الكريم ، وقال في الجواب الصحيح (ص٣٨٦)، فقوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين » [1] اقسام منه بالامكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن ، كما ذكر الثلاثة في التوراة .

بشائر النبوات بالنبي العربي ، والتصريح باسمه

ثم ذكر في « الجواب الصحيح » بشائر النبوات بالنبي العربي، وفي أشعياء : « اسم محمد ، موجود الى الابد » قال أشعياء : « يا محمد يا قدوس الرب ، اسمك موجود من الابد » قالوا فهل بقي بعد ذلك لزائغ مقال ، او لطاعن مجال ، (ص ٣٠٧) ! وفيه ايضاً التصريح باسمه (أحمـد) و(محمد). وقال اشعياء: «انا سمعنا من أطراف الارض صوت (محمد)!!» وهذا افصاح من اشعياء باسم رسـول الله ﷺ (٣/٣١٠). وفي حبقوق

(١) ٩٥-١

التصريح باسم محمد مرتين : « ان الله جاء من التيمن ، والقدوس من جبال فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ﷺ وامتلأت الارض من حمده ، شعاع منظره باسم النور ، يحوط بـــلاده بعزه (الى أن قال) وترتوي السهام بأمرك يامحمد ارتواء » (ثم قال) : وهذه النبوة لاتليق الابمحمد، ولا تصلح الا له ، ولاتــدل الا عليه ، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعاً .

وفي (ج٤ ص٥) في كلمة الانجيل وتفسيرها ، قالوا : وقال يوحنا الانجيلي ، قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من انجيـــله : ان الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء . وقال يوحنا التلميذ أيضـــاً عن المسيح أنه قال لتلاميذه : ان كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يلبث معكم الى الابد روح الحق!! الخ ..

وذكر بشارات اخرى من هذه الاناجيل ، وتوسع في شرح هــذه البشائر واحدة واحدة ، وجملة جملة ، وبين وجه دلالتهـــا على النبي ﷺ وانطباقها عليه دون غيره ! (الى أن قال ص ٤/١٤) : وايضاً فان معنى الفار قليط ان كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز ، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ فانه وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد .

ثم عقد فصولاً في اعجاز القرآن من وجوه متعددة ، من جهـــة اللفظ ، والنظم ، والبلاغة ، ومعانيه التي امر بها ، والمغيبـات التي اخبر عنها ، وما وصف به المعاد ، وما أقامه من الدلائل اليقينيـة ، والأقيسة العقلية التي هي الامثال المضروبة ، قال : وكل ماذكره الناس من الوجوه في اعجاز القرآن فهو حجة على اعجازه ، وكل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

وعقد فصولاً اخرى في سيرة النبي ﷺ وفي هديه وأوصافه وأخلاقه . وذكر معجزاته في نفسه وفي خلفائه (الى ص ١٢٠) ثم ما أخبر بوقوعه في الاحاديث الصحيحة . ثم قال بعد سرد أخباره ﷺ بالمغيبات (ص١٤٨): وهذا وأمثاله مما أخبر به من المستقبلات ، فوقع بعده كما اخبر ، ورأى الناس ذلك ، وأما ما اخبر به مما لم يقع الى الآن فكثير. ثم ذكر شواهد مما تواتر عند علماء التاريخ أو السير ، أو النحو ، أو اللغة ، أو الحديث دون غيرهم ، وبيان أن المحدثين اوثق وأضبط من جميع هؤلاء ، وقال (ص٢٣٥) : وعامة ماذكرنا من آيات النبي ﷺ هي من موارد اجماعهم لامن موارد نزاعهم . وفي (ص٣٠٦) : والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه ، وبهجة وجهه ، سيما يعرف بها .

ونقل عن القاضي عياض - في صدق نبوة النبي - قوله : اذا تأمل المتأمل المنصف ماقدمناه من جميل أثره وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله ، لم يمتر في صحة نبوته ، وصدق دعوته ، (قال) : وكفى هذا غير واحد في اسلامه والايمان به .

في اواخر الفصل الذي ختم به شيخ الاسلام « الجواب الصحيح » مانصه : وفي خبر الجلندي ملك غسان لما بلغه أن الرسول ﷺ يدعوه الى الاسلام فقال الجلندي : والله لقد دلني على النبي الامي انه لايأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولاينهى عن شر الا كان أول تارك له ، وانه يغلب فلايبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز بالموعود ، وأشهد أنه نبي . وقال نفطويه في قوله تعالى : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » هو مثل ضربه الله لنبيه ، يقول : يكاد منظره يدل على نبوته وان لم يتل قرآنا . كما قال ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تاتيك بالخبر

الحكمة والتعليل والقدر

نريد الآن أن نعرف مذهب شيخ الاسلام ابن تيمية في علة صدور العالم . وهل هو لغرض وداع قام بذاته تعالى أم ان خلقه تعالى للعالم ومايجري فيه من الحوادث لا لعلة ولا لغرض . وذلك بعد ان نبين المذاهب المختلفة في هذه المسألة ايضاً وموقفه منها .

آ – ذهب الاشاعرة والفلاسفة الى انه تعالى لايفعل شيئاً لغرض وليست له غاية يقصدهامن فعله تكون باعثة له عليه؟! بل صدور مايصدر عنه تعالى اما بارادة قديمة اقتضت وقوع العالم على هذا الوجه دون غير عند الاشاعرة ! وأما بتمثل النظام الكلي في علمه السابق مع وقته الواجب اللائق على رأي الفلاسفة [1].

والفرق بينهما هو ان الفلاسفة ينفون عنه تعالى القصد الى الفعل ويرون ان كل فاعل بالقصد مستكمل وله غرض، في فعله . اما الاشاعرة فيثبتون القصد ولايرونه مستلزماً للغرض لانهم يجوزون ترجيح القادر المختار لأحد مقدوريه بلا مرجح اصلاً كما سبقت الاشارة الى ذلك واحتج الاشاعرة والفلاسفة على نفي الغرض في فعله تعالى بأنه لوخلق الخلق لعلة لكان ناقصاً بدونها مستكملاً بها!؟ فانه اما ان يكون وجودتلك العلة وعدمها بالنسبة اليه سواء ، او يكون وجودها أولى به ، فان كان الاول امتنع ان يفعل لاجلها وان كان الثاني ثبت ان وجودها أولى به، فيكون مستكملاً ناقصا [2] .

---

(١) الاشارات م٢ ص٧

(٢) المحصل للرازي ص ١٤٩

وابن تيمية يذكر هذه الحجة للاشاعرة وحدهم ، لأنه يرى ان الفلاسفة قائلون بالعلة الغائية كما قالوا بالعلة الفاعلية. ولكن الحق ان هذه الحجة هي في الاصل للفلاسفة . ثم اخذها الرازي عنهم . واحتج بها لمذهب الاشاعرة في كتابه المحصل وغيره .

ويشهد لهذا قول ابن سينا في الاشارات :

« تنبيه ـ اعلم ان الشيء الذي انما يحسن به ان يكون عنه شيء آخر ويكون ذلك اولى به واليق من أن لايكون ، فانه اذا لم يكن عنه ذلك لم يكن ماهو اولى وأحسن به مطلقاً . وأيضاً لم يكن ماهو أولى وأحسن به مضافاً . فهو مسلوب كمال ، ما يفتقر فيه الى كسب [1] ».

وقوله أيضاً بعد ذلك بقليل :

« فمن جاد ليشرف او ليحمد او ليحسن به مايفعل، فهو مستعيض غير جواد، فالجواد الحق هو الذي يفيض منه الفوائد. لا لشوق منه وطلب قصدي لشيء يعود عليه .

وأعلم ان الذي يفعل شيئاً لو لم يفعله قبح به أو لم يحسن منه فهو بما يفيده من فعله متخلص [2] . » .

ولعل مما يؤيد هذا الذي قلناه من سبق الفلاسفة بهذه الحجة قول نصير الدين الطوسي في تعليقه على المحصل .

وأما قوله « الفخر الرازي » الفاعل بغرض مستكمل بالغرض حكم أخذه من الحكماء استعمله في غير موضعه . فانهم لاينفون سوق الاشياء الى كمالاتها والا لبطل علم منافع الاعضاء وقواعد العلوم الحكمية من

---

(١) الاشارات ج ٢ ص ٤

(٢) الاشارات ج ٢ ص ٥

الطبيعيات وعلم الهيئات وغيرهـــا وسقطت العلل الغائية بأسرها من الاعتبار [1] .

ومهما يكن من أمر هذه الحجة. وسواء أكان الأصل فيها هم الفلاسفة أم الاشاعرة فقد نقضها ابن تيمية من وجوه كثيرة منها :

١ ـ أن قولهم لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصاً بدونها مستكملا بها منقوض بنفس مايفعله من المفعولات . فانه يمكن أن يقال فيها ايضاً اما أن يكون وجودها وعدمه بالنسبة اليه سواء او لايكون . فان كان الاول امتنع صدورها عنه. وان كان الثاني كان مستكملاً بها. فما كان جواباً في المفعولات كان جواباً عن هذا . ونحن لانعقل في الشاهـــد فاعلاً الا مستكملاً بفعله .

٢ ـ ان مقتضى الكمال ان يكون الباري لايزال قادراً على الفعل بحكمة فلو قدر كونه غير قادر على ذلك لـكان ناقصاً .

٣ ـ قول القائل انه مستكمل بغيره باطل . فان ذلك انما حصـــل بقدرته ومشيئته لاشريك له في ذلك . فلم يكن في ذلك محتاجاً الى غيره. واذا قيل كمل بفعله الذي لايحتاج فيه الى غيره . كان كما لوقيل كمل بذاته او صفاته فهو مثلا اذا فرح بتوبة عبده التائب وأحب من تقرب اليه بالنوافل ورضى عن السابقين الاولين ونحو ذلك . لم يجز ان يقال انـــه مفتقر في ذلك الى غيره أو مستكمل بسواه . فانه هو الذي خلق هؤلاء وهداهم وأقدرهم حتى فعلوا مايحبه ويرضاه ويفرح به .

٤ ـ قول القائل كان قبل ذلك ناقصاً ان اراد به عدم ماتجدد فلا نسلم أن عدمه قبل ذلك الوقت الذي اقتضت الحكمة وجوده فيه يكون

---

(١) تلخيص المحصل ص ١٤٩

نقصاً . وان اراد بكونه ناقصاً معنى غير ذلك فهو ممنوع ، بل يقال عدم الشيء في الوقت الذي لم تقتض الحكمة وجوده فيه كمال، كما أن وجوده في وقت اقتضاء الحكمة وجوده كمال ايضاً . فليس عدم كل شيء ناقصا . بل عدم مالايصلح وجوده هو النقص . كما ان وجود مالايصلح وجود نقص فتبين أن وجود هذه الامور حين اقتضت الحكمة عدمها هو النقص لا أن عدمها هو النقص [1] .

ب ـ وأما المعتزلة فيثبتون الحكمة لله في خلقه وأمره : ولكنهم لايجعلونها قائمة بذاته . بل يجعلونها مخلوقة منفصلة عنه . فيقولون مثلا الحكمة في وجود الخلق هو الاحسان اليهم ، والحكمة في التكليف هو تعريض المكلفين للثواب ، ويقولون ان الاحسان الى الغير حسن محمود في العقل فخلق الله الخلق هذه الحكمة من غير أن يعود عليه هو من ذلك مصلحة [2]

ويرى ابن تيمية ان هذا القول متناقض لأن الاحسان الى الغير انما كان محموداً لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمد لأجله . اما لتكميل نفسه بذلك ، واما لقصده الحمد والثواب بذلك . واما لرقة وألم يجده في نفسه يدفع بذلك الاحسان الألم واما الالتذاذه وسروره وفرحه بالاحسان، فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذي يحصل منها الى غيرها، فالاحسان الى الغير محمود لكون المحسن يعود اليه من فعله هذه الامور حكم يحمد لأجله ، أما اذا قدر أن وجود الاحسان وعدمه بالنسبة الى الفاعل سواء لم يعلم ان هذا الفعل يحسن منه ، بل مثل هذا يعد عبثا في

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٤ ص ١٦٢ — ١٦٣

(٢) المحصل للرازي ص ١٤٩ والمواقف مع شرحه ج ٨ ص ٢٠٢ الى ٢٠٥

عقول العقلاء ، وكل من فعل فعلا ليس فيه لنفسه لذة ولامصلحة ولا منفعة بوجه من الوجوه لاعاجلة ولا آجلة كان عبثاً، ولم يكن محموداً على هذا ، ولذلك لم يأمر الله تعالى ولارسوله ﷺ ولا أحد من العقلاء احداً بالاحسان الى غيره ونفعه الا لما في ذلك من المنفعة والمصلحة .والا فأمر الفاعل بفعل لايعود اليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لافي العاجل ولا في الآجل لايستحسن من الآمر.

جـ ـ وأما عبد الله بن كلاب ومن وافقه فيثبتون حكمة وغاية قائمة بذاته تعالى ولكنهم يجعلونها قديمة غير مقارنة للمفعول . ويقولون ان ارادته وحبه ورضاه وغضبه وسخطه ورحمته وكرمه ونحو ذلك قديم .

فهو سبحانه لم يزل راضياً عمن علم أنه يموت مؤمناً ولم يزل ساخطاً على من علم أنه يموت كافراً .

وهذا الرأي في نظر ابن تيمية باطل كسابقيه فاذا كان الله راضياً في ازله ومحباًوفرحاًبمايحدثه،قبل ان يحدثه فاذاأحدثه هل حصل له باحداثه حكمة يحبهاويرضاهاويفرح بها أو لم يحصل الاما كان في الأزل ، فان قلتم لم يحصل الا ما كان في الازل قبل ذلك كان حاصلاً بدون ما أحدثه من المفعولات فامتنع أن تكون المفعولات قد فعلت لكي يحصل ذاك . فهذا القول كما تضمن ان المفعولات تحدث بلا سبب يحدثه الله يتضمن ايضاً انه يفعلها بلا حكمة يحبها ويرضاها .

٤ ـ واذا كانت هذه الآراء في الحكمة والتعليل باطلة في نظر ابن تيمية فالصحيح عنده ماعليه جمهور أهل السنة وتشهد له النصوص الكثيرة من أن لله تعالى حكمة تتعلق به يحبها ويرضاها ويفعل لأجلها فهو سبحانه يفعل ما يفعل لحكمة يعلمها وهو يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته

مايطلعهم عليه وقد لايعلمون ذلك ، والامور العامة التي يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة كارساله محمداً ﷺ فانه كما قال تعالى « وماأرسلناك الا رحمة للعالمين » فاذا قال قائل فقد تضر برسالته طوائف كثيرة من الناس كالذين كذبوه من المشركين وأهل الكتاب فالجواب أنه نفعهم بحسب الامكان حيث أضعف شرهم الذين كانوا يفعلونه لولا الرسالة باظهار الحجج والآيات التي زلزلت مافي قلوبهم وبالجهاد والجزية التي اخافتهم واذلتهم حتى قل شرهم .

على أن ماحصل من الضرر فهو امر مغمور بجانب ماحصل من النفع كالمطر الذي عم نفعه اذا خرب به بعض البيوت أو احتبس بـه بعض المسافرين والمكتسبين كالقصارين ونحوهم وما كان نفعه ومصلحته عامة كان خيراً مقصوداً ورحمة محبوبة وان تضرر به بعض الناس .

على أن ابن تيمية يرى أن جميع مايحدثه الله في الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة كما قال تعالى « صنع الله الذي اتقن كل شيء » وكما قال « الذي احسن كل شيء خلقه » والضرر الذي تحصل به حكمة مطلوبة لايكون شراً مطلقاً وان كان شراً بالنسبة الى من تضرر به .

ولهذا لايجيء في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ اضافة الشر وحده الى الله وانما يذكر الشر على احد وجوه ثلاثة :

١ — فهو اما أن يدخل في عموم المخلوقات فاذا دخل في العموم افاد عموم القدرة والمشيئة والخلق وتضمن مااشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم وذلك مثل قوله تعالى « الله خالق كل شيء » ومن ذلك اسماء الله المقترنة مثل المعطي المانع والضار النافع والمعز المذل والخافض الرافع

ونحو ذلك فلا يفرد اسم المانع عن قرينه ولا الضار عن قرينه ولان اقترانها يدل على العموم .

٢ ـ واما أن يضاف الى السبب كقوله « من شر ماخلق » وقوله « ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك » وقوله « ربنا ظلمنا أنفسنا » وقوله « او لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم اني هذا قل هو من عند انفسكم » وأمثال ذلك .

٣ ـ واما أن يحذف فاعله كقول الجن « وانا لاندري أشر أريد بمن في الأرض ام أراد بهم ربهم رشداً » وقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ويقول ابن تيمية ان العبد اذا علم من حيث الجملة ان لله فيما خلقه وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا ، ثم كلما ازداد علماً وايماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته مايبهر عقله وتبين له تصديق ماأخبر الله به في كتابه حيث قال « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

هذا هو مذهب ابن تيمية في مسألة الحكمة والتعليل ينم عن نفس شديدة التفاؤل وقلب مفعم بحب الوجود ومافيه من آثار رحمة الله تعالى ومجالي حكمته حتى انه ليتلمس حكمة الله في الشر كما يترصدها في الخير ، ولعل هذه النزعة المبالغة في التفاؤل هي التي جعلت منه هذا الرجل الجلد الصابر على مامني به في حياته من احداث ومصائب ما كان يطيقها لولا ثقته برحمة الله التي كانت تشيع في نفسه الأمل والرجاء وكانت له في حياته اجمل عزاء .

بقي علينا أن نعرف مذهب ابن تيمية في القدر وهو مذهب يقوم على الايمان بعموم قدرة الله تعالى وشمول مشيئته وانه ماشاء كان ومالم يشأ

لم يكن . ولكنه مع ذلك لايعطل الأسباب الكونية والقوى الطبيعية عن اعمالها كما أنه لاينكر فاعلية العباد وصدور اعمالهم عنهم بما جعله الله فيهم من قدر وأرادات. ويرى أن ذلك كله من القدر ، لأن القدر لايقوم على ابطال الاسباب بل على اعمال الاسباب ، كما سئل رسول الله ﷺ أرأيت أدوية نتداوى بها ورقي نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله (١) .

وابن تيمية ينكر على المعتزلة جحدهم لعموم قدرة الله تعالى وشمول مشيئته وقولهم ان الحيوانات تصدر عنها أفعالها على سبيل الاستقلال من غير تأثير لقدرة الله ولا لمشيئته في شيء منها . ويرى تبعاً للاشاعرة أنهم اشبهوا في ذلك المجوس الذين يقولون بخالقين خالق للخير أو النور وخالق للظلمة أو الشر (٢) .

كما أنه ينكر على الاشاعرة ايضاً انهم مع تسليمهم بعموم القدرة وشمول المشيئة يثبتون أرادة بلا حكمة ومشيئة بلا رحمة ولا محبة ولا رضى ويجعلون المخلوقات بالنسبة اليه سواء كما أنهم يجحدون تأثير الاسباب في مسبباتها ويعطلون ماخلقه الله في الاشياء من قوى الطبائع ويقولون أن قدرة العبد لاتأثير لها في شيء من فعله .

ولكن شر الطوائف في نظر ابن تيمية بالنسبة الى القدر طائفة يسميهم « بالقدرية المجبرة » يقولون أن الله جبر عباده على ماأراد ويحتجون بالقدر على ابطال الامر والنهي والوعد والوعيد ولهذا يسوون بين المؤمن

---

(١) المحصل للرازي ص ١٥٧

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ج٥ ص١٢٧

والكافر وبين البر والفاجر وبين الطاعة والمعصية فـآدم وابليس عندهم سواء ونوح وقومه سواء وموسى وفرعون سواء والسابقون الأولون والكافرون سواء [1]

ولئن كان المعتزلة في نظره يشبهون المجوس فهؤلاء يشبهون المشركين عباد الاصنام الذين يقولون « لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ».

ويقول ابن تيمية ان هذا الضلال اكثر مايكون في أهل التصوف والزهد والعبادة الذين يدعون التوحيد والفناء في التوحيد . ويقولون ان هذا نهاية المعرفة وأن العارف اذا صار الى هذا المقام لايستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة ولكنهم مع ذلك لايعرفون توحيد الالوهية الذي يقوم على عبادة الله وحده لاشريك له ولا يعلمون أن مجرد الاقرار بان الله رب كل شيء وخالقه ومليكه لايكون توحيداً حتى تقترن به شهادة أن لااله الا الله كما قال تعالى « وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » .

ويشتد ابن تيمية في نقد هؤلاء الناس حتى يجعلهم اكفر من اليهود والنصارى فيقول :

« ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى بل هؤلاء قولهم متناقض لايمكن أحد منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاون عليه اثنان فان القدر ان كان حجة فهو حجة لكل احد والا فليس حجة لاحد .

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ص ٣٣٤

« فاذا قدر ان الرجل ظلمه ظالم أو شتمه شاتم أو أخذماله أوأفسد أهله أو غير ذلك فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته فقد أبطل الاحتجاج بالقدر ومن أدعى أن العارف اذا شهد الارادة سقط عنه الامر كان هذا الكلام من الكفر الذي لايرضاه اليهود ولا النصارى بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع فان الجائع يفرق بين الخبز والتراب ، والعطشان يفرق بين الماء والسراب ، فيحب مايشبعه ويرويه دون مالاينفعه مع أن الجميع مخلوق لله تعالى [1]».

« ولو جاز لاحد ان يحتج بالقدر على مايفعله من السيئات لم يعاقب ظالم ولم يقتل مشرك ولم يقم حد ولم يكف أحد عن ظلم وهـــذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول [2] ».

هذه هي خلاصة مذهب ابن تيمية في القدر يؤمن به ولا يحتـج به ولا يتخذه وسيلة لمعارضة ماجاء بهفي الشرع من الاحكام والتكاليف.

وهذا فيما نعتقد المذهب الوسط بين من ينفي القدر ويكذب به وبين من يثبته ثم يعارض به النظام الشرعي أو الطبيعي .

تلك أمثلة من آراء ابن تيمية ومناقشاته في امهات المسائل الكلامية عرضناها لتكون نموذجاً يستعان به على تعرف نزعات الرجل ومنهجه في العقيدة والى أي حد كان انتصاره لمذهب السلف واحترامه للنصوص في كل مسألة عالجهـا : مع ما امتاز به من قدرة على العرض وقوة في النقـد وخبرة واسعة بالمذاهب الفلسفية والكلامية المختلفة بحيث كان مضرب المثل

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ١٣٣

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ١٣٩

في غزارة العلم وسعة الاطلاع[1] . وكان أول ثلاثة قال فيهم الشاعر :

ثلاثة ليس لهم رابع   في العلم والتحقيق والنسك
وهم اذا شئت ابن تيمية   وابن دقيق العبد والسبكي

الغزالي وابن تيمية

لا يستطيع المؤلف أن يتحدث عن ابن تيمية رضي الله عنه دون أن يتطرق في بحثه الى الغزالي ، حيث انبرى له شيخ الاسلام في كثيرمن المواضيع وتعقبه في كثير من بحوثه حتى كاد يجرده من العلم ، بل من الايمان أيضاً !

قال الامام ابن تيمية [2] أثناء الكلام على الغزالي في كتابه « المضنون على غير أهله » : « وهو فلسفة محضة قوله : المشركين العرب خير منه ! ... دع قول اليهود والنصارى ! » .

ولنسارع قبل أن يتهم شيخ الاسلام ابن تيمية بالمبالغة والشطط الى نقل عبارات الغزالي ، نترك الحكم فيها للقارىء .

« لا اله الا الله توحيد العوام ! ولا هو الا هو توحيد الخواص[3] » .

ومعنى قول الغزالي انه يعتقد بوحدة الوجود أو الشهود معتبراً ايمان الرسول ﷺ وأصحابه من بعده ، بل جميع الأنبياء من قبل ، ايمان عوام !.

---

(١) « ابن تيمية السلفي » للاستاذ محمد خليل هراس

(٢) في كتابه « الرسائل والمسائل » ص ٨١

(٣) «الجواهر الغوالي» ص ١٢٥

قال النبي ﷺ : أفضل ماقلت انا والنبيون من قبلي لا اله الا الله وحده .. الحديث

ويتحدث الغزالي عن المحجوبين فيقول عن عبدة الأوثان : «هؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال من صفات الله وأنواره[١]، وعن عباد الأشجار أنهم محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس[٢] » .

ويقول الغزالي عن عباد النار : « هؤلاء محجوبون بنور السلطة والبهاء ، وكل ذلك من أنوار الله تعالى ! » .

ويقول عن عباد النجوم : « وهؤلاء محجوبون بنور العلو والاشراق والاستعلاء وهي من أنوار الله تعالى[٣] » .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « ومنهم ـ يقصد الصوفية ـ من يزعم انه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ، وأبو حامد (أي الغزالي) يكثر من مدح هذه الطريقة[٤] » ثم يقول ابن تيمية في الصفحة نفسها : « وأبو حامد يقول : انه سمع الخطاب كما سمعه موسى » .

يقول الغزالي : « ان القلب له بابان باحدهما يطلع على اللوح المحفوظ ، ويشبه القلب بالمرآة ، واللوح المحفوظ بالمرآة ، يتقابلان فينقش ما في اللوح المحفوظ في القلب[٥] » .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٢
(٢) المصدر السابق ص ١٤٣
(٣) المصدر السابق ص ١٤٣
(٤) كتاب «الرسائل والمسائل» ص ٨٧
(٥) كتاب « الجواهر الغوالي » ص ١٤

ويقول الغزالي[1] : « اذا جلس في مكان وعطــل طريق الحواس وقال دائماً: الله الله الله بقلبه دون لسانه أبصر باليقظة الذي يبصره بالنوم، فتظهر له أرواح الأنبياء والمــلائكة وانكشف له ملكوت السموات والأرض ورأى ما لا يمكن شرحه أو وصفه [2] » .

وقال الامام ابن تيمية : « انه ـ ويقصد الغزالي ـ لم يعرف ماقاله احمد ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب ، ولا ما جاء بــه القرآن والحديث ! » .

وكيلا نبهت القارىء بنفي معرفة الغزالي بالقرآن والحديث نسوق له بعض تفسيراته وعبثه باي الذكر الحكيم !

وقال الغزالي في تفسير « لعلي اتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدي » لعلك من سرادقات العز تنادى بما نودي به موسى انا ربك[3].»

وقال الغزالي : « وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون » معنــاه « وانا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والعساكر وجعلنا النفس مركبــه حتى يسافر عليه من عالم التراب الى أعلى عليين [4] ».

---

(١) المصدر السابق ص٥١

(٢) ان لنا على هذا الكلام ملاحظات ثلاث :

الاولى : أنه كذب واختلاق ، وفي التجربة اكبر برهان .

الثانية : ان الذكر بكلمة الله الله ذكر مبتدع لم يعرف عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا احد من اصحابه والتابعين، وقد كان الكفار يقولون (الله) ولم تنقــذهم من النار: «ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ! »

الثالثة : ان الذكر لايسمى ذكراً الا اذا اشترك اللسان مع القلب.

(٣) «الاملاء الملخص لكتاب الاحياء» ص٤٤ طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية

(٤) «الجواهر الغوالي » ص١١

ولاشك أن هذا التفسير من قبيل تحريف الكلم عن مواضعه !

وقال الامام ابن تيمية :

« ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة وسلوك وعلم في هذا فقال : كلام ابي حامد يشوقك فتسير خلفه ، ويشوقك فتسير خلفه منزلاً بعد منزل ، فاذا هو ينتهي الى لاشيء [١] ! »

واني اشارك رأي شيخ الاسلام ابن تيمية والشيخ الجليل محدثه بان كلام الغزالي ينتهي الى لاشيء ! انما ينتهي الى كل شيء ومانراه من انصار الغزالي ودارسي كتبه من انحلال وجبر وصوفية ان هو الا من آثار الغزالي وثمراته !

كيف لا وكلامه ـ كما يقول الامام ابن تيمية ـ « برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة ، ففيه فلسفة مشوبة بالاسلام ، واسلام مشوب بالفلسفة [٢] ».

لقد كان ابن تيمية يعرض بمنهج الغزالي ويلحقه بالفلاسفة ويقول في ذلك [٣] :

« والمتفلسفة يقولون القرآن جاء بالطرق الخطابيـــة والمقومات الاقناعية التي تقنع الجمهور ، ويقولون ان المتكلمين جاؤوا بالطرق الجدلية ، ويدعوا انهم هم أهل البرهان اليقيني ، وهم أبعد عن البرهان في الالهيات من المتكلمين ، والمتكلمون أعلم بالعمليات البرهانية في الآلهيات والكليات ، ولكن المتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الآلهيات ، فانهم من أجهل الناس بها ، وأبعدهم عن معرفة الحق فيها ، وكلام ارسطو

---

(١) كتاب « النبوات » ص ٩٧ ج طبعة السيد منير الدمشقي

(٢) المصدر السابق ص ٩٧

(٣) رسالة معراج الوصول في مجموعة الرسائل الكبرى

معلمهم فيها قليل، و كثير الخطأ ، فهو لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لاسهل فيرتقى ، ولاسمين فيقلى ! »

ويقول الامام ابن تيمية في كتابه « منهاج السنة » معرضاً بالغزالي:

« قول من يقول أن كلام الله يفيض على النفوس من المعاني التي تفيض، أما من العقل الفعال عند بعضهم ، وأما من غيره ، وهـذا قول الصابئة والمتفلسفة الموافقين كابن سينا وامثاله ، ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ومتكلميهم كأصحاب وحدة الوجود،وفي كلام صاحب الكتب المضنونة بها على غير أهلها ورسائله مشكاة الانوار [1] وأمثاله ، ومن دخل مع هؤلاء ماقد يشار به الى هذا ، وهو في غير ذلك من كتبه يقول ضد هذا، ولكن كلامه يوافق هؤلاء تارة ، وتارة يخالفه ! »

ثم يقول الامام ابن تيمية بعد ذلك :

« وآخر امره ـ أي الامام الغزالي ـ استقر على مخالفتهم ومطابقة الاحاديث النبوية » .

مما سلف يتبين لنا أن الامام ابن تيمية لايرى العقل وحده كافيـاً للوصول الى حقائق الدين ، بل لابد من الاستعانة بالنقل ايضاً ، ويرى أن المعتمد في ذلك على الكتاب والسنة . ومعنى هـذا أن العقل ينبغي أن يكون في ذلك تابعـاً لامتبوعاً ، ومن اعتمد على العقل وحده كان كحاطب ليل .

وقد حمل الامام ابن تيمية على الامام الغزالي واضرابه في سيره في تفسير صفات الله على التأويل كالاستواء بمجاز على الاستيلاء ، واليد عن القدرة ، والعين عن البصر .

---

(١) أي الامام الغزالي

ويقول في ذلك :

« ان جميع مافي القرآن من آيات الصفات ليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها ، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة ، وما رووه من الحديث ، ووقفت من ذلك على ماشاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار ، اكثر من مئة تفسير فلم اجد الى ساعتي هذه عن احد الصحابة انه تأول شيئاً من آيات الصفات أو احاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف [1] » .

---

(١) تفسير سورة النور لحجة الاسلام ابن تيمية ص ١٤٥

والغريب ان يحشر الاستاذ محمد ابو زهرة نفسه في هذا الخلاف بين الامامين الكبيرين فيقول في كتابه ابن تيمية (ص ٢٩٣) « بعد هذا العرض للانظار المختلفة ننتهي الى اننا لا نميل الى طريقة ابن تيمية في فهم المتشابه، لانها تفضي بنا الى توهم التشبيه والتجسيم ، وخصوصاً بالنسبة للعامة، ونرتضي بلا ريب طريقة الغزالي في تقريب الالفاظ ذلك التقريب الفكري المستقيم .

« ونرى أن تخريج كلام السلف على منهاج الغزالي اسلم، ولا نسوغ لانفسنا ان نقول متهجمين على ابن تيمية انه احق واصدق، ولكن نقول بلا ريب انه ادق وأسلم، والله سبحانه وتعالى أعلم ».

كيف نقول أسلم، وكان السلف وهم في خير القرون يرفضونه، وقد سئل الامام مالك عن الاستواء في قوله تعالى: «واستوى على العرش» الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة! ولم يعرف عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا عن أحد من اصحابه انه اول صفات الله في القرآن أو الحديث.

ومهما كان من امر التأويل، فانه عاجز عن التعبير كتأويل الاستواء بالاستيلاء، وفي ذلك نسبة العجز اليه تعالى حيث لم يكن مستولياً ثم استولى !

ان الصواب كل الصواب في اتباع مذهب السلف البعيد عن التشبيه والتعطيل، فان التأويل يؤدي الى التعطيل، والتجسيم الى التشبيه، والله - جل شأنه - منزه عن كل ذلك. ان تأويل —

لقد درس كل من الامامين الغزالي وابن تيمية الفلسفة ، ولكنهما مختلفان في الزاوية التي ينظر كل منهما فيها الى هذه الفلسفة. فالغزالي درسها ليطلب الحقيقة عن طريقها متخذاً الشك سبيله ومدعياً عدم الثقة بعلم كل من لم يدرسها فهي وحدها بنظره ميزان العلوم .

فقال في كتابه « المستصفى في علم الاصول » :

« نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان »

ـــ الصفات يؤدي الى عبادة مخلوق. واذا قال بعض المتنطعين بان القول ان لله يداً وعيناً فيه تشبيه، نقول كذلك يقال ان نسبة السمع والرؤية الى الله فيه تشبيه، وهذا لا يقول به عاقل. مادمنا نقول ان يده ـ تعالى ـ وعينه وسمعه ليست كيدنا وعيننا وسمعنا.

وقال الاستاذ ابو زهرة أيضاً في موضوع آخر من كتابه المذكور (ص ٢٧٠) بعد أن ساق كلاماً للامام ابن تيمية في النهي عن التأويل فيقول: «هذا كلام ابن تيمية بنصه ولا تتسع عقولنا لادراك الجمع بين الاشارة الحسية بالاصابع والاقرار بانه في السماء ، وأنه يستوي على العرش، وبين التنزيه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث .

« وان التأويل بلا شك في هذا يقرب العقيدة الى المدارك البشرية، ولا يصح ان يكلف الناس مالا يطيقون. واذا كان ابن تيمية قد اتسع عقله، للجمع بين الاشارة الحسية وعدم الحلول في مكان، او التنزيه المطلق، فعقول الناس لا تصل الى سعة افقه ان كان كلامه مستقيماً».

وتعليقاً على كلام ابي زهرة نقول اذا كان عقله لا يتسع لما قاله، فقد اتسع له عقل جارية مسترقة لما سألها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اين الله؟ فقالت: هو في السماء. واشارت باصبعها (اي في العلو المطلق) فشهد الرسول بايمانها.

وأما قول ابي زهرة ايضاً «ان التأويل بلا شك في هذا يقرب العقيدة الى المدارك البشرية. ولا يصح ان يكلف الناس مالا يطيقون...» فكلامه هراء، وقد كان عليه السلام لا يكلف الناس مالا يطيقون، مع ذلك لم يؤول هو ولا احد من اصحابه. والحقيقة ان التأويل هو الذي لا تحتمله العقول، فتسلم بما انزل الله على رسول الله دون تأويل ولا تشبيه، فمن اول فقد عبد عدماً ومن شبه فقد عبد صنماً! وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف !

ونذكر شرط الحد الحقيقي ، وشرط البرهان الحقيقي ، واقسامها على منهاج أو جزء مما ذكرناه في كتاب محك النظر ، و كتاب معيار العلم ، وليست هذه المقدمة من جملة علم الاصول ، ولا من مقدماته الخاصة به ، بل هي مقدمة العلوم كلها ، ومن لايحيط بها فلا ثقة معلومة أصلاً [1]» .

وهذا بخلاف حجة الاسلام ابن تيمية ، فقد درس الفلسفة ليبين ضلال ما يعارض الدين منها ، فهو لم يتخذ الشك سبيله ، بل أنه آمن بما جاء من عند الله على لسان رسوله محطماً ما جاء في الفلسفة معارضاً له ، فأبعد عن العقل الاوهام الفلسفية ، ليقبل على الشريعة الاسلامية حسب فطرته وعدم معارضته لصحيح المنقول ، ويقول ابن تيمية بهذه المناسبة :

« لما كان بيان مراد الرسول ﷺ في هذه الابواب لايتم الا بدفع المعارض العقلي ، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الانبياء ، بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله ، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، اذ كان أي دليل اقيم على بيان مراد الرسول لاينفع اذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه ، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول ، وقدحاً فيمن استدل بكلامه ، وصار هذا بمنزلة المريض الذي تكون به اخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء ، فلاينفعه مع وجود هذه الاخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء ، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات او بعضها ، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيه ، أو امتناع المعاد أو غير ذلك لاينفعه

---

(١) مقدمة المستصفى ج١ ص ١٠

الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة ، الا مع بيان فساد ذلك المعارض وفساد المعارض قد يعلم جملة وتفصيلا [1] » .

مما تقدم يظهر الفرق واضحاً بين الامامين الغزالي وابن تيمية في مبلغ رسوخهما في الدين وحجتها البالغة ، لذا قال ابوبكر الرازي عن الغزالي «أنه دخل في بطن الفلسفة ، ولما اراد الخروج منها لم يستطع ! ! » .

وكذلك قال عنه الامام ابن تيمية وقد أنصفه في كثير من المواضع :

« كان أبو حامد (الغزالي) مع مايوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة ، وتكفيره لهم ، وتعظيم النبوة وغير ذلك ، ومع مايوجد فيه من أشياء صحيحة حسنة ، بل عظيمة القدر نافعة ، يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وامور اضيفت توافق اصول الفلاسفة المخالفة للنبوة ! بل المخالفة لصريح المعقول ! ، حتى تكلم فيه جماعات من علماء [2] خراسان والعراق والمغرب [3] » .

وقال الامام ابن تيمية عن الغزالي أيضاً :

« وأبو حامد لايوافق المتفلسفة على مايقولون ، بل يكفرهم ويضللهم في موضع ، وان كان في الكتب المضافة اليه ماقد يوافق بعض اصولهم ، بل في الكتب التي يقال بأنها مضنون بها على غير أهلها ماهو فلسفة محضة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى ! وان كان قد عبر عنها بعبارات اسلامية ، لكن هذه الكتب في الناس من يقول انها مكذوبة على أبي

---

(١) عن كتاب « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » .

(٢) وعمدوا الى حرق بعض كتبه لهذه الاسباب

(٣) شرح العقيدة الاصفهانية للامام ابن تيمية ص ١١٥ .

حامد ، ومنهم من يقول : بل رجع عنها ، ولا ريب أنه صرح في بعض المواضع ببعض ماقاله في هذه الكتب ، وأخبر في المنقذ من الضلال ، وغيره من كتبه بما في هذه من الضلال [1]».

وينقل الامام ابن تيمية عن ابي عبدالله المازري الفقيه المتكلم فيقول:

قال ابن المازري :

« ووجدت هذا الغزالي يقول على ابن سينا في اكثر مايشير اليه في علوم الفلسفة ، حتى انه في بعض الاحايين ينقل نص كلامه من غير تغيير ، وأحيانا يغيره ، وينقله الى الشرعيات اكثر مما نقل ابن سينا ، لكونه أعلم باسرار الشرع منه ، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل اخوان الصفا [2] عول الغزالي في علم الفلسفة [3]» .

قال الاستاذ محمد أبو زهرة الاستاذ في كلية الشريعة في جامعة القاهرة [4]:

« من هذا يتبين كيف عجز الغزالي نفسه في الفلسفة ولم يستطع الخروج منها ! لانه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها فكانت نيته في الطلب سبباً في أن أحاط به غمارها ، وكان يعيش في اطارها . فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي . ففلسف الشريعة، أو ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشعر أو لا يشعر .

---

(١) المصدر السابق ص٤٩

(٢) اخوان الصفا جمعية سياسية باطنية ظهرت في القرن العاشر الميلادي زعمت انها ترمي الى سعادة النفس ، كان لها نزعة فلسفية مقتبسة من اليونان والهند وفارس . ولاخوان الصفا كثير من الرسائل في مباحث مختلفة.

(٣) شرح العقيدة الاصفهانية ص ١١٥

(٤) في كتاب « ابن تيمية» ص٢٣٩

« أما ابن تيمية فقد طلبها ليهدمها، فكان يقرؤها ويفهمها . وهو في غير محيطها ، ولم ينغمر في غمارها وشدد النكير على الغزالي في منهاجه، وأخذ يتتبع هفواته ويتقصى هناته . ولقد كان يرى أن علم الشرع من النبوة وحدها ، سواء في ذلك اصول العقيدة وفروع الفقه والاحكام العلمية . لان النبوة جاءت بكل ذلك ، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ولا طريق سواه، ويرى أن اولئك الذين يصنعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية ويجعلون ماجاء في القرآن يسير على منهاجها ، فيؤولون صريحه ليوافقها، انما يجعلون علم العقل فوق علم النبوة . ويقول في ذلك : « ويقـدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم . وان النظر يوجب العلم وانه واجب، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل . ثم اذا صاروا الى ماهو الاصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الاعراض على حدوث الاجسام وهو دليل مبتدع في الشرع[1] ».

« وينتقد ابن تيمية هؤلاء ، لأنهم يقدمون عند دراستهم لما جاءت به النبوة تلك الدراسة العقلية عليها ثم يحكمون على الاوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها ويوجهونها بتوجيهها ، فما يوافقها اقروه كما ورد ، ومالم يوافقها وجهوه على اتجاهها ، وأولوه بتأويلها، ثم هم في هذا السبيل لم يلتفتوا الى السنة ولم يعلموا أنها شارحة الكتاب ، مبينة لكل ماجاء فيه وانهـا الطريق الوحيد لتفسيره .

« ينقد ابن تيميـة ذلك المسلك ، لأنه يجعل الحاكم محكوماً : فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكمة بها خاضعة ».

نقد المنطق

حمل الامام ابن تيمية على منطق ارسطو حملة شديدة في كتابـه

(1) معارج الوصول ص ٤ من مجموعة رسائل لابن تيمية طبعة الخانجي

« نقض المنطق » وسخر من الذين يقولون أنه لابراهين الا مايكون المنطق دليلها وطريقها . لما في ذلك من غمز بالصحابة والتابعين الذين يعتبرهم المناطقة علومهم ظنية لانهم كانوا جاهلين بالمنطق ! ولم يحاولوا تأويل الصفات في القرآن .

فأخذ الامام ابن تيمية يثبت للملأ أن المنطق من علوم الصابئة ، وهو دخيل على العلوم الاسلامية ، ولام الغزالي لتصريحه بوجوب اتخاذ المنطق ميزاناً للعلوم مع أن الفقهاء من قبله كانوا ينظرون اليه نظرة بغض

يقول ابن الصلاح عن المصطلحات الفلسفية والمنطقية : « ان هذا من المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالاحكام الشرعية افتقار الى المنطق أصلاً، وما يزعمه المنطقي بالمنطق من أمر الحدوالبرهان فقاقيع قد اغنى الله عنها كل صحيح الذهن ، ولاسيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ، ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لامنطق ولافلسفة ولافلاسفة ، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها،فقد خدعه الشيطان[1] » .

وينقل الامام ابن تيمية بعد قراره فتوى ابن الصلاح، استنكار العلماء لما جاء في مقدمة « المستصفى » للغزالي ، فقد اعتبر المنطق ميزان جميع العلوم وعممه في جميع علوم الدين ، ثم يقول الامام ابن تيمية :

« يحكي عن يوسف الدمشقي مدرس المدرسة النظامية ببغداد ، وكان من النظار المعروفين انه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فابوبكر وعمر وفلان وفلان يعني ان اولئك السادة عظمت حظوظهم من الثلج

---

(١) «فتاوى ابن الصلاح » ص٣٥ ؛

واليقين ولم يحيطوا بهذه المقدمة واسبابها، قال الشيخ ابوعمرو وقدذكرت بهذا ماحكى صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة (ابو حيان التوحيدي) ان الوزير ابن الفرات احتفل مجلسه ببغداد باصناف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم، وفي المجلس متى الفيلسوف النصراني ، فقال الوزير : اريد أن ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في قوله انه لاسبيل الى معرفة الحق من الباطل والحجة من الشبهة والشك من اليقين الابما حويناه من المنطق ، واستفدناه من واضعه على مراتبه ، فانتدب أبو سعيد السيرافي ، وكان فاضلا، وكلمه في ذلك حتى افحمه[1] » .

نكتفي بهذا القدر من بيان مبلغ ابتعاد الامام الغزالي عن الاسلام الصحيح بنظر الامام ابن تيمية وبنظر الحق ، وليس شيخ الاسلام وحده الذي انبرى له بالنقد والتجريح ، فهناك علماء فحول غيره امثال ابن رشد وابن الجوزي[2] في كتابيه «تلبيس ابليس » و « صيد الخاطر» .

لهذا كله نرى أنه لم يعد يستحق لقب حجـــة الاسلام ، وان كان لايزال خليقاً بلقب حجة المسلمين المقلدين والمبتدعة المستسلمين الذين يعرفون الحق من الرجال ، لا الرجال من الحق !

وليس غرضنا الحط من قـــدر الامام الغزالي ، فهو الآن في عالم استوى لديه فيه الثناء والذم ، انما غرضنـا تحذير المسلمين من الوقوع في أخطائه وحض العوام وطلاب العلم على عدم دراسة كتبه التي اختلط فيها

---

(١) « العقيدة الاصفهانية » ص ١١٦

(٢) راجع كتابنا الذي صدر مؤخراً بعنوان الامام الغزالي في ميزان : ابن تيمية وابن الجوزي

– كالأحياء مثلا – الشر القليل بالخير الكثير ، قبل التعمق في معرفة الاسلام الصحيح ، وتمييز الحق من الباطل.

ان لقب حجة الاسلام[1] جدير بالامام ابن تيمية لما عرفنا من سعة علمه وفضله وجهاده ، فهو مجدد القرن الثامن الهجري الذي اخبر عنه النبي ﷺ بقوله « ان الله يبعث على رأس مئة كل عام من يجدد لهذه الامة أمر دينها » . فقد ولد عام ٦٦١ ﻫ وتوفي في عام ٧٢٨ ﻫ ، ولا يصدق هذا الحديث بالامام الغزالي المولود عام ٤٥٠ ﻫ والمتوفى عام ٥٠٥ ﻫ .

والقصد من التجديد في الحديث الشريف دعوة المسلمين الى النبع الاسلام الصافي الاول وتطهيره مما لحق به من البدع ، وقد قام حجة الاسلام ابن تيمية بهذا الدور خير قيام ، بعكس الامام الغزالي الذي خالف أهل السنة في كثير من الامور ذكرنا بعضها ونذكر فيما يلي بعضها الآخر :

١ – اعتناقه مذهب الاشاعرة وفيه الجبر الكثير والقول بتكليف مالا يطاق .

٢ – دعوته الى التصوف البعيد عن روح الاسلام الصحيح.

٣ – انكاره السببية وتعطيله بذلك الحكمة من ايجاد الكائنات .

٤ – قوله بعلم الشريعة وعلم الحقيقة « فيسمي دين الله شريعة ، ويسمي الأساطير الباطلة حقيقة ، أو يسمي المعاني الحقيقية بكلمات الله : ظاهراً ، ويسمي مايفتريه من معاني باطلة لهذه الكلمات: باطنا » وبهذا يفسد العقيدة والفكر والاخلاق.

٥ – ادعاؤه بامكان الوصول الى الحاسة الدينية وهي ماتعرف

---

(١) بمعنى حجة المسلمين ، فليس للاسلام حجة الا كتاب الله تعالى وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم –

بالكشف والذوق عن طريق الخلوة [1] والاذكار المبتدعة ، ولو صحت نتائج هذه الحاسة لـكانت اوصلت الغزالي الى التمييز بـين الاحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة التي جاءت في كتبه وخاصة الأحياءمنها .

---

(١) حدثت قضية طريفة في مهرجان الغزالي الذي اقيم بدمشق في شهر شوال ١٣٨٠ ﻫ وفق آذار ١٩٦١ م نرويها للتفكهة والعبرة وملخصها أن أحد المحاضرين تحدث عن الغزالي بدمشق وعن خلوته في زاوية في احدى منارات الجامع الاموي عرفت فيما بعد بالزاوية الغزالية .

وبعد الظهر من اليوم نفسه كان دور المناقشة ، فقام الدكتور عبد الرحمن بدوي الوجودي المعروف في الاقليم الجنوبي - الاستاذ بجامعة عين شمس - وعلق على المحاضرة المذكورة بقوله : انني الآن جئت من الجامع الاموي وصعدت المنارة الى آخرها بدرجها الطويل ، فلم اجد مكاناً يمكن للغزالي ان يخلو به بنفسه . ورد عليه بعضهم بأن المنارة تهدمت بحريق الاموي ، وقد كان فيها مكان لخلوة الغزالي .

وقد ادهشنا الاستاذ عبد الرحمن بدوي بتحقيقه فيما لا طائل وراءه ، وقد كنا نود ان نرد عليه ، ولكن حال ضيق وقت المناقشة دون ذلك ، فنثبت فيما يلي ما كنا نريد ان نقوله له :

« ليت الاستاذ بدوي بدلا من اضاعة وقته في التحقيق التجريبي لمعرفة موضع خلوة الغزالي - غير الشرعية - قدم للملأ تحقيقاً عن نتائج المذهب الوجودي ، وما أدى اليه من اباحية وانهيار خلقي مريع .

كيف لا تكون له هذه النتائج الهدامة وامامه الدكتور بدوي يقول في رسالة صدرت بالقاهرة عام ١٩٥٣ بعنوان « هل يمكن قيام اخلاق وجودية » :

« الوجودي الحق .. اعدى اعدائه القانون ، انه الحرية نفسها .. فلا معنى للواجب في عالمها . ولا تقييد لدى انطباعها وانطلاقها ، انه الفعل الدائم أيا كان نوعه ونتائجه ، فان معاني الاثم والصواب كلها لا مفهوم لها في هذا الباب .

« أننا معاشر الوجوديين لا نريد أن ننساق في احلام البراءة والبكارة والطهارة ، بل نصيح ملء فينا : افعلوا افعلوا ! حتى لو أدى ذلك الى الخطأ !! .. »

النصير الطوسي وابن العلقمي وابن تيمية

قال الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار : [1]

وقفت على ما كتبه زميلنا العلامة الشيخ سليمان ظاهر بعنوان : (نصير الدين الطوسي الحكيم الرياضي الفلكي) ومدار بحثه على ان النصير امامي اثنا عشري ، لانصيري ولا اسماعيلي ، كما يرى ابن تيمية في رسالته التي يرد بها على النصيرية .

ومن حجته في ذلك أنه ألف في أصول المذهب الامامي وفروعه،

– وسرعان ما كان لنداء وفلسفة الاستاذ بدوي صداها في الشباب الطائش الاحمق ، فاعلن تلميذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة التصريح الآتي الذي نشرته جريدة «الجمهورية» مقروناً باسمه ومستنكرة جريمته قال : « ... أنا اؤمن بالوجودية وشعاري سأعلم ابني كيف يصبح بلطجيا ، وابنتي كيف تصبح فاجرة ان شاءت ! »

اننا نقسم ان المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ومعسكر الشياطين لو اجتمعوا بعضهم لبعض ظهيراً لهدم كيان هذه الامة، لما استطاعوا باكثر مما يقوم به الاساتذة الوجوديون وامثالهم من الاباحيين والملاحدة. وهكذا لم تعد الصليبية الحديثة تحاربنا بالسلاح ، بل بابنائنا !

اننا جد آسفون لهذا الاستطراد في الكلام على الوجودية . ولنا بعض العذر في ذلك ، ان الوجودية والصوفية الحلولية مدار بحثنا تكاد ان تكونان صنوين متشابهين في الاباحية نتيجة عقيدة وحدة الوجود والحلولية، ألم يكن الصوفي العفيف التلمساني لايحرم فرجا ويبيح نكاح الام والاخت ويقول لمن اعترض عليه : انت محجوب ! (راجع كتاب « مصرع التصوف» ص١٦٧) .

(١) «حياة شيخ الاسلام ابن تيمية» للاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار ص١٨٦

وأنه مدفون بمشهد الامام الكاظم موسى بن جعفر الصادق، (الذي تنكر امامته الاسماعيلية الآغاخانية والبهرة ويرونها محصورة في اسماعيل أو ولده الحبيب) .

وأجاب بأنه كان مكرها على صلته بهولاكو حفيد جنكيز التتري، وصحبته له، كما كان مكرها من زعيم الاسماعيلية ركن الدين على المقام معه في قلعته برتبة الوزير والمشير، وكان له من هولاكو مثل هذه الرتبة.

قال الاستاذ (الظاهر) « أما ما كان للنصير من أثر مبرور، وعمل مشكور، في هذه الصحبة بانقاذ من أنقذه من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم فقد بلغ عشرات الالوف، وما استبقى عليه من الثروة العلمية وكتبها المعرضة للحريق والغرق، فقد بلغت مئات الألوف (قال:) وأما ما خدم به علم الافلاك فحسبه ابتناؤه قبة ورصداً عظيما في مراغة، وقد ولاه هولاكو جميع الأوقاف في سائر بلاده ».

ونقل عن شمس الدين العرضي أن نصير الدين أخذ من هولاكو بسبب عمارة هذا الرصد ما لا يحصيه الا الله تعالى خارجا عن الجوامك (الرواتب) التي للحكماء والقومة .

ثم قال : فأنت ترى من هذا العرض القليل من مآثر النصير التي ما كان يتوقع تحقيق جزء منها لولا صحبته واستيزاره لهولاكو اللذان كانا للمسلمين رحمة لا نقمة، وخيراً لا شراً .

ثم عجب لما ذهب اليه ابن تيمية من خلاف هذا، فقال : « وان من العجيب أن نرى الامام العلامة ابن تيمية وهو معاصره، وممن لا يتعذر عليه تمحيص الحقائق، فلا يبخسه حقه ..

فيقول فيه في رسالته الرد على النصيرية « ثم ان التتار ما دخلوا بلاد

الاسلام ، وقتلوا خليفة بغداد وغـيره من ملوك المسلمين الا بمعاونتهم ومؤازرتهم ، فان مرجع هؤلاء الذين كان وزيرهم وهو النصير الطوسي ، كان وزيراً لهم بالألموت وهو الذي أمر بقتل الخليفة !!».

قال الزميل (الكريم): ومن يقابل ماعزاه الامام ابن تيمية الى النصير. بما كتبه العلامة محمد بن شاكر بن احمـد الكتبي المتوفي ٧٦٤ قبل وفاة النصير بثمان سنين بكتابه « فوات الوفيات» يجد أن الكتبي وقـد تأخر عصره عن عصر ابن تيمية ستا وثلاثين سنة ـ كان ما كتبه وقد سكنت العاصفة ... هو المعقول وهو الأحق بالاتباع وببراءة النصير مما عزي اليه، وهو ما لم يعرض له الكتبي بقليل أو كثير.

وأخـيراً عزا الاستاذ سقوط الخلافـة العباسية الى لهو الخليفـة المستعصم ولعبه ، وكلفه بسماع الاغاني وطربه، ناقلا ذلك عن المؤرخ ابن الطقطقي في كتابه : « الفخري في الآداب السلطانية ، الى قوله : وكان أصحابه مستولين عليه، وكلهم جهال من أراذل العوام، الا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي، فانه كان من أعيان الناس ! وعقلاء الرجال!! وكان مكفوف اليد مردود القول ، يترقب العزل والقبض صباح مساء».

وختم الزميل الاستاذ مقاله بان الحافز له الى هذا البحث هو عزو البحاثة العزاوي النصير الطوسي الى الفرقة الاسماعيلية قال : وكأنه تابع ابن تيمية في ذلك ، والنصير من أقطاب علماء الامامية كما أوضحناه (قال:) وللكاتب الشكر على تنبيهنا بمقاله الممتع على دفع تلك الشبهة ، ودحض ما حام حول النصير من التهم في سقوط الخلافة العباسية ، وهو منها بريء والحق أحق بالاتباع . ا هـ

وهنا يجول في الخاطر أمور ، أرى لزاماً علي أن أوجه اليها نظر الاستاذ العزيز ، ولو بالكلم الوجيز فأقول :

١ — انه سها بجعله وفاة ابن شاكر الكتبي قبل وفاة النصير الطوسي بثمان سنين ، لأن النصير توفي سنة ٦٧٢ ﻫ وصاحب (الفوات) سنة ٧٦٤ ﻫ فيكون توفي بعده ب (٩٢) عاماً لاقبله بثمان سنين ! .

٢ — لما توفي النصير كان لابن تيمية أحد عشر عاماً ، اذ ولادته كانت سنة ٦٦١ فهو لم يعاصره معاصرة صحبة ولا مكاتبة .

٣ — استطرد عند ذكر موسى الكاظم الى الاسماعيلية الآغاخانية والبهرة ومن الاسماعيلية من ليسوا باطنية ولا حلولية ، فما معنى التقييد (بالآغاخانية) وهم وزعيمهم من رأينا وعرفنا ؟ ومثلهم البهرة في الهند ؟

٤ — لم ينفرد الامام ابن تيمية بما ذكره من أمر النصير الطوسي ، بل كتب التاريخ قد صرحت بهذا ، واني ابدأ منها بما صرح به ميرزا محمد باقر الموسوي المؤرخ الشيعي في تاريخه (روضات الجنات) عن النصير الطوسي في ترجمته له ، قال مانصه :

« ومن جملة امره المشهور والمعروف والمنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم ! في محروسة ايران هولاكوخان بن تولي خان بن جنكيز خان من عظماء سلاطين التاتارية وأتراك المغول ، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد ، الى دار السلام بغداد ، لارشاد العباد ! واصلاح البلاد وقطع دابر سلسلة البغي والفساد ! واخماد ثائرة الجور والالباس ، بابداد دائرة ملك بنى العباس ، وايقاع القتل العام ، من اتباع أولئك الطغام ، الى أن أسال من دمائهم الاقذار ! كأمثال الانهار فانهار ، بها في ماء دجلة ومنها الى نار جهنم ! دار البوار ، ومحل الاشقياء الاشرار ! وقد كفينا مؤونة

تفصيل هذه الواقعة المشتهرة، بما رسمه أرباب التواريخ المعتبرة، في أحوال السلاطين المغولية المستطرة . اه

هذا ما قاله هذا المؤرخ الشيعي والظاهر أن اصلاح الحال (بنظره)، هو بالابادة والاستئصال ! ! وهذه شماتة ظاهرة في الدنيا والآخرة، والى الله المصير!

وقال المؤرخ السبكي في الطبقات : « وأما الخليفة فقيل أنه (أي هولاكو) طلبه ليلا، وسأله عن أشياء، ثم أمر به ليقتل، فقيل لهولاكو أن هذا ان أريق دمه تظلم الدنيا، ويكون سبب خراب ديارك، فانه ابن عم رسول الله ﷺ ، فقام الشيطان المبين ، نصير الدين الطوسي وقال : يقتل ولا يراق دمه ، وكان النصير من أشد الناس على المسلمين » .

وبعد أن قتلوا الخليفة والامراء عن آخرهم ، «مدوا الجسر وبذلوا السيف ببغداد ، واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوما ، ولم ينج الامن أختفى .. « ثم حفرت الدور وأخذت الدفائن والاموال التي لاتعد ولا تحصى .. « فألزم المسلمون بالفطر في رمضان وأكل الخنزير وشرب الخمر!!.. « وأعطى دار الخليفة لشخص من النصارى ، وأريقت الخمور في المساجد والجوامع!! ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، هذه بغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذي لم يقع قط من منذ قامت الدنيا مثله » اه .

فأين من أنقذه النصير من سيف هذا الظلم بعد هذا القتل العام الذي أجراه في دار السلام؟! وهل ما أخذه من هولاكو من المال الذي لايحصيه الا الله تعالى ـ بسبب عمارة الرصد ـ خارجاً عن الجوامك (الرواتب)

التي للحكماء والقومة ، ـ هل هو الا من الأموال التي نهبها هولاكو (بعد التقتيل العام) وهي لاتعد ولا تحصى؟ فأين عـدل الفلاسفة وحكمتهم ؟ وأين نصحهم لهولاكو وتأثيره؟ ؟ وهل الكتب التي استبقاهـا النصير ـ وقد بلغت مئات الألوف ـ الا من المنهوبات أيضاً كالأموال؟!ـ ولو نقل الاستاذ عن ابن شاكر في فواته ، كما نقل عنه الاستاذ الزركلي في أعلامه وسركيس في معجمه ، لظهر الحق للعيان ،وتبينت الاساءة من الاحسان!!

ففي (ج٣ص٩٧٤) من الأعلام : « واتخذ خزانة عظيمة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة ، اجتمع فيها نحو أربعمائة الف مجلد» ومثلها في معجم سركيس (ص ١٢٥٠) وانظر(ص١٤٩ج ٢) فالاستاذ لم يصرح بأنها من المنهوبات ، أو بأنها أمانة بيد الطوسي ومن معه ، يجب ردها الى أهلها .

وأين هذا مما نشرناه في مجلة المجمع العلمي تحت عنوان شجاعة الامام (ابن تيمية) وغيرته على الدين والوطن وهو : « أراد ملك الكرج أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين ، ويسبي ذراريهم ونساءهم ، فبـذل المسلطان غازان ـ وهو اول من أسلم من ملوك المغول ـ أموالاً طائلة على أن يمكنه منهم ، فلما اتصل الخبر بالامام قام من فوره ، وانتدب رجالاً من الوجوه والكبراء وذوي الأحلام الرجيحة... بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله تعالى ما أراد ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهليهم ، وحفظ حريمهم ، ولما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فقال : كيف آكل من طعـامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟ ؟ ومن مساعيه المشكورة في خدمة أبناء الملل السماوية ، وسعيه في اطلاق

اسرى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، واصراره على ذلك ، ولم يرض باطلاق أسارى المسلمين فقط :

اذا اشتبكت دموع في خدود   تبين من بكى ممن تباكى !

سقوط الخلافة العباسية على يد الوزير ابن العلقمي

نقل الاستاذ الزميل قول من قال في وصف أصحاب الخليفة المستعصم :

« وكلهم جهال من أراذل العوام (قال) الا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي ، فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال ! ! وكان مكفوف اليد» وأراني مضطراً أن أذكر ما أغفله الزميل من كتب التاريخ حفظاً للحقيقة أن تضيع قال الاسحاقي في تاريخه أخبار الاول (ص١٠٨) :
وكان سبب زوالها ـ أي الخلافة العباسية ـ استيلاء مماليكهم وأمرائهم عليهم ، وتفويض أمور المملكة اليهم ، وامتهانهم غاية الامتهان ، الى ان صاروا أسماء بلا مسميات ، وصوراً هيولى يتصرف فيها بالمحو والاثبات ، ومن أعظم أسباب زوالها أن مؤيد الدين العلقمي كان وزير المستعصم ، وكان رافضياً مستولياً على المستعصم عدواً له ولأهل السنة !! يداريهم في الظاهر وينافقهم في الباطن ! وكان يريد ازالة الخلافة من بني العباس واعادتها الى العلويين .. وصار يكاتب هولاكو ويطمعه في ملك بغداد !! ويطالعه باخبارها ، ويعلمه كيفية أخذها ، ويخبره بضعف الخليفة وانحلال العسكر عنه ! وصار الوزير يحسن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف على العسكر ، فقطع أرزاقهم وشتت شملهم ! بحيث انه أذن مرة لعشرين الف مقاتل ان يذهبوا الى اين ارادوا ، ووفر علوفاتهم في الخزينة ، وأظهر للمستعصم انه وفر من علوفات العسكر اموالاً عظيمة في بيت المال ،

فأعجب المستعصم رأيه ، وكان يحب المال ويجمعه ، وما كان يعلم انه يجمعه لعدوه :

يخبركم انه ناصح   وفي نصحه ذنب العقرب !!

الى أن قال (ص:١١) : ثم ان المستعصم ومن معه لم يزل في غفلته لاخفاء ابن العلقمي سائر الاخبار عنه الى أن وصل هولاكو الى بلاد العراق واستأصل من بها، وتوجه الى بغداد،فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور، وندم على فعلته حيث لاينفعه الندم ، وجمع من قدر عليه وبرز الى قتال هولاكو ، فوقع المصاف والتحم القتال ، ووقع الطراد والنزال، واستمر من اقبال الفجر الى ادبار النهار » ، الى آخر ما قال .

وانقل هنا ماسجله في كتابه الاسلام والحضارة العربية، رئيس مجمعنا السابق الاستاذ كرد علي رحمه الله ، فكتابه جامع التواريخ وخلاصتها، وقوله فصل في مثل هذه النوازل وأسبابها ،قال (ص٣٠٢ج١):

وبينما كانت في هذا الشرق القريب تتألف كتلة صغيرة تدفع الصليبيين عن سرة بلاد الاسلام مصر والشام فتخرب مدن وحصون ، وتدك معالم وجوامع كان جنكيز - يخرب في اواسط آسيا وبلاد المسلمين، ولم تكد تدفع الشام عنها عادية الحروب الصليبية حتى جاء هولاكو بغداد - يخربها ويقتل الخليفة المستعصم . ويقضي على جلة الفقهاء ورجال الدولة ويضع السيف في دار السلام [1] اربعين يوماً ويستخرج الاموال والتحف بأنواع

---

(١) «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، في المائة السابعة» لابن الفوطي

العذاب، ويحرق معظم تلك المدينة الساحرة،وزادت عدة القتلى عن ثمانمائة الف،عدا الاطفال ومن هلكوا في المراديب والقنى والآبار،واحرق قبور الخلفاء ونبش عظامهم! وبنى بكتب العلماء اصطبلات الخيول! وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن . وقيل ان ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه التتر من الكتب والاوراق! وقيل انه اقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة !

هذا عدا مانهب من البلاد التي احتلها فملأ في مراغة خزانة عظيمة من الاسفار نهبها من بغداد والشام والجزيرة،حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة الف [1] مجلد .

(قال) ومن أعظم البلاء في القضاء على الخلافة العباسية بدارالسلام أن الرافضة عاونوا [2] هولاكو على المسلمين لما جاء خراسان والعراق والشام، كما كانوا عاونوا جده جنكيز ، قال ابن تيمية : وكان العلقمي وزير الخليفةمنهم ،فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين، ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم ،وينهى العامة عن قتالهم ، ويكيد أنواعاًمن الكيد حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين مايقال انه بضعة عشر الف الف انسان! [3] او أكثر او اقل ،ولم يرد في الاسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر . ا هـ

قلت : فأين كان النصير الطوسي،وما ذا عمل فيهذه المذابح العامة،

---

(١) فوات الوفيات للكتبي

(٢) منهاج السنة لابن تيمية

(٣) اي مجموع ماقتله التتر

وأين ما كان له (من أثر مبرور ، وعمل مشكور في هذه الصحبة بانقاذ من أنقذه من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم ، فقد بلغ عشرات الألوف) وماندري من أين نفحه الزميل الكريم هذه المبرة ، وهو وزير الكفرة الفجرة ونصيرهم على الاسلام وأهله، وقد رأينا له مأثرة لم يذكرها الاستاذ لأنها مزرية بالحكماء ، وهي من ترجمتـــه في فوات الوفيات ، ومجملها أن هولاكو غضب على علاء الدين الجويني صاحب الديوان فأمر بقتله ، فتوجه النصير وبيده عكاز وسبحة ثم اصطرلاب ، وخلفه من يحمل مبخرة وبخوراً وناراً ، فرآه خاصة هولاكو فأخبروه، فأدخل عليه فأشار النصيرعليه باطلاق من في الاعتقال والعفو عمن له جناية، فأمر هولاكو بذلك خوفاً على ملكه ، وانطلق صاحب الديوان في جملة الناس « ولم يذكره النصير الطوسي ، وهذا غاية في الدهاء ، بلغ بــه مقصده ودفع عن الناس أذاهم » قلت هذه المسألة شخصية لم يرد بهـــا الوزير النصير غير علاء الدين ، وهو زميله ، ولو استطاع تخليصه وحــده بأية وسيلة ، لما أجرى هذه الحيلة ، ثم أليس في العفو عن أصحاب الجنايات مضيعة لحقوق المجنى عليهم ؟

ونختم القول بكلمة كاشفة عن مراد ابن تيمية في وصفه للنصير – في رده على النصيرية – بما وصفه به ، نوردها بلسان تلميذه الامام ابن القيم ، قال في اغاثة اللهفان الكبرى [1] :

ولما انتهت النوبـــة الى ... النصير الطوسي وزير هولاكو ، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه ، فعرضهم على السيف ، حتى شفا

---

(1) ص ٢٦٧

اخوانه من الملاحدة ، واشتفى هو ، فقتل الخليفة [١] والقضاة والفقهاء والمحدثين ، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة ، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط اليهم وجعلهم خاصته وأولياءه . (الى أن قال) :

وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه (المصارعة) أبطل فيه قوله بقدم العالم وانكار المعاد ، ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم ، فقام له نصير الالحاد وقعد ، ونقضه بكتاب سماه « مصارعة المصارعة » ووقفنا على الكتابين ـ نصر فيه (أي النصير) أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأنه لايعلم شيئاً ، وأنه لايفعل شيئاً بقدرته واختياره ، ولايبعث من في القبور » اهـ .

ومن أخف ما قيل في النصير ما جاء في مفتاح السعادة (ج١ ص٢٦١) : الا أنه تجاوز الله عنه ، كان غالياً في التشيع ، كما يفصح عنه المقصد السادس في التجريد . وكان يحكى عنه مع ذلك أمور لاتناسب رتبته في العلم حيث كان في معنى الوزير للكافر المسمى بهولاكو ملك الترك الطغاة ، وهو الذي أغار على بلاد المسلمين وخربها وانقطعت بسببه سلسلة الخلافة العباسية في بغداد ، وجرى ماجرى مما اشتهر أمره ويطول شرحه » .

وجملة القول : ان اصرح ما قرأناه في ترجمة النصير وعقيدته هو كلام ميرزا محمد الباقر صاحب روضات الجنات المؤرخ الاصفهاني . فالله أعلم بحقيقة حاله ومآله.

---

(١) علق الاستاذ المصحح على هذا بما محصله ان التتار الذين دخلوا بغداد هم الذين قتلوا الخليفة بمالاة ابن العلقمي وزير المستعصم ، وكان النصير الطوسي قاضي التتار ومشيرهم.

سبب موت الحسن وشهادة الحسين

لما كان شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ يسعى لدعم الوحدة الاسلامية على أساس من التفاهم متين، لذلك تحدث عن فتنة الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ بشيء من التفصيل، بغية ازالة سوء التفاهم بين المسلمين [1] :

قال الباطني المردود عليه :

« وشتم معاوية الحسن » فهذا قيل ولم يثبت . فيقال : ان امرأته سمته، وكان مطلاقاً رضي الله عنه فلعلها سمته لغرض . والله أعلم بحقيقة الحال . وقد قيل أن أباها الاشعث بن قيس أمرها بذلك، فانه كان يتهم بالانحراف في الباطن عن علي وابنه الحسن. واذا قيل أن معاوية أمر أباها كان هذا ظناً محضاً، والنبي ﷺ قال «اياكم والظن، فان الظن اكذب الحديث ». وبالجملة فمثل هذا لايحكم به في الشرع باتفاق المسلمين، فلا يترتب عليه أمر ظاهر لامدح ولا ذم، ثم أن الاشعث بن قيس مات سنة أربعين، وقيل سنة احدى واربعين، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي في العام الذي كان يسمى عام الجماعة، وهو عام احدى واربعين. وكان الاشعث حما الحسن بن علي، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك . واذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر ابنته ؟

---

(١) المنتقى وهو مختصر منهاج السنة للامام الذهبي ص ٢٦٦ و ٢٦٧ بقليل من الاختصار .

وأما يزيد فلم يأمر بقتل الحسين (باتفاق أهل النقل)، ولكن كتب الى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق ، والحسين ــ رضي الله عنه ــ كان يظن أن أهل العراق ينصرونه ويوفون له بما كتبوا اليه [1] فارسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ، فلما قتلوا مسلماً وغدروا بــه وبايعوا ابن زياد اراد الرجوع فادركته السرية الظالمة ، فطلب أن يذهب الى يزيد أو يذهب الى الثغر ، أو يرجع الى بلده ، فلم يمكنوه من ذلك حتى يستأمرهم. ولكنه ــ رضي الله عنه ــ أبى أن يسلم نفســه ، وأن ينزل على حكم عبد الله ابن زياد ، وقاتل حتى قتل شهيداً مظلوماً ــ رضي الله عنه ــ ولما بلغ ذلك يزيد أظهر التوجع ، وظهر البكاء في داره ، ولم يسب لهم حريماً أصلاً بل جهزهم وأعطاهم وبعثهم الى وطنهم . وكان معاوية وصى يزيداً برعاية حق الحسين واجلاله .

---

(١) وقد علق الاستاذ محب الدين الخطيب على ذلك بالابيات التالية :

غداة استغاثت بالحسين جموعهم	اذا خف منهم تابع حل تابع
ان اقدم الينا يا ابن احمد اننا	لتبر ابن بنت المصطفى لانبايع
ومذ نزلوا في عرصة الطف وانجلت	حقيقة ما يخفى من الغدر خادع
فباءوا بذل مطمين رؤوسهم	حيارى وما في الجمع للنصح سامع
ولم يرعووا بل صاح صائح جمعهم	بصوت له تستك منه المسامع
ان انزل على حكم الامير مبايعاً	والا فما غير الاسنة شافــع

هكذا شهد أحد شعراء الشيعة المعاصرين لنا وهو محمد جواد خضرة فاجرى الله الحقيقة على لسانه . ولما انصرف علي بن الحسين بالذريــة من كربلاء ودخل الكوفة خرج لهم شيعتهم الخائنون ونساؤهم يندبن متهتكات الجيوب كما يفعل القوم الآن في كل عاشوراء ، فقال لهم علي بن الحسين سلام الله عليه : « يا أهل الكوفة، انكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟!»

وقال الامام ابن تيمية في موضع آخر [1] معلقاً على هذا الحادث المؤسف والمؤلم

ولهذا استقر امر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للاحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الائمة وترك قتالهم، وان كان قد قاتلهم في الفتنة خلق كثير من أهل العلم والدين. وباب قتال أهل البغي، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر يشتبه بالقتال في الفتنة، وليس هذا موضع بسطه. ومن تأمل الاحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في هذا الباب، واعتبر أيضاً اعتبار أولي الابصار، علم أن الذي جاءت به النصوص النبوية خير الامور. ولهذا لما اراد الحسين - رضي الله عنه - أن يخرج الى أهل العراق لما كاتبوه كتباً كثيرة - أشار اليه أفاضل أهل العلم والدين كابن عمر وابن عباس وابي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن لا يخرج، وغلب على ظنهم أنه يقتل، حتى أن بعضهم قال: أستودعك الله من قتيل! وقال بعضهم: لولا الشفاعة لامسكتك ومنعتك من الخروج! وهم بذلك قاصدون نصيحته، طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين. والله ورسوله انما يأمر بالصلاح لا بالفساد، ولكن الرأي يصيب تارة ويخطىء اخرى. فتبين أن الأمر على ماقاله اولئك، اذ لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا، بل تمكن اولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه مظلوماً شهيداً، وكان في خروجه وقتله من الفساد مالم يحصل لو قعد في بلده، فان ماقصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء، بل زاد الشر بخروجه وقتل ونقص الخير بذلك وصار سبباً لشر عظيم، وكأن قتل الحسين مما أوجب الفتن، كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن، وهذا

---

(١) ص ٢٨٧

كله مما يبين أن ما أمر النبي ﷺ من الصبر على جور الائمة وترك قتالهم والخروج عليهم، هو أصلح الامور للعباد في المعاش والمعاد، وان من خالف ذلك معتمداً أو خطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد، ولهذا اثنى النبي ﷺ على الحسن بقوله «ان ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» ولم يثن على أحد لا بقتال ولا فتنة ولا بخروج على الائمة ولا نزع من طاعة ولا بمفارقة الجماعة.

وقد ثبت في البخاري من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ : «أول جيش يغزون القسطنطينية مغفور لهم» فأول من غزا من القسطنطينية جيش بعثهم معاوية وعليهم ابنه يزيد، وفيهم من سادات الصحابة أبو أيوب الأنصاري فحاصروها ...

وأما قول الباطني المردود عليه «والسبي والحمل على الجمال بلا اقتاب، فهذا من الكذب الواضح، ما استحلت امة محمد ﷺ سبي هاشمية، وانما قاتلوا الحسين خوفاً منه، من أن يزيل عنهم الملك، فلما استشهد فرغ الامر وبعث بآله الى المدينة، ولكن جهل الباطنيين اليه المنتهى، ولا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب، وفاعله والراضي عنه مستحق للعقاب، ولكن ليس قتله باعظم من قتل ابيه، وقتل زوج اخته عمر، وقتل زوج خالته عثمان !!» اه.

القضاء والقدر

للعقيدة في نفوس الناس أثر عميق، ايجاباً أو سلباً، حسب ماتكون هذه العقيدة صحيحة أو باطلة، أو كانت صحيحة في الأصل، ولكن تسرب اليها الفساد والضلال بعد ذلك، فجعلها آلة هدم وتخريب، بدل أن تكون وسيلة للسعادة والقوة والرقي.

هذه عقيدة القضاء والقدر في الاسلام ، فقد كانت مصدر قوة المسلمين الاولين وسبب مجدهم ، وعظمتهم ، حينما اعتقدوا باختيار المرء وحريته ومسؤوليته في الحياة، فاعتمدوا على انفسهم وشدوا من عزائمهم وشحذوا افكارهم فانطلقوا في آفاق العلوم وميادين الجهاد .

أما اليوم فان اكثر المسلمين ـ وياللأسف ـ نتيجة التصوف ومذاهب علم الكلام الباطلة آمنوا بالجبر، وهو كفر صراح، فتركوا العمل واستسلموا للكسل ، واعتقدوا أن لله تعذيب الطائع واثابة العاصي، وهو كفر صراح أيضاً مادام الله سبحانه قد حرم الظلم على نفسه ، ففقدوا الامل وتسرب الشك الى نفوسهم في العدل الالهي وهكذا غدوا في فوضى واضطراب ولاينقذهم منها الا الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر.

يقول بعضهم ان الانسان في العالم مسير ولافائدة من جده مادام ان الله قد قدر على العبد عمله قبل ان يخلقه ، فهو كالورقة المندفعة في المجرى المائي ليس له شيء من الاختيار، ألم يقل الله سبحانه « والله خلقكم وما تعملون [١] »

هذا الاعتقاد وهم فاحش، وفيه سوء ظن بالله، اذ ليس من المعقول أبداً أن يجبر الانسان ويقيده ثم يعاقبه ! (وما ربك بظلام للعبيد ـ ان الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالاتعلمون ـ ولا يرضى لعباده الكفر [٢]).

---

(١) جاء في كتاب الفلسفة القرآنية (١٥٣) ان استشهاد الجبريين بان الله يقول « والله خلقكم وما تعملون» فالكلام فيه موجه الى قوم ابراهيم اذ قال لهم اتعبدون ماتنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ! اي خلقكم وخلق هذه الاصنام التي تنحتونها وليس المقصود به نسبة معاصي العباد الى الله.!!

(٢) ثلاث آيات قرآنية

ان تقدير الله سبحانه هو بمثابة العلم السابق تقريباً، فقد علم تعالى ان زيداً مثلا سيعطى عقلا وتدبيراً ولكنه سيجري مع هواه فكتبه من من الأشقياء . وبعكسه عمرو مثلا فانه سيعطى كزيد من العقل والتدبير غير انه سيتبع الهدى فكتبه من السعداء.. والى هذا يشير تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »

يقول الفيلسوف ديكارت «أن الجسد محكوم بقوانين طبيعية كسائر الاجسام المادية، ولكن الروح طليقة من سلطان هذه القوانين وعليها أن تجاهد الجسد وتلتمس العون من الله بالمعرفة، والقداسة في الجهاد. ومن تلاميذه من يقول : ان الانسان حر في كل فعل من افعاله ولكن الله يعلم منذ الازل ماسيفعله كل انسان لانه عليم خبير.

. هذا ملخص معضلة القضاء والقدر وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت ذلك :

«وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم»

«ستجزون ما كنتم تعملون»

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»

«وأن ليس للانسان الا ماسعى

«فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»

« كل امرىء بما كسبه رهين».

ولو كان الامر بخلاف ذلك لكان من العبث ارسال الانبياء وانزال الكتب السماوية .

أما الآيات التي يدل ظاهرها على عكس ذلك فهي تعين مشيئة الله العليا في القضايا العامة فليس المرء جراً فى التصرف في العالم كما يشاء !

وكثير من الآيات التي يشتم منها رائحة الجبر ذكرت بعد نضال المؤمنين أو بعد عناد الكفار واصدارهم فحقت عليهم العماية وغضب الله سبحانه. لنتأمل في قوله تعالى «من يهدي الله [1] فهو المهتدي ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً» نجده ذكر بعد نضال أهل الكهف وفرارهم من الكفر. ولنتأمل أيضاً في قوله تعالى «من يهدي الله [1] فهو المهتدي ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً فأولئك هم الخاسرون». جاء بعد قوله سبحانه «ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون [2]».

«فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدي القوم الفاسقين.» «فان الله لايهدي من يضل» «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق» «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى». وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى».

والخلاصة ينبغي المرء أن يعتقد أن له جزءاً اختيارياً يسمى الكسب وهو مناط الثواب والعقاب. وقد كان هذا الاعتقاد قديماً بين المسلمين حافزاً لهم للوثوب والتقدم.

وقد شعر حجة الاسلام ابن تيمية بثاقب رأية انحراف المسلمين في فهم عقيدة القضاء والقدر فألف رسالة هامة في ذلك ننشرها فيمايلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الاسلام حسنة الايام أوحد المجتهدين قامع المبتدعين تقي الدين احمد بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي ـ رضي الله عنه ـ عن قوم يحتجون بالقدر ويقولون قد قضى الامر من الأزل، فالسعيد سعيد

---

(١) سورة الكهف آية ١٧

(٢) سورة الاعراف آية ١٧٦

والشقي شقي من الأزل ويحتجون بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون » ويقولون مالنا في جميع الافعال قدرة ، وانما القدرة لله تعالى، قدر الخير والشر وكتبه علينا والمراد بيـــان خطأ هؤلاء بالأدلة القاطعة . ويقولون من قال لااله الا الله دخل الجنـــة . ويحتجون بالحديث الذي فيه قوله ﷺ وان زنا وان سرق وبغير ذلك . فما الجواب من هذا جميعه افتونا مأجورين .

فأجاب نفعنا الله بعلومه :

الحمد لله رب العالمين . هؤلاء القوم اذا صبروا على هـذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى ! فان النصارى واليهود يؤمنون بالامر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض كما قال الله تعالى « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الـكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما » فاذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقاً فكيف بمن كفر بالجميع ومن لم يقر بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده بل ترك ذلك محتجاً بالقدر فهو أكفر ممن آمن ببعض وكفر ببعض .وقول هؤلاء يظهر بطلانه من وجوه :

احدها أن الواحد من هؤلاء اما أن يرى القدر حجة للعبد وأما أن لايراه حجة للعبد . فان كان القدر حجة للعبد فهو حجة لجميع الناس فانهم كلهم مشتركون في القدر وحينئذ يلزمه ان لاينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون فان احدهم لايزال يذم هذا ويبغض هـذا

ويخالف هذا حتى أن الذي ينكر عليهم يبغضونـه ويعادونه وينكرون عليه ، فاذا كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لايذموا احداً ولا يبغضوا أحداً ولا يقولوا عن احد أنه ظالم ولو فعـل مافعل ومعلوم أن هذا لايمكن احداً فعله ولو فعل الناس هذا لهلك العالم فتبين أن قولهم فاسد في العقل كما أنه كفر في الشرع وأنهم كذابون مفترون في قولهم ان القدر حجة للعبد .

الوجه الثاني : أن هذا يلزم منه أن يكون ابليس وفرعون وقوم نوح وقوم هود و كل من أهلكه الله بذنوبه معذورين ! وهذا من الكفر الذي اتفق عليه ارباب الملل !

الوجه الثالث : أن هذا يلزم عنه أن لايفرق بين اولياء الله وأعداء الله، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا أهل الجنة وأهل النار . وقد قال تعالى « وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ومايستوي الاحياء ولا الأموات » . وقال تعالى « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » وقال تعالى « ام حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون » . وذلك أن هؤلاء جميعاً سبقت لهم من الله تعالى السوابق و كتب الله تعالى مقاديرهم قبـل أن يخلقهم وهم مع هذا قد انقسموا الى سعيد بالايمان والعمل الصالح ، والى شقي بالكفر والفسوق والعصيان ، فعلم بذلك أن القضاء والقدر ليس بحجة لأحد على معاصي الله تعالى .

الوجه الرابع: أن القدر نؤمن به ولا نحتج به فمن احتج بالقـدر فحجته داحضة ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج

بالقدر مقبول لقبل من ابليس وغيره من العصاة. ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق ولا قتل قاتل ولا اقيم حد على ذي جريمة ولا جوهد في سبيل الله ولا أمر بمعروف ولانهي عن منكر !!

الوجه الخامس : « أن النبي ﷺ سئل عن هذا فانه قال مامنكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة . فقيل : يارسول الله ، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له » رواه البخاري ومسلم . وفي حديث آخر في الصحيح انه قيل له يارسول الله أرأيت مايعمل الناس فيه ويكدحون . أفيماجفت به الاقلام وطويت به الصحف فقيل. ففيم العمل . فقال اعملو فكل ميسر لما خلق له .

الوجه السادس : أن يقال إن الله تعالى علم الامور وكتبها على ماهي عليه فهو سبحانه قد كتب أن فلاناً يؤمن ويعمل صالحاً فيدخل الجنة وفلاناً يفسق ويعصي فيدخل النار كما علم وكتب أن فلاناً يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد ، وأن فلاناً يأكل ويشرب فيشبع ويروى. وأن فلاناً يبذر البذر فينبت الزرع . فمن قال أن كنت من أهل الجنة فأنا أدخلها بلا عمل صالح كان قوله قولاً باطلا متناقضاً لما علمه الله وقدره. ومثل من يقول أنا لاأطأ امرأة فان كان الله قضى لي بولد فهو يولد فهذا جاهل فان الله تعالى اذا قضى بالولد قضى أن أباه يطأ امرأة فتحبل وتلد . فأما الولد بلا حبل ولا وطء فان الله لم يقدره ولم يكتبه ، كذلك الجنة انما أعدها الله تعالى للمؤمنين فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا ايمان كان ظنه باطلاً واذا اعتقد أن الاعمال التي أمر الله بها لايحتاج اليها ولا فرق بين أن يعملها أو لايعملها كان كافراً والله قد حرم الجنة الا على أصحابها .

(فصل) وأما قوله تعالى « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى» الآية فمن سبقت له من الله الحسنى فلا بد أن يصير مؤمناً تقياً فمن لم يكن من المؤمنين لم تسبق له من الله الحسنى، لكن الله اذا سبقت للعبد منه سابقة استعمله بالعمل الذي يصل به الى تلك السابقة كمن سبق له من الله تعالى أن يولد له ولد فلا بد أن يطأ امرأة يحبها فان الله سبحانه وتعالى قدر الأسباب والمسببات فسبق منه هذا وهذا، فمن ظن أن أحداً سبق له من الله الحسنى بلا سبب فقد ضل بل هو سبحانه ميسر الأسباب والمسببات وهو قدر فيما مضى هذا وهذا .

(فصل) ومن قال أن آدم عليه الصلاة والسلام ما عصى فهو مكذب للقرآن يستتاب فان تاب ولا قتل، فان الله تعالى قال : « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » فالمعصية هي مخالفة الامر الشرعي . فمن خالف أمر الله الذي أرسل فيه رسله وأنزل به كتبه فقد عصاه ، وان كان داخلا فيما قدره الله وقضاه وهؤلاء ظنوا ان المعصية هي الخروج عن قدر الله . فان لم تكن المعصية الا هذا فلا يكون ابليس وفرعون وقوم نوح وقوم عاد وثمود وجميع الكفار عصاة أيضا لأنهم داخلون في قدر الله تعالى . ثم قائل هذا يضرب ويهان فاذا تظلم ممن فعل ذلك به قيل له هذا الذي فعل هذا ليس هو بعاص لله تعالى فانه داخل في قدر الله عز وجل كسائر الخلق . وقائل هذا القول متناقض لا يثبت على حال .

(فصل) أما قول القائل مالنا في جميع أفعالنا قدرة فقد كذب فان الله تعالى فرق بين المستطيع القادر وغير المستطيع وقال (فاتقوا الله

مااستطعتم) وقال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)
وقال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ،
ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) والله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة وفعلا
كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وماتشاؤن الا أن يشاء الله رب
العالمين) وقال تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) لكن الله سبحانه خالقه
وخالق كل مافيه من قدرة ومشيئة وعمل فانه لا رب غيره ولا اله سواه
وهو خالق كل شيء وربه ومليكه.

(فصل) وأما قول القائل الزنا من المعاصي مكتوب فهو كلام
صحيح لكن هذا لاينفعه الاحتجاج به، فان الله تعالى كتب أفعال العباد
خيرها وشرها وكتب ما يصيرون اليه من السعادة والشقاوة وجعل
الاعمال سبباً للثواب والعقاب وكتب ذلك كما كتب الامراض وجعلها
سبباً للمرض والموت فمن أكل السم فانه يمرض أو يموت والله تعالى قدر
وكتب هذا .وهذا كذلك من فعل مانهي عنه من الكفر والفسوق
والعصيان فانه فعل ما كتب عليه وهو مستحق لما كتبه الله من الجزاء لمن
عمل ذلك، وحجة هؤلاء بالقدر على المعاصي من جنس حجة المشركين
الذين قال الله تعالى عنهم (وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من
دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل
الذين من قبلهم !) وقال تعالى (سيقول الذين اشركوا ما أشركنا ولا
آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا
بأسنا قل هل عندكم من علم تخرجوه لنا إن تتبعون الا الظن وان انتم
الا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين).

(فصل) وأما قول القائل من قال لا اله الا الله دخل الجنة

واحتجاجه بالحديث المذكور فيقال لاريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد . وقد قال تعالى (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجـــارة عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما ومن يفعل ذلك عدوانا وظلمـــا فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً) ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، والعبد عليه ان يصدق بهذا وهذا لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض فهؤلاء المشركون ارادوا ان يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعيد، والحرورية والمعتزلة ارادوا ان يصدقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما خطأ والذي عليه أهل السنة والجماعة الايمان بالوعد والوعيد وكما ان ماتوعد الله بـــه العبد من العقاب قد يبين سبحانه انه مشروط بان لايتوب فان تاب تاب الله عليه وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فان الحسنات يذهبن السيئات وبأن لا يشاء الله ان يغفر له فان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء، فهكذا الوعد له تفسير وبيان فمن قال بلسانه لا اله الا الله وكذب الرسول ﷺ فهو كافر باتفـــاق المسلمين، وكذلـــك ان جحـــد شيئاً ممـــا انزل الله تعالى . فـلا بـد من الايمـــان بكل بكل ماجاء به الرسول ﷺ ثم ان كان من أهل الكتاب[1] فأمره الى الله تعالى ان شاء غفر له وان شاء عذبه .وان ارتد عن الاسلام ومات مرتداً كان في النار، فالسيئات تحبطها التوبة والحسنات تحبطها الردة . ومن كان له حسنات وسيئات فان الله تعالى لايظلمه بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . والله تعالى يتفضل عليه ويحسن اليه بمغفرته ورحمته ومن مات على الايمان فانه لايخلد في النار .فالزاني والسارق

(١) لعله من أهل الاسلام

لايخلد في النار لابد أن يدخل الجنة ،فالنار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان وهؤلاء المسؤول عنهم يسمونه القدرية المباهية المشركية وقد جاء في ذمهم من الآثار مايضيق عنه هذا الجواب.اه

من مظاهر الشرك

التوحيد أصل عظيم من أصول الدين ، وقد كان السبب الأول في انطلاقة المسلمين في ميادين الفتح والمجد ، وفي آفاق العلم والحضارة حتى غدوا سادة العالم ومحرري الانسانية من الطواغيت والطغاة مما حقق قول الرسول ﷺ حينما نادى بالعرب : « كلمة واحدة تعطونيها ، تدين لكم بها العرب وتخضع لكم بها العجم : « تقولون لااله الا الله » وتخلعون ماتعبدون من دونه ! »

ومن حكمة ذلك أن توحيد الله في الربوبية والألوهية والصفات ، يفتح ذهن المسلم ويقوي شخصيته ، ويثير في نفسه شرارة تحرق الأساطير والأوهام والخضوع لعباد مهما سمت مكانتهم ، لايملكون لانفسهم ضراً ولانفعاً ، فيغدو مستقل الفكر ، منطلقاً الى العظمة ، راغباً في الخلود ، مستعذباً الشهادة في سبيل الله .

هذه بعض آثار التوحيد في الامة الاسلامية ، ولقدأتى على المسلمين حين من الدهر انحرفوا عن هذا التوحيد واتخذوه لفظاً فقط يتمتمون به في تسابيحهم وصلواتهم ، فعششت الخرافات في نفوسهم وانحطت بهم في مهاوي الكسل والاستسلام.

في مثل هذا العصر جاء حجة الاسلام ابن تيمية، فوجد المسلمين يتساقطون على قبور الأنبياء والأولياء يستغيثون بهم ويدعونهم في

الشدائد وينذرون لهم . لا هم لهم الا شد الرحـــال اليهم وتقديم الشموع والزيوت والبخور والقرابين لهم والتمرغ بترابهم، مما ادى الى انحطاطهم وتهافت الاعداء عليهم، فهاله أمرهم وسارع الى انقاذهم، متحملا جميع الأذى منهم، فألف الكتب والرسائل الكثيرة، داعياً المسلمين الى تطهير عقائدهم من الشرك وفي الصفحات التالية مقتطفات من كتابه القيم «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» تكشف عن آرائه في التوحيد الخالص .

النهي عن اتخاذ القبور مساجد

واتخاذ[1] المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها كما تبنى المساجد لذلك ، والمكان المتخذ مسجداً انما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد ، وان كان القاصد لذلك انما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك ذريعة الى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان الا لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة الى الشرك بالله . والفعل اذا كان يفضي الى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه كما نهي عن الصلاة في الاوقات الثلاثة[2] لما في ذلك من المفسدة الراجحة وهو التشبه بالمشركين الذي[3] يفضي الى الشرك ، وليس في قصد الصلاة في تلك الاوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الاوقات ، ولهذا تنازع العلمـــاء في ذوات[4]

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) الاوقات الثلاثة وقت طلوع الشمس واستوائها في وسط السماء وغروبها.

(٣) المراد التشبه بالمشركين الذين يعبدون الشمس من دون الله فيسجدون لها ويعظمون الاوقات الثلاثة .

(٤) أي في الصلوات التي لها أسباب كالفائتة والسنة المؤقتة وسنة الوضوء وتحية المسجد وتوابع الفرائض ونحو ذلك فلا تحرم في هذه الاوقات .

الاسباب فسوغها كثير منهم في هذه الاوقات، وهو أظهر قولي العلماء، لأن النهي اذا كان لسد الذريعة ابيح للمصلحة الراجحة ، وفعل ذوات الاسباب يحتاج اليه في هذه الأوقات ،ويفوت اذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها، فابيحت لما فيها من المصلحة بخلاف مالاسبب [1] له فانه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا يفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسدة توجب النهي عنه . فاذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الاوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك الى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها ، كان معلوماً أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه أعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضي الى دعاء الكواكب ـ كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك الى دعائهم والسجود لهم ، كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد .

زيارة القبور المشروعة والبدعية

ولهذا[2] كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين: زيارة شرعية وزيارة بدعية . فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له . فالقيام [3] على قبره من جنس الصلاة

---

(١) مالاسبب له هو النفل المطلق الذي يتطوع به المصلي لوجه الله من غير أن يرد فيه نص بتوقيت .

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٢٥ – ٢٧

(٣) المراد بالقيام على قبره زيارته وليست الزيارة مقيدة بالقيام بل اذا زار المرء للقبر جالساً أو مضجعاً جاز والتعبير بالقيام للغالب.

عليه . قال الله تعالى في المنافقين (ولاتصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيـــام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون . فلما نهى عن هذا لأجل هذه العلة وهي الكفر دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هـذه العلة ، ودل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يصلى عليه ويقام على قبره، اذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصوا بالنهي ولم يعلل ذلك بكفرهم . ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة، فكان النبي ﷺ يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته ، وكان اذا دفن الرجل من امته يقوم على قبره ويقول : « سلوا له التثبيت فانه الآن يسأل » رواه أبو داود وغيره . وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداءبأحد ويعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقول أحدهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله تعالى بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لاتحرمنا أجرهم ولاتفتنا بعدهم » وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله ﷺ خرج الى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وانا ان شاء الله بكم لاحقون » والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة . فهـــذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم ، وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجـوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال « أتى رسول الله ﷺ قبر امه فبكى وبكى من حوله» ثم قال « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً بخلاف الزيارة التي

يقصد بها الدعاء للميت فتلك لاتشرع الا في حق المؤمنين.

وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصدبها أن يطلب من الميت الحوائج أو يطلب منه الدعاء والشفاعة أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء.

فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولافعلها الصحابة لاعند قبر النبي ﷺ ولاعند غيره، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك، ولو قصد الصلاة عند قبور الانبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهياً عنه، ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبي ﷺ: « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » وقال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد» يحذر ماصنعوا. وقال « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألافلاتتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك » فاذا كان هذا محرماً وهو سبب لسخط الرب ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء [1] عنده وبه وأعتقد

---

(١) دعاء الميت هو رجاؤه نفسه أن يقضي الحاجات كمن يقول ياسيدي يابدوي اشف لي مريضي أو اقض لي حاجتي او انصرني على عدوي أو اقصف عمر عدوي ونحو ذلك، والدعاء عنده أن يعتقد الداعي أن هذا المكان الذي فيه القبر مكان طاهر يجاب فيه الدعاء فيدعو الله فيه، وهذا ايضاً حرام لان فيه سبيلاً الى دعـــاء الميت في المستقبل أو اعتقاد أن للميت اثراً في اجابة الدعاء. والدعاء به أن يتوسل به الى الله حتى يجاب دعاؤه كمن يقول ياسيدي ابراهيم يادسوقي نفسك قريب من الله اطلب لي منه أن يشفيني أو ينصرني او يخرج ابني من السجن أو يقول ياالله اتوسل اليك بجاه الامام الحسين أن تقضي لي حاجتي فهذا كله شرك وضلال وينبغي ألا يقصد غير الله فهو أعلم بعبده وأقرب اليه من حبل الوريد. ولا تنفع عنه الوساطات ولايصعد اليه أحد بالدعوات وانما هو كما قال «اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

أن ذلك من أسباب اجابة الدعوات ونيل الطلبات [1] وقضاء الحاجات؟ وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم.

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخاري وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله تعالى (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن وداً ولا سواعاً . ولايغوث ويعوق ونسرا) ان هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، قال ابن عباس ثم صارت هذه الاوثان في قبائل العرب.

من هم اولياء الله ؟

وأولياء[2] الله هم المؤمنون المتقون وكراماتهم ثمرة ايمانهم وتقواهم لاثمرة الشرك والبدعة والفسوق ، وأكابر الاولياء انما يستعملون هذه الكرامات بحجة الدين أو لحاجة المسلمين، والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات، وأما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه متعد حد ربه، وان كان سببها الايمان والتقوى فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فانفقها في طاعة الشيطان فهذا المال وان ناله بسبب عمل صالح فاذا أنفقه في طاعة الشيطان كان وبالاً عليه فكيف اذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو الى كفر آخر وفسوق وعصيان ، ولهذا كان ائمة هؤلاء معترفين بأن اكثرهم يموتون على غير الاسلام . ولبسط هذه الامور موضع آخر .

---

(١) الطلبات بفتح الطاء وكسر اللام جمع طلبة وهي الحاجة .

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٣٥–٣٧

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين مايرونه أو يسمعونه عند الاوثان كاخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجةونحو ذلك ، فاذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهي عانقه أو كامه ظن أن ذلك هو النبي المقبور، والقبر لم ينشق وانما الشيطان مثل له ذلك كما يمثل لاحدهم ان الحائط انشق وانه خرج منه صورة انسان، ويكون هو الشيطان تمثل له صورة انسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر، نحن لا نبقى في قبورنا بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشي بين الناس. ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنازة ويمشي ويأخذ بيده الى أنواع اخرى معروفة عند من يعرفها . وأهل الضلال اما أن يكذبوا بها وأما أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته . وربما قالوا هذا روحانيته أو رقيقته أو سره أو أمثاله أو روحه تجسدت حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين ولا يعلم بأن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الانسي .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الانبياء الصالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ايأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من

دونه فلايملكون كشف الضر عنكم ولاتحويلا . اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه. ان عذاب ربك كان محذورا) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض وماهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له). ومثل هذا كثير في القرآن ينهي أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الانبياء ولا غيرهم فان هذا شرك أو ذريعة الى الشرك ، بخلاف مايطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فانه لايفضي الى ذلك ، فان أحداً من الانبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته فانه ينهي من يفعل ذلك ، بخلاف دعائهم بعد موتهم ، فان ذلك ذريعة الى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة الى الشرك ، فمن رأى نبياً أو ملكا من الملائكة وقال له «ادع لي » لم يفض ذلك الى الشرك به ، بخلاف من دعاه في مغيبه ، فان ذلك يفضي الى الشرك به كما قد وقع فان الغائب والميت لاينهي من يشرك بل اذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك الى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد وقع فيه المشركون ، ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين . ومعلوم أن الملائكة تدعو المؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) . وقال تعالى : (تكاد السموات

يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض ألا إن الله هو الغفور الرحيم، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد . وكذلك ما روى أن النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للاخيار من امته، هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد . واذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الانبياء والصالحين ولا أن تطلب منهم الدعاء والشفاعة، وان كانوا يدعون ويشفعون لوجهين (أحدهما) أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وان لم يطلب منهم ومالم يؤمرون به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة في الطلب منهم . (الثاني) ان دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يفضي الى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة، فلو قدر ان فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة، فكيف ولا مصلحة فيه، بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فانه لا مفسدة فيه فانهم ينهون عن الشرك بهم ، بل فيه منفعة وهو أنهم يثابون ويؤجرون على مايفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فانهم في دار العمل والتكليف وشفاعتهم في الآخرة فيها اظهار كرامة الله لهم يوم القيامة .

الاستغاثة بغير الله

ومعلوم[1] أن الرسول ﷺ مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى (فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب) فهو ﷺ لا يرغب الى غير الله، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال « يدخل من امتي الجنة سبعون الفاً بغير حساب ، هم الذين لايسترقون ، ولايكتوون، ولايتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون » فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لايسترقون ، والاسترقاء

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٣٩–١٤٤

أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية من نوع الدعاء ، وكان هو ﷺ يرقى نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقيه ، ورواية من روى في هذا « لايرقون» ضعيفة غلط ، فهذا مما يبين حقيقة أمره لامته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذيغيره أفضل منه،فان من لايسأل النـاس ، بل لايسأل الا الله أفضـل ممن يسأل الناس ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم

ودعاء الغائب للغائب ، أعظم اجابة من دعاء الحاضر ، لأنه أكمل اخلاصاً ، وأبعد عن الشرك ، فكيف يشبه دعاء من يدعولغيره بلاسؤال منه ، الى دعاء من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر ؟ وفي الحديث « أعظم الدعاء اجابة دعاء غائب لغائب » وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال « ما من رجل يدعو لاخيه بظهر الغيب بدعوة، الا وكل الله ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله » وذلك ان المخلوق يطلب من المخلوق مايقدر المخلوق عليه ، والمخلوق قادر على دعاء الله ومسألته ، فلهذا كان طلب الدعاء جائزاً ، كما يطلب منه الاعانة بما يقدر عليه والافعال التي يقدر عليها .

فاما مالايقدر عليه الا الله تعالى ، فلا يجوز ان يطلب الا من الله سبحانه، لايطلب ذلك لامن الملائكة ، ولا من الانبياء، ولا من غيرهم ، ولا يجوز أن يقال لغير الله : اغفرلي ، واسقنا الغيث ، وانصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ، ونحو ذلك ، ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال الصديق : قوموا بنا نستغث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجاؤوا اليه فقال« انـه لايستغاث بي، وانما يستغاث بالله »[1] وهذا في الاستعانة مثل ذلك .

[1](حديث ضعيف)

فاما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وفي دعاء موسى عليه السلام « اللهم لك الحمد ، واليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بك » وقال أبو يزيدالبسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وقال أبو عبـــد الله القرشي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فـلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذوراً) قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والانبياء فقال الله تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي ، ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي، ويتقربون الي كما تتقربون الي. فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والانبياء ، مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنـــا أن نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وان كانوا أحياء في قبورهم ، وان قدر أنهم يدعون للاحياء ،وان وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعـــة الى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من أحدهم في حياته ، فانـــه لا يفضي الى الشرك ، ولأن ماتفعله الملائكة ويفعله الانبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين، بخـــلاف سؤال أحدهم في حياته فإنه يشرع اجابة السائل،وبعد الموت انقطع التكليف عنهم.

وقال تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة

ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا، ايأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) بين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين اربابا فهو كافر. وقال تعالى (قل: ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ومالهم فيها من شرك وماله منهم من ظهير . ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) وقال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟) وقال تعالى (ما من شفيع الا من بعد اذنه) وقال تعالى (مالكم من دونه من ولي ولاشفيع) وقال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولاينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل اتنبئون الله بمالايعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى عن صاحب يس (ومالي لاأعبد الذي فطرني واليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لاتغني عني شفاعتهم شيئاً ولاينقذون. اني اذاً لفي ضلال مبين . اني آمنت بربكم فاسمعون) .

فالشفاعة نوعان : احدهما الشفاعة التي نفاها الله تعالى ، كالتي اثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الامة ، والثاني : أن يشفع الشفيع بإذن الله . وهذه التي اثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء اذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتي ويسجد . قال «فاحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن . فيقال أي محمد ! ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » فاذا أذن له في الشفاعة شفع ﷺ .

قال أهل هذا القول : ولايلزم من جواز التوسل والاستشفاع به ، بمعنى أن يكون هو داعياً للمتوسل به ، أن يشرع ذلك في مغيبه وبعد

موته ، مع أنه هو لم يدع للمتوسل به ، بل المتوسل به أقسم به او سأله بذاته ، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين ، وذلك لانه في حياته يدعو هو لمن توسل به ودعاؤه هو لله سبحانه أفضل دعاء الخلق ، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، فدعاؤه لمن دعاله وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق ، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول ولم يشفع له؟ ومن سوى بين من دعا له الرسول ومن لم يدع له الرسول ، وجعل هذا التوسل ، كهذا التوسل فهو من اضل الناس !

وأيضاً فانه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو التوسل بدعائه ضرر ، بل هو خير بلا شر ، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة . فان أحداً من الانبياء عليهم السلام لم يعبد في حياته بحضوره ، فانه ينهى من يعبده ويشرك به ، ولو كان شركاً أصغر ، كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له ، وكما قال «لاتقولوا ما شاء الله وشاء محمد» ولكن قولوا : ماشاء الله ثم ماشاء محمد » وأمثال ذلك .

وأما بعد موته ، فيخاف الفتنة والاشراك به ، كما اشرك بالمسيح ، والعزير ، وغيرهما عند قبورهم وغير قبورهم ولهذا قال النبي ﷺ « لاتطروني كما اطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » اخرجاه في الصحيحين وقال « اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد » وقال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر مافعلوا.

وبالجملة فمعنا اصلان عظيمان ، أحدهما : أن لانعبد الا الله ، والثاني : أن لانعبده الا بما شرع ، لانعبده بعبادة مبتدعة. وهذان الاصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، كما قال تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) . قال الفضيل بن عياض: اخلصه وأصوبه قالوا : يا ابا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : ان العمل اذا كان خالصا ولم

يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ! حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، وذلك تحقيق قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولايشرك بعبادة ربه أحدا) وكان امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا، ولاتجعل لأحد فيه شيئاً . وقال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟) .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ انه قال « من أحدث في آمرنا هذا ماليس منه فهو رد » وفي لفظ في الصحيح « من عمل عملا ليس عليه امرنا ، فهو رد » وفي الصحيح وغيره ايضاً يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا اشرك فيه غيري ، فانا منه بريء وهو كله للذي اشرك» ولهذا قال الفقهاء: العبادات مبناها على التوقيف [1] كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب انه قبل الحجر الاسود وقال: «والله اني لأعلم انك حجر لاتضر ولاتنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك » والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته ، وموالاته ومحبته وان يكون الله ورسوله أحب الينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته ، محبة الله و كرامته. فقال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (وان تطيعوه تهتدوا)وقال تعالى(ومن يطع الله ورسوله فان له جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم) وأمثال ذلك في القرآن كثير.

---

(١) أي على النص والتعليم لا على الاجتهاد .

...والمراتب[1] في هذا الباب ثلاث (احداها) ان يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سواء كان من الانبياء والصالحين او غيرهم فيقول: ياسيدي فلان اغثني أو انا استجير بك او استغيث بك او انصرني على عدوي . واعظم من ذلك ان يقول : اغفرلي وتب علي . كما يفعله طائفة من الجهال المشركين . واعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي اليه ويرى الصلاة اليه افضل من استقبال القبلة. حتى يقول بعضهم : هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام . وأعظم من ذلك أن يرى السفر اليه من جنس الحج حتى يقول ان السفر اليه مرات يعد حجة، وغلاتهم يقولون : الزيارة اليه مرة افضل من حج البيت مرات متعددة. ونحو ذلك، فهذا شرك بهم وان كان يقع كثير من الناس في بعضه .

(الثانية) أن يقال للميت أو الغائب من الانبياء والصالحين : ادع الله لي ، أو أدع لنا ربك أو أسأل الله لنا، كما تقول النصارى لمريم وغيرها، فهذا أيضا لايستريب عالم أنه غير جائز ، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الامة ، وان كان السلام على أهل القبور جائزاً ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم اصحابه اذا زاروا القبور أن يقول قائلهم «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وانا ان شاء الله بكم لاحقون، يغفر الله لنا ولكم ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لاتحرمنا اجرهم ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم» . وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قال « ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » وفي سنن أبي داود عن النبي

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٥٣–١٥٧

ﷺ أنه قال « مامن مسلم يسلم عليّ الا رد الله على روحي حتى أرد عليه السلام » لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لا دعاء ولا غيره. وفي موطأ مالك ان ابن عمر كان يقول : السلام عليك يارسول الله، السلام عليك يا أبابكر ، السلام عليك يا أبه [1] ثم ينصرف . وعن عبد الله بن دينار قال : رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي ﷺ ويدعو لابي بكر ، وعمر . وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم انهم كانوا يسلمون على النبي ﷺ فاذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لا يدعون مستقبلي الحجرة ، وان كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة ، فلم يذهب الى ذلك امام متبع في قوله ولا من له في الأمة لسان صدق عام .

ومذهب الائمة الاربعة : مالك وابي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الاسلام ان الرجل اذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فانه يستقبل القبلة ، واختلفوا في وقت السلام عليه فقال الثلاثة مالك والشافعي وأحمد : يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه . وقال ابو حنيفة : لايستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لايستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم . ثم في مذهبه قولان قيل يستدبر الحجرة وقيل يجعلها عن يساره فهذا تنازعهم في وقت السلام وأما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في أنه انما يستقبل القبلة لا الحجرة .

والحكاية التي تذكر عن مالك أنه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال : هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . كذب على مالك ليس لها اسناد معروف ، وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد

---

(١) اصلها يا ابي

الثقات في كتب أصحابه ، كما ذكره اسماعيل بن اسحاق القاضي وغيره، مثل ماذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم . فأنكر مالك ذلك وذكر أنه من البدع التي لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم باحسان . وقال : لايصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قال له مالك . فان الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعاداتهم . ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك وكانوا أسبق اليه ممن بعدهم، والداعي يدعو الله وحده ، وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى ، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ قال «لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها » فلا يجوز أن يصلى الى شيء من القبور لاقبور الانبياء ولا غيرهم لهذا الحديث الصحيح.

ولا خلاف بين المسلمين أنه لايشرع أن يقصد الصلاة الى القبر، بل هذا من البدع المحدثة . وكذلك قصد شيء من القبور لاسيما قبور الانبياء والصالحين عند الدعاء اذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه أولى ان لايجوز، كما أنه لايجوز أن يصلي مستقبله فلأن لايجوز الصلاة له بطريق الاولى ، فعلم انه لا يجوز ان يسأل الميت شيئاً ، لايطلب منه أن يدعو الله ولا غير ذلك ، ولايجوز ان يشكى اليه بشيء من مصاب الدنيا والدين، ولو جاز أن يشكى اليه ذلك في حياته فان ذلك في حياته لا يفضي الى الشرك ، وهذا يفضي الى الشرك ، لأنه في حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الأجر والثواب ،

وبعد الموت ليس مكلفاً بل ما يفعله من ذكر لله تعالى ودعـائه ونحوو ذلك . كما أن موسى يصلي في قبره وكما صلى الانبياء خلف النبي ﷺ ليلة المعراج ببيت المقدس ، وتسبيح اهل الجنة والملائكة فهم يتمعون بذلك وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقـدره لهم ، ليس هو من باب التكليف الذي يمتحن به العباد .

وحينئذ فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئاً ، بل ما جعله الله فاعلاً له هو يفعله وان لم يسأله العبد ، كما يفعل الملائكة مـا يؤمرون به وهم انما يطيعون امر ربهم لا يطيعون أمر مخلوق ، كما قال سبحـانه وتعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه بل عباد مكـرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعمـلون) فهم لا يعملون الا بأمره سبحانه وتعـالى .

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته . فان بيتـه كانت الصلاة فيه مشروعة ، وكان يجوز ان يجعل مسجداً ، ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجداً كما ان في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » يحذر ما فعـلوا . ولولا ذلك لأبرز قبره ولكنه كره أن يتخذ مسجداً ، وفي صحيح مسلم وغيره عنه ﷺ أنه قال « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجـد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني انهاكم عن ذلك » وقـد كان ﷺ في حياته يصلى خلفه وذلك من افضل الاعمال . ولا يجوز بعد موته أن يصلي الرجل خلف قبره ، وكذلك في حياته يطلب منه أن يأمر وأن يفتي أن يقضي ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته وأمثال ذلك كثيرة .

وقد كره مالك أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله ﷺ !! لأن هذا اللفظ لم يرد . والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب .

وهذا اللفظ صار مشتركاً في عرف المتأخرين يراد به الزيارة البدعية التي في معنى الشرك كالذي يزور القبر ليسأله او يسأل الله به اويسأل الله عنده.

والزيارة الشرعية هي ان يزوره لله تعالى للدعاء له والسلام عليه كما يصلى على جنازته . فهذا الثاني هو المشروع ، ولكن كثيراً من الناس لا يقصد بالزيارة الا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرت قبره ، لما فيه من ايهام المعنى الفاسد الذي يقصده اهل البدع والشرك .

(الثالثة) أن يقال : أسألك بفلان أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهى عنه . وتقدم أيضاً ان هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه الى التوسل بدعاء العباس وغيره !

وقد تبين ما في لفظ التوسل من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تفعله وبين ما لم يكونوا يفعلونه ، فان لفظ التوسل والتوجه في عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته . ولهذا يجوز ان يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وان كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اذا اعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور فاستعينوا بأهل القبور » فهذا الحديث كذب ومفترى على النبي صلى الله عليه وسلم باجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة . وقد قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لا يموت ، وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الأسلام أنه غير مشروع، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عما هو اقرب من ذلك — على اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ، ولعن اهله تحذيراً من التشبه بهم ، فان ذلك اصل عبادة الأوثان . كما قال تعالى (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً . ولا يغوث ويعوق

ونسرا) فان هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبوورهم ثم صوروهم ، ثم اتخذوا الاصنام على صورهم كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عبــاس وغيره من علماء السلف .

من حيل شياطين الجن[1]

واذا تبين ما أمر الله به ورسوله وما نهى عنه ورسوله في حق اشرف الخلق ، واكرمهم على الله عز وجل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرســل والنبيين ، وأفضل الأولين والآخرين ، وأرفع الشفعاء مــنزلة وأعظمهم جاهاً عند الله تبارك وتعالى - تبين أن من دونه من الانبياء والصالحــين اولى بأن لا يشرك به ، ولا يتخذ قبره وثنــاً يعبد ، ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته .

ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ولا المائتين ، مثل أن يقول : يا سيدي فلاناً اغثني وانصرني وادفع عــني ، أو أنا في حسبك ، ونحو ذلك ، بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالأضطرار من دين الاســلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الاوثان ، صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كما يضل عباد الأوثان ويغويهم ، فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به ، وتخاطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة ، كما تخاطب الشياطين الكهان ، وبعض ذلك صدق ، لكــن لا بد أن يكون في ذلك ما هو كذب ، بل الكذب اغلب عليه من الصدق ، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه ، فيظن أحــدهم أن الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن أن الله تعالى صور ملكاً على صورته فعل ذلك ، ويقول أحــدهم : هذا سر الشيخ وحاله . وانما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به ،

«١» « قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة » ص ١٥٨ - ١٦٢ علق عليه وصحح اصوله الاستاذ طه الزيني .

كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم ، كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب ، وهو اليوم موجود في المشركين من الترك والهند وغيرهم .

وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم ، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ودفعنا عنهم ، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك انما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين [1] وهذا من أكبر الاسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان . وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلاس يرون أيضاً من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذين استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم .

وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الانبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي ﷺ غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو يحكي لهم بعض هذه الأمور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتي الى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه وانما ذلك كله من الشياطين ، وهذا من أعظم

---

(١) وقد وقع أن بعض المصابين بالصرع ونحوه رأوني أدفع عنهم الجن الذين يؤذونهم . ومن الناس من يعلل ذلك بأن الرائي يتمثل صورة من يعتقد صلاحه في خياله فيراه في الخارج وهو مستيقظ مأخوذ عن حسه كما يراه في النوم . وهذا التعليل قريب ، ولابن القيم كلام فيه حسن في بحث الرؤيا ينحل به رؤية الكفار لبعض الانبياء والصالحين .

الاسباب التي عبدت بها الأوثان . وقال الخليل عليه السلام (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام. رب انهن أضللن كثيراً من الناس) كما قال نوح عليه السلام . ومعلوم أن الحجر لا يضل كثيراً من الناس الا بسبب اقتضى ضلالهم . ولم يكن أحد من عباد الأصنام يعتقد أنها خلقت السموات والأرض ، بل انما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لاسباب : منهم من صورها على صور الانبياء والصالحين ، ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر ، ومنهم من جعلها لأجل الجن ، ومنهم من جعلها لأجل الملائكة . فالمعبود لهم في قصدهم انما هو الملائكة والأنبياء والصالحون أو الشمس أو القمر ، وهم في نفس الأمر يعبدون الشياطين ، فهي التي تقصد من الأنس أن يعبدوها وتظهر لهم مايدعوهم الى ذلك ، كما قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة : أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) واذا كان العابد مما لا يستحل عبادة الشياطين أوهموه أنه أنما يدعو الانبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به . وأما ان كان مما لا يحرم عبادة الجن عرفوه انهم الجن. وقد يطلب الشيطان الممثل له في صورة الانسان أن يسجد له أو أن يفعل به الفاحشة أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر ، أو أن يقرب لهم الميتة ، وأكثرهم لا يعرفون ذلك . بل يظنون أن من يخاطبهم اما ملائكة واما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء لله غائبون عن أبصار الناس . وأولئك جن تمثلت بصور الانس أو رئيت في غير صور الانس، قال تعالى (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) كان الانس اذا نزل أحدهم بوادٍ يخاف أهله قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، وكانت الأنس تستعيذ الجن فصار ذلك سبباً لطغيان

الجن ، وقالت ، الأنس تستعيذ بنا !

وكذلك الرقى والعزائم الأعجمية هي تتضمن أسماء رجـال من الجن يدعون ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه ، فتعطيهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سـليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمـون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من احد حتى يقـولا : انما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين بـه من أحد الا باذن الله . ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق . ولبئس مـا شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) وكثـير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملتـه وتذهب به الى مكة وغيرها ، ويكون مع ذلك زنديقا يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسـوله ، وانما يقترن به أولئك الشياطين لما أنه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى اذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله ، فارقته تلك الشياطين ، وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الاخبارات والتأثيرات ، وأنا أعرف من هؤلاء عدداً كثيراً بالشام ومصر والحجاز واليمن وأما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مـما بالشام وغيرها ، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم .

وانما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التي أسبـابها الكفر والفسوق والعصيـان بحسب ظهور اسبابها ، فحيث قوى الايمان والتوحيـد ونور الفرقـان والايمان وظهرت آثار النبوة والرسـالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية ، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال

الشيطانية ، والشخص الواحد فيه هذا وهذا الذي تكون فيه مادة تمده للايمان ومادة تمده للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال .
والمشركون الذين لم يدخلوا في الاسلام مثل البخشية والطوانية والبدي ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون الكفار من الترك والهند والخطاوغيرهم تكون الأحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بامور غائبة ويبقى الدف [1] الذي يغنى لهم به يمشي في الهواء ، ويضرب رأس أحدهم اذا خرج عن طريقهم ولا يرون أحداً يضرب له ، ويطوف الاناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله ، ويكون أحدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاماً يكفيهم ويأتيهم بألوان مختلفة ، وكذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القويبة أو من غيرها وتأتي به وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركاً أو ناقص الايمان من الترك وغيرهم وعند التتار من هذا أنواع كثيرة .

وأما الداخلون في الاسلام اذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم ، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضي الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل ، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم اذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة ولا يطوف طواف الافاضة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الأولياء ، ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان به ، فان مثل هذا الحج ليس مشروعاً ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين . ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل . ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء ، الصحابة يفعل بهم مثل هذا ، فانهم أجل قدراً من ذلك ، وقد جرت هذه القضية

---

(١) هو المعروف عندنا (بالطار) .

لبعض من حمل هو وطائفة معه من الاسكندرية الى عرفة فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج فقال : كتبتموني ؟ قالوا : أنت لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواء فقال لهم : هـذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لانكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الاسلام مبني على أصلين ، على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ ! وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فالاله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء وإجلالاً واكراماً . والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ، ولا يدعى الا الله ، ولا يخاف الا الله ، ولا يطاع الا الله ؟

ابن تيمية والحيل الشرعية

لقد قيل عن الامام محمد بن الحسن تلميذ الامام أبي حنيفة ، أن له كتاباً في الحيل ، وللخصاف كتاب مثله يسمى : « الحيل والمخارج » وقد اختلف في صحة ذلك ، وخاصة عن الامام محمد .

وقد حمل شيخ الاسلام ابن تيمية على الحيل في الشريعة ومنعها منعاً باتاً سداً للذريعة ونادى ببطلانها لما تؤدي اليـه من التحايل على الدين وتعطيله وتحليل محرماته . وكان مما قاله : « إعلم ان تجويز الحيل يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة ، فان الشارع سد الطريق الى ذلك المحرّم بكل طريق ، والمحتال يريد أن يتوسل اليه ، ولهذا لما اعتبر الشارع في البيع والصرف والنكاح وغيرها شروطاً سد ببعضها طريق الزنى والرباء وكمل

بها مقصود العقود ، لم يكن لمحتال الخروج منها في الظاهر ، فاذا أراد الأحتيال ببعض هذه العقود على ما منع الشارع منه ، أتى بها مع حيلة اخرى توصله بزعمه الى نفس ذلك الشيء الذي سد الشارع ذريعته ، فلا يبقى لتلك الشروط التي يأتي بها فائدة ولا حقيقة ، بل يبقى بمنزلة اللعب والعبث . »

وقد ذكر الامام ابن تيمية أمثلة على بعض الحيل فقال :

« اذا تواطأ على بيع أو هبة لاسقاط الزكاة ، وان كان الاحتيال من واحد مثل أن يهب لأبنه هبة يريد أن يرجع فيها لئلا تجب عليه الزكاة ، فان وجود هذه الهبة كعدمها ليست هبة في شيء من الأحكام . لكن ان ظهر المقصود ترتب الحكم عليه ظاهراً وباطناً ، والا بقيت فاسدة في الباطن فقط ، وان كانت حيلة لا يستقل بها مثل أن ينوي التحليل ، ولا يظهر للزوجة ، او يرتجع المرأة ضراراً بها ، او يهب ما له ضراراً لورثته ، ونحو ذلك كانت هذه العقود بالنسبة له ولمن علم غرضه عقوداً باطلة فلا يحل له الدخول بالمرأة ، ولا يرثها اذا ماتت ، واذا علم الموهوب له أو الموصى له غرضه لم يحصل له الملك في الباطن ، فلا يحل له الانتفاع به ، بل يجب رده الى مستحقه [1] . »

وأهم الحيل التي حاربها شيخ الاسلام ، وقد كانت منتشرة في عهده ، ولاتزال باقية الى يومنا هذا !!حيلة اباحة تحليل الزوجة المطلقة ثلاث طلقات ، وذلك عن طريق المحلل ، مماهو زنى صريح !وقد ألف هذا الامام كتاباً خاصاً بهذا الموضوع سماه (اقامة الدليل على ابطال التحليل) قال فيه :

« نكاح المحلل حرام باطل لا يفيد الحل ، وصورته أن الرجل إذا

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ١٤٦ .

طلق امرأته ثلاثاً [1] ، فانها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره كما ذكره الله تعالى في كتابه وكما جاءت به سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأجمعت عليه أمته ، فاذا تزوجها رجل بنيته أن يطلقها لتحل لزوجها الأول كان هذا النكاح حراماً باطلاً سواء عزم بعد ذلك على امساكها أو فارقها ، وسواء شرط عليه ذلك في عقده النكاح أو شرط عليه قبل العقد أو لم يشرط عليه لفظاً ، بل كان ما بينهما من الخطبة وحال الرجل والمرأة والمهر نازلاً بينهم منزلة اللفظ بالشروط ، أو لم يكن شيء من ذلك ، بل أراد الرجل أن يتزوجها ثم يطلقها لتحل للمطلق ثلاثاً من غير أن تعلم المرأة ولا وليها شيئاً من ذلك سواء علم الزوج المطلق ثلاثاً أو لم يعلم ، مثل أن يظن المحلل أن هذا فعل خير ومعروف مع المطلق وامرأته باعادتها اليه ، كما أن الطلاق أضر بهما وبأولادهما وعشيرتها ونحو ذلك ، بل لا يحلل للمطلق ثلاثاً أن دلسة ، نتزوجها حتى ينكحها رجل مرتغباً لنفسه نكاح رغبة لا نكاح دلسه ويدخل بها بحيث تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها ثم بعد هذا اذا حدث بينهما فرقة بموت أو طلاق أو فسخ جاز للأول أن يتزوجها . ولو أراد هذا المحلل أن يقيم معها بعد ذلك ، استأنف النكاح. فان ما مضى عقد فاسد لا يباح المقام به معها .

هذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وهو المأثور عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعامة التابعين لهم بإحسان وعامة فقهاء الاسلام [2] ... »

هذا ومن الحق والانصاف أن يقال أن استخدام الحيل لا يقتصر

---

(١) يشترط في هذا الطلاق ألا يكون مدعياً ، في ثلاثة طهور لا يمس الرجل مزوجته فيها ، وألا يكون في حالة غضب او سكر .

(٢) تابع المجلد الثالث من الفتاوى ص ٤

على المذهب الحنفي فقط ، بل تعداه الى سائر المذاهب الأخرى ، فقد قال الامام ابن تيمية :

« ... وان كثيراً ممن يخالف المشرقيين في مذهبهم ويرى أنه أتبع السنة والأثر وآخذ بالحديث منهم من يتوسع في الحيل ويرق الدين وينقض عرى الاسلام ويفعل في ذلك قريباً أو أكثر مما يحكى عنهم حتى دب الداء الى كثير من فقهاء الطوائف ، حتى أن بعض أتباع الامام أحمد مع أنه كان من أبعد الناس عن هذه الحيل تلطخوا بها ، فأدخلها بعضهم في الايمان وذكروا طائفة من المسائل التي هي بأعيانها من أشد ما أنكر الامام أحمد على المشرقيين وحتى أعتقد بعضهم جواز خلع اليمين وصحة نكاح المحلل ، وجواز بعض الحيل الربوية ، وحتى أن بعض الأعيان من أصحابه سوّغ بعض الحيل في المعاملات مع رده على أصحاب الحيل ! وذلك في مسائل قد نص الامام أحمد على إبطال الحيلة فيها الى اشياء أخر .

وكثر ذلك في بعض المنتسبين الى الشافعي رضى الله عنه وتوسع بعض أصحاب أبي حنيفة فيها توسعاً تدل اصول أبي حنيفة على خلافه ! وحتى أن بعض الائمة من أصحاب مالك تزلزل فيها تزلزل من يرى أن القياس جواز بعضها ، وحتى صار من يفتي بها كأنه يعلم الناس فاتحة الكتاب أو صفة الصلاة ، لا يبين المستفتي أنها مكروهة بالأتفاق ، وأنها محرمة عند كثير من العلماء ، بل أكثرهم ، وعند عامة السلف رضي الله عنهم ، وحتى ألقوا في نفوس كثير من العامة أو أكثرهم أنها حلال وأنها من دين الله سبحانه !

فنجد المؤمن الذي شرح الله صدره للاسلام يكرهها وينفر قلبه منها ، والمفتي بغير علم يقول له هذا حلال ، وهذا جائز ، وهذا لا بأس

به وهو مخطىء في هذه الأقوال باتفاق العلماء ، فإن أقل درجات أكثرها الكراهــة !

وقد ذكرنا اتفاقهم على كراهة التحليل المتواطأ عليه .

وأعلم أن غاية ما يبلغك من الكلمات الشديدةمن بعض الفقهـاء ، فإن أصل ذلك قاعدة الحيل ، فإن القلوب دائماً تنكرها لا سيما قلوب أهل الفقه والعــلم والولاية والهداية ، ويجدون ينبوعهـا عن بعض المفتين ، فيتكلمون بالانـكار عليهم ، ولهذا كان منشأ هذه الحيل من اليهــود ، صار الغاوي من المتفقهة متشبهاً بهم ! وصار أهل الحيل تعــلوهم الذلة والمسكنة لمشاركتهم اليهود في بعض أخلاقهم [1] . »

هذا ــ وقد ذكر الاستاذ محمد أبو زهرة في كتابه (أبو حنيفة) بحثاً مطولاً عن هذه الحيل وكان مما قاله :

« إن الدراسة الفاحصة العميقة لكتاب الحيل والمخارج للحصاف ، ولكتاب الحيل لمحمــد تنتهي بأن حيـل أئمة المذهب الحنفي من النوع الثـاني [2] ، لا من النوع الأول ، فهي من القسم الثالث في الأقسام التي ذكرها ابن القيم وبيناها آنفاً ، يحتال بها على التوصــل الى الحق ، او على دفع الظلم بطريق مباحة لم توضع موصــلة لذلك ، ولكن قصد بها ذلك التوصيل .

---

(١) الفتاوى ج ٣ ص ٦٧ - ٦٨

(٢) كان الاستاذ ابو زهرة قدم لكلامه عن الحيل بكلام لابن القيم نلخصه فيما يلي : يقسم هذا العلامة الحيل عند الفقهاء الى ثلاثة اقسام :

(القسم الاول) الطرق الخفية التي يتوصل بها الى ما هو محرم في نفسه .

(القسم الثاني) ان تكون الحيلة مشروعة وما تفضي اليه مشروع .

(القسم الثالث) أن يحتال على التوصل الى الحق أو على دفع الظــلم بطريق مباحة ، لم توضع موصلة الى ذلك ، بل وضعت لغيره .

وقبل أن نخوض في تقسيم هذه الحيل المأثورة ، نذكر ملاحظة لاحظناها ، وهي تزكي ما قررناه ، وتلك الملاحظة هي إننا لم نجد حيلة في باب من أبواب العبادات في هذين الكتابين ، إلا حيلة واحدة في الزكاة سنذكرها ، وان ابعاد العبادات عن نطاق الحيل في المأثور عن اولئك الأئمة الأعلام ليدل على أنهم لم يقصدوا بحيلهم مدافعة مقاصد الشرع. والاستمساك بظاهر من التكليفات ، إذ أن العبادات أساسها النيات ، وهي بين العبد وربه فهو الذي يحاسب عليها ، وهو العليم الخبير [1] .. »

ونقول في الرد على الشيخ أبي زهرة أنه إذا كان من السهل تبرئة بعض ائمة المذهب الحنفي من حيل النوع الثاني ، فلا يمكن تبرئتهم جميعاً مما حدا بالإمام ابن تيمية الى أن يقول في الكلام الذي سقناه سابقاً : « وتوسع أصحاب أبي حنيفة فيها (أي في الحيل) توسعاً تدل اصول أبي حنيفة على خلافه » فلو لم تكن تلك الحيل من القسم الأول ، فلماذا يحاول شيخ الاسلام تبرئة الامام أبي حنيفة منها ؟!

إن من يدرس كتب الأحناف يجد العجب العجاب من الحيل التي يحرمها الشرع تحريماً مطلقاً وقد ذكرنا بعضها فيما سبق ، وخاصة حيلة التحليل المنكرة المذكورة في كثير من كتب الحنفية . والتي اثبت شيخ الاسلام بطلانها كما رأينا في كتابه «اقامة الدليل على ابطال التحليل» ، وما رأينا من حيلهم في بيع العينة ، والبيع لأجل مما هو احتيال على مزاولة الربا صريح ، وسقوط الصلاة والحج والصوم والزكاة بالحيلة المعروفة التي يجريها اهل الميت ، كل ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه من الرد على أبي زهرة .

وأما قول ابي زهرة « بأنه لم يجد حيلة في باب من أبواب العبادات في هذين الكتابين الا حيلة واحدة في الزكاة ... وأن ابعاد العبادات عن

(١) ص ٢ - ٤ الطبعة الثالثة .

نطاق الحيل ... ليدل على أنهم لم يقصدوا بحيلهم مدافعة مقاصد الشرع...
اذ أن العبادات أساسها النيات ... »

ان في قوله هذا تقليلاً من شأن المعاملات وخطورتها ، مع أنها أهم من العبادات من حيث تعلقها بحقوق العباد التي لا تغفر ذنوبها الا بترضية أصحابها والمعاملات كما لا يخفى هي التي تصار فيها الحيل على الغالب بسبب ما يصحبها من المال وهو من الفتن المخيفة !

قال الامام ابن تيمية ماملخصه:

« ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أن أول ما يفقد من الدين الأمانة وآخر ما يفقد منه الصلاة ، وحدث عن رفع الأمانة من القلوب الحديث المشهور ، وقال خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، فذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ، ثم ذكر أن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ..

والحيل (أي في المعاملات) توجب مزج العهود والأمانات وهو قلقها واضطرابها ، فان الرجل اذا سوغ له من يعاهد عهداً ثم لا يفي به أو أن يؤتمن على شيء ، فيأخذ بعضه بنوع تأويل ، ارتفعت الثقة به وأمثاله [1] .. »

والاحاديث الواردة في المعاملات وعدم الغش والغبن والتغرير فيها ، أكثر من أن تحصى ، وهي ان دلت على شيء ، فإنما تدل على حرص الشارع على بيان خطورتها لمنع التلاعب والحيل فيها !

«١» الفتاوى . ج ٣ ص ١١٩

فتاوى شيخ الاسلام

خرج الامام ابن تيمية على الناس بفتاويه العظيمة التي خالف فيها ما تعارف عليه العلماء فأقاموا عليه النكير شأنهم في كل زمان مع المصلحين المتحررين من القيود المذهبية ، فسعوا في سجنه من أجل كثير منها ، مع أنه رحمه الله كان يأتيهم بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة من القرآن والسنة وأقوال الصحابة .

واذا كان هنالك بعض الاجتهادات له ، فانه قد توفرت فيه جميع شروط الاجتهاد ، ولا ينكر ذلك الا معاند أو جاهل .

وهذه خلاصة بعض هذه الفتاوى :

● القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً ، سواء كان طويلا أم قصيراً ، وفقاً لقول بعض الصحابة ما دامت السنة لم تبين حدود المسافة .

● القول بأن البكر لا تستأمر (اي لا يطلب منها التلفظ بالرضاء) وان كانت كبيرة ، كما هو قول ابن عمر ، واختاره البخاري .

● القول بان سجود التلاوة لا يشترط له وضوء ، كما يشترط للصلاة وهو قول ابن عمر ، واختاره البخاري أيضاً .

● القول بأن من أكل في رمضان معتقداً أنه ليل ، فبان نهاراً لا قضاء عليه ، كما هو قول عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وذهب اليه بعض التابعين ، والفقهاء من بعدهم .

● القول بجواز بيع الاصل بالعصير ، كالزيتون بالزيت والسمسم بالشيرج .

● القول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة ، باستعمال الماء .

● القول بجواز بيع ما يتخذ من الفضة للتحلي وغيره ، كالخاتم ونحوه بالفضة متفاضلاً ، وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصنعة .

● وكان يقول بتوريث المسلم من الذمي ، وله في ذلك مصنف وبحث طويل لم نعثر عليه . وهذه الفتوى فيها نظر !

● القول بكفارة اليمين في الحلف بالطلاق (كأن يقول علّي الطلاق لأفعلن كذا أو لامتنعن عن كذا .. أو علي الطلاق اشتريتها بكذا .. » فيكون ما صدر عنه يميناً يجب عليه كفارة ، وهي اطعام عشرة مساكين ، أو صوم ثلاثة أيام ولا يقع الطلاق به .

يقول الامام ابن تيمية أن علماء المذاهب الاربعة لهم في ذلك قولان أحدهما أنه يقع الطلاق ، والثاني أنه لايقع ، وقاله طائفة من أصحاب الشافعي كالقفال ، وابي سعيد المتولي ، ويقول به يفتي ويقضي في بلاد الشرق والجزيرة والعراق وخراسان والحجاز والشام وبلاد المغرب ، وهو قول داود وأصحابه كابن حزم وكثير من علماء المغرب المالكية وغيرهم ، وقد دل عليه كلام الامام أحمد المنصوص عنه ، واصول مذهبه تؤيد ذلك في غير موضع » .

● لا يقع الطلاق المعلق على شرط ، ان كان لا يقصد الطلاق عند وقوع الشرط ، كأن يقول الرجل لزوجته انك طالق اذا ذهبت الى مكان كذا ، وكان يقصد تخويفها فقط ولا ينوي طلقها ، فذهبت فان الطلاق لا يقع .

● الطلاق المحرم البدعي لا يقع ، كالطلاق في الحيض ، اوطهر مس الرجل زوجته فيه ، وكل ذلك طلاق محرم لا يقع . ودليله حديث النبي ﷺ اذ قال لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقد علم أن عبدالله بن عمر طلق امرأته ، وهي حائض : « مره فليراجعها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم تحيض

ثم تطهر » . وقد رد الامام ابن تيمية على القائلين بوقوع طلاق ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ في كلام طويل خلاصته أنه جاء خلافاً للسنة ، قال عليه الصلاة والسلام: « كل عمل ليس عليه أمرنا فهورد ! »

● القول بان طلاق الثلاث لا يقع الا واحدة ودليله من الكتاب قوله تعالى : « الطلاق مرتان فأمساك بمعروف او تسريح باحسان » فلم يقل طلقتان . وكذلك قوله في سورة الطلاق (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) فكيف يحدث هذا الأمر بالرجوع اذا أغلق المخرج عليه ؟

ودليله من السنة ما ورد عن عبد الله بن عباس انه قال كان «الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة .. »

● عدم وقوع طلاق الغضبان والسكران والمكره لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا طلاق في اغلاق . »

لقد أنقذ ابن تيمية الامرة الاسلامية من التفكك والأولاد من التشرد بهذه الفتاوى ، وفي سبيل الله ما لاقاه من اجل هذه الفتاوى الحقة الجريئة من التعذيب في أعماق السجون ، وقد شعر علماء المسلمين المتأخرين بصواب آرائه وفتاويه فألفت عام ١٩٢٠ لجنة من أصحاب السماحة شيخ الجامع الأزهر ، وشيخ المالكية ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، ومفتي الديار المصرية ، ونائب السادة المالكية وغيرهم من الفقهاء وآمنت بصحة أقوال الامام ابن تيمية وقررت العمل بها في المحاكم المصرية ، ونذكر فيما يلي القانون المصري للمحاكم الشرعية تحت عنوان « الطلاق » :

المادة الأولى : لا يقع طلاق السكران والمكره ! .

المادة الثانية : لا يقع الطلاق غير المنجز اذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه ، لا غيره .

المادة الثالثة : الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو اشارة لا يقع الا واحدة .

المادة الرابعة : كنايات الطلاق ، وهي ما تتحمل الطلاق وغيره ، لا يقع بها الطلاق الا بالنية .

ثم تبعت الجمهورية السورية بتاريخ ١٧ ٩ -١٩٥٣ فأصدرت قانون الأحوال الشخصية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم ٥٩ بالتاريخ السابق ، فتقرر ما يلي :

مادة ٨٩- ١ - لا يقع طلاق السكران ولا المدهوش ولا المكره .

٢ - المدهوش هو الذي فقد تميزه من غضب او غيره فلا يدري ما يقول .

مادة ٩٠ - لا يقع الطلاق غير المنجز اذا لم يقصد به الا الحث على فعل شيء أو المنع منه او استعمل استعمال القسم لتأكيد الاخبار لا غير .

مادة ٩١ - يملك الزوج على زوجته ثلاث طلقات .

مادة ٩٢ - الطلاق المقترن بعدد لفظاً او اشارة لا يقع الا واحدة.

وهكذا انقلبت فتاوى شيخ الاسلام بعد سبعة قرون من وفاته سجيناً في قلعة دمشق بسببها ، الى قوانين مقننة مثار اعجاب الناس اجمعين ؟؟ فليت الأدعياء والمخرفين من أعداء الاسلام الصحيح يأخذون درساً من هذا الحادث ، فلا يقاومون في هذا العصر ، المصلحين الذين يدعون الى وجوب الرجوع الى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ولو خالف الأئمة الأربعة - رضي الله عنهم - لأن ذلك وفق رغباتهم ، فقد أجمعوا على لزوم الأخذ بالحديث ولو خالف المذهب !

المطلقــة

وبعد فهــذه مقتطفات من قصيــدة « المطلقة » للشاعر الكبير معروف الرصافي في الانتصار لمذهب ابن القيم وشيخه ابن تيمية عليهما الرحمة والرضوان . وقد نشرت في آخر « اغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان» ومطلعهــا :

بدت كالشمس يحضنها الغروب ... فتاة راع نضرتهــا الشحوب
منزهة عن الفحشــاء خود ... من الخفرات آنسة عَروب

ومنهــا :

فغاضب زوجها الخلطاء يوماً ... بأمر للخــلاف بـه نشوب
فأقسم بالطــلاق لهم يميناً ... وتلك أليّة خطأ وحوب
وطلقها على جهل ثلاثــاً ... كذلك يجهل الرجل الغضوب
وافتى بالطلاق طــلاق بت ... ذوو فتيا تعصبهم عصيــب
فبانت منــه لم تات الدنايا ... ولم يعلق بهـا الذام المعيب
فظلت وهي باكيــة تنادي ... بصوت منه ترتجف القـلوب
لماذا يا نجيب صرمت حبلي ؟ ... وهل أذنبت عندك يا نجيب؟

ومنهــا :

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى ... وقال ودمع عينيـه سكوب
نجيبــة اقصري عــني فأني ... كفاني من لظى الندم اللهيب
وما والله هجرك باختيــاري ... ولكن هكذا جرت الخطوب

وقد ختمها بقوله :

الا قل في الطلاق لموقعيــه ... بما في الشرع ليس له وجوب
غــلوتم في ديانتكم غــلواً ... يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيســيراً وأنتم ... من التعسير عندكم ضروب !

وقد حلت بأمتكم كروب — لكم فيهن لاهم الذنوب
وهي حبل الزواج ورق حتى — يكاد اذا نفخت له يذوب
كخيط من لعاب الشمس ادلت — به في الجو هاجرة حلوب
يمزقه من الأفواه نفث — ويقطعه من النسم الهبوب

● ● ●

فدى ابن القيم الفقهاء كم قد — دعاهم للصواب فلم يجيبوا
ففي اعلامه للناس رشد — ومزدجر لمن هو مستريب
نحا في ما أتاه طريق علم — نحاها شيخه الحبر الأديب [1]
وبين حكم دين الله لكن — من الغالين لم تعه القلوب
لعل الله يحدث بعد أمراً — لنا فيخيب منهم من يخيب

● ● ●

● ومن فتاوى ابن تيمية واختياراته عدم صرف الزكاة لأهل المعاصي حتى يتوبوا . وقد قال شيخ الاسلام : « انه لا ينبغي أن تعطى الزكاة لمن لا يستعين بها على طاعة الله تعالى ، فانه سبحانه فرضها معونة على طاعته لمن يحتاج اليها من المؤمنين كالفقراء والغارمين ، أو لمن يعاون المؤمنين ، فمن لا يصلي من أهل الحاجات لا يعطى شيئاً حتى يتوب ، ويلتزم الصلاة [2] » .

وقد خالف الاستاذ محمد أبو زهرة[3] ابن تيمية في هذا لثلاث أسباب نلخصها فيما يلي :

(أولها) عموم نصوص القرآن في مصارف الزكاة من غير تخصيص

---

(١) هو الامام ابن تيمية
(٢) الاختيارات العلمية ص ٦١ طبع الكردي .
(٣) كتاب ابن تيمية لأبي زهرة رضي الله عنه

بين مطيع وعاص ، وليس لأحد أن يخصص لمجرد استحسانه من غير نص مخصص .

(ثانيها) أن الزكاة معونة على الحياة ، فهي تعطي للحي لتقوم حياته وتوفر له الضروري من حاجاته .

(ثالثها) أن النبي ﷺ كان يعين المشركين في ضرائهم وذكر مساعدة الرسول لأهل مكة بعد صلح الحديبية بسبب جائحة اصابتهم .

ونقول في الرد عليه أما حجته الأولى ، فتدفع اذا علمنا أن الاسلام أمر بدفعها للمؤلفة قلوبهم من المشركين الذين يكون في اسلامهم مصلحة في تقوية المسلمين ، وليس للمشركين عامة !

وأما حجته الثانية ، فتدفع أيضاً بأن دفعها للعصاة يؤدي الى معاونتهم على المعصية وتماديهم فيها ، ولا يخفى أن جل المعاصي بحاجة الى مال ، فلو لم يكن هذا المال متوفراً لديهم لما ارتكبوها .

وأما حجته الثالثة ، فتدفع كذلك بأن مساعدة ﷺ لأهل مكة قبل الفتح ربما كان يقصد من ورائه غايتين اثنتين :

الأولى : تأليف قلوبهم .

الثانية : مساعدة المؤمنين الذين كانوا يكتمون ايمانهم خشية من مجرمي المشركين ، فلا بد أن يصيبهم شيء من هذا المال الذي ارسله النبي ﷺ .

واننا نرى رأياً وسطاً بين حجة الاسلام ابن تيمية ، وبين محمد أبي زهرة ، فاذا كنا نشعر بميل من العصاة على الطاعة والعودة الى احضان الفضيلة بسبب نصحنا أو نصح غيرنا لهم ، فلا مانع من اعطائهم من الزكاة

رحمة بهم وتأليفاً لقلوبهم ، وأما أن نحس عنادهم ونطبق رأي أبي زهرة على اطلاقه وندخل على العصاة (المصرين) في المواخير والحانات ونوادي القمار ، فندفع لهم الزكاة فيها، او بعد خروجهم منها، فكلام لا يقبل به عاقل ! لاسيما ونحن نعلم ان الفقراء كثيرون ، فأيهم نفضل في دفع الزكاة والصدقة : الفقير التقي الصابر ، أم العاصي الفاجر [1] ؟!

ألا يذكر الأستاذ أبو زهرة قوله عليه الصلاة والسلام: « لا تصاحب الا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك الا تقي !! »

ان الترغيب والترهيب من أهم مناهج الاسلام وتطبقه الجماعات والأفراد في أعمالهم ، فيكافؤون المحسنين ويهملون أو يعاقبون المسيئين تشجيعاً للأولين وحضاً للاخرين على تحسين سلوكهم ، وفي ذلك بلاغ لمن ينادي بمجتمع أفضل وتحقيق المدينة الفاضلة .

سجن الشيخ بسبب فتياه في الطلاق

وفي اليوم الثاني والعشرين من رجب من سنة عشرين وسبعمائة ، عقد مجلس بدار السعادة حضره النائب والقضاة ، وجماعة من المفتين ، وحضره الشيخ [2] ، وعاودوه في الافتاء بمسألة الطلاق ، وعاتبوه على ذلك، وحبسوه بالقلعة ، فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً .

ثم ورد مرسوم السلطان باخراجه ، فأخرج منها يوم عاشوراء ، من سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، وتوجه الى داره .

---

(١) ليست هذه اولى اخطاء الاستاذ أبي زهرة في هذا الموضوع فهو يبيح دفع مال الزكاة ليس للعصاة فحسب ، بل لغير المسلمين من الكفرة والمشركين رحمة بهم كما أعلن رأيه هذا في احدى الحلقات الاجتماعية . وهكذا زاد في الرقة ...

(٢) هو شيخ الاسلام ابن تيمية .

ولم يزل الشيخ بعد ذلك يعلّم الناس ويلقي الدرس بالحنبلية أحياناً، ويقرأ عليه في مدرسته بالقصاصين، في أنواع من العلم.

الكلام على شد الرحال الى القبور

فلما كان في سنة ست وعشرين وسبعمائة وقع الكلام في مسألة شدّ الرحال، وأعمال المطّى الى قبور الأنبياء والصالحين، وظفروا للشيخ بجواب سؤال في ذلك، كان قد كتبه من سنين كثيرة، يتضمن حكاية قولين في المسألة، وحجة كل قول منها.

وكان للشيخ في هذه المسألة كلام متقدم أقدم من الجواب المذكور بكثير. ذكره في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» وغيره. وفيه ما هو أبلغ من هذا الجواب الذي ظفروا به.

وكثر الكلام، والقيل والقال، بسبب العثور على الجواب المذكور وعظم التشنيع على الشيخ، وحُرّف عليه، ونُقِل عنه ما لم يَقُله. وحصل فتنة طار شررها في الآفاق، واشتد الأمر، وخِيفَ على الشيخ من كَيد القائمين في هذه القضية بالديار المصرية والشامية، وكثر الدعاء والتضرع والابتهال الى الله تعالى، وضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة، وجَبُن منهم من كانت له همة.

وأما الشيخ ـ رحمه الله ـ فكان ثابت الجأش، قوي القلب. وظهر صدق توكله واعتماده على ربه.

ولقد اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حق الشيخ فقال أحدهم: ينفى. فنفي القائل.

وقال آخر: يُقطع لسانه، فقطع لسان القائل.

وقال آخر: يُعَزّر، فعزر القائل.

وقال آخر: يُحبس، فحبس القائل.

واجتمع جماعة آخرون بمصر ، وقاموا في هذه القضية قياماً عظيماً ، واجتمعوا بالسلطان ، وأجمعوا أمرهم على قتل الشيخ . فلم يوافقهم السلطان على ذلك .

أمر السلطان بحبس الشيخ بقلعة دمشق

ولما كان يوم الاثنين بعد العصر ، السادس من شعبان من السنة المذكورة ، حضر الى الشيخ من جهة نائب السلطنة بدمشق مشد الأوقاف ، وابن خطير ، أحد الحجاب . وأخبراه : أن مرسوم السلطان ورد بأن يكون في القلعة ، وأحضرا معهما مركوباً . فأظهر الشيخ السرور بذلك ، وقال : أنا كنت منتظراً ذلك . وهذا فيه خير عظيم .

وركبوا جميعاً من داره الى باب القلعة ، وأخليت له قاعة حسنة ، واجري اليها الماء ، ورسم له بالاقامة فيها . وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بأذن السلطان ورُسم له بما يقوم بكفايته .

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرىء بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد بذلك ، وبمنعه من الفتيا .

وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر القاضي الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ بسجن الحكم ، وذلك بمرسوم النائب واذن له في فعل ما يقتضيه الشرع في أمرهم .

واوذي جماعة من أصحابه ، واختفى آخرون ، وعزر جماعة ، ونودي عليهم ، ثم أطلقوا ، سوى الامام شمس الدين محمد بن أبي بكر امام الجوزية ، فانه حبس بالقلعة . وسكنت القضية .

ملخص صورة الفتيا

وهذا ملخص صورة الفتيا وموافقة البغاددة له وغيرهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على محمد وآله .

أما بعد ، فهذه فتيا أفتى بها الشيخ الأمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه .

ما يقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، نفع الله بهم المسلمين ، في رجل نوى السفر الى زيارة قبور الانبياء والصالحين ، مثل نبينا محمد ﷺ وغيره ، فهل يجوز له في سفره أن يقصر الصلاة ؟ وهل الزيارة شرعية أم لا ؟ ؟

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال « من حج ولم يزرني فقد جفاني » « من زارني بعد موتي ، كمن زارني في حياتي » وقد روي عنه ﷺ أيضاً أنه قال « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .

أفتونا مأجورين رحمكم الله .

خلاصة الجواب

الحمد لله رب العالمين .

أما السفر الى بقعة غير المساجد الثلاثة ، فلم يوجب أحد من العلماء السفر اليه اذا نذره ، حتى نص العلماء على أنه لا يسافر الى مسجد قباء ، لأنه ليس من المساجد الثلاثة ، مع أن مسجد قباء يستحب زيارته لمن كان في المدينة . لان ذلك ليس بشد رحل . كما جاء في الحديث الصحيح : « من تطهر في بيته ، ثم أتى مسجد قباء ، لا يريد الا الصلاة فيه ، كان كعمرة » .

قالوا : ولأن السفر الى زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، لم يفعلها

أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا أمر بها رسول الله ﷺ ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، فمن اعتقد ذلك عبادة ، وفعله ، فهو مخالف للسنة ولاجماع الأئمة !

وهذا مما ذكره أبو عبد الله بن بطّه في الابانة الصغري من البدع المخالفة للسنة والاجماع .

وبهذا يظهر بطلان حجة أبي محمد المقدسي ، لأن زيارة النبي ﷺ لمسجد قباء لم تكن بشد رحل ، ولأن السفر اليه لا يجب بالنذر .

وقوله : بأن الحديث الذي مضمونه « لا تشد الرحال » : محمول على نفي الاستحباب ، يجاب عنه بوجهين :

أحدهما ـ أن هذا ـ ان سلم : فيه أن هذا السفر ليس بعمل صالح ، ولا قربة ، ولا طاعة ، ولا هو من الحسنات . فاذاً من اعتقد أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين قربة وعبادة وطاعة ، فقد خالف الاجماع واذا سافر لاعتقاد أن ذلك طاعة ، كان ذلك محرماً باجماع المسلمين ، فصار التحريم من جهة اتخاذه قربة ، ومعلوم أن أحداً لا يسافر اليها الا لذلك .

وأما اذا نذر الرجل أن يسافر اليها لغرض مباح ، فهذا جائز ، وليس من هذا الباب .

الوجه الثاني : أن هذا الحديث يقتضي النهي ، والنهي يقتضي التحريم . وما ذكروه من الأحاديث في زيارة قبر النبي ﷺ فكلها ضعيفة ، باتفاق أهل العلم بالحديث ، بل هي موضوعة !! لم يرو أحد من أهل السنن المعتمدة شيئاً منها ، ولم يحتج أحد من الأئمة بشيء منها ، بل مالك ـ أمام أهل المدينة النبوية الذين هم أعلم الناس بحكم هذه المسألة ـ كره أن يقول الرجل : زرت قبر النبي ﷺ ، ولو كان هذا اللفظ

معروفاً عندهم ، أو مشروعاً ، أو مأثوراً عن النبي ﷺ لم يكرهه عالم أهل المدينة !!

والامام أحمد أعلم الناس في زمانه بالسنة ، لما سئل عن ذلك ، لم يكن عنده ما يعتمد عليه في ذلك من الأحاديث ، الا حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ما من رجل يسلم عَلَّي الا رد الله عَلَّي روحي حتى أرد عليه السلام » .

وعلى هذا اعتمد أبو داوود في سننه .

وكذلك مالك في الموطأ ، روي عن عبد الله بن عمر « أنه كان اذا دخل المسجد قال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ، ثم ينصرف » .

وفي سنن أبي داوود عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عَلَّي ، فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » .

وفي سنن سعيد بن منصور « ان عبد الله بن حسن بن علي ابن أبي طالب ، رأى رجلاً يختلف الى قبر النبي ﷺ فقال له : ان رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا علي ، فان صلاتكم حيثما كنتم تبلغني » فما أنت ورجل بالاندلس منه الا سواء » !

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا ، ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكنه كره أن يتخذ مسجداً .

وهم دفنوه ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها ، خلاف ما اعتادوه من الدفن في الصحراء . لئلا يصلي أحد عند قبره ويتخذه مسجداً ، فيتخذ قبره وثناً .

وكان الصحابة والتابعون — لما كانت الحجرة النبوية منفصلة عن

المسجد، الى زمن الوليد بن عبد الملك ـ لا يدخل أحد اليه، لا لصلاة هناك، ولا تمسح بالقبر، ولا دعاء هناك. بل هذا جميعه انما كانوا يفعلونه في المسجد.

وكان السلف من الصحابة والتابعين اذا سلموا على النبي ﷺ وأرادوا الدعاء دعوا مستقبلي القبلة، ولم يستقبلوا القبر!

وأما الوقوف للسلام عليه، صلوات الله عليه وسلامه، فقال أبو حنيفة: يستقبل القبلة أيضاً، ولا يستقبل القبر!

وقال أكثر الائمة: يستقبل القبر عند الدعاء.

وليس في ذلك الا حكاية مكذوبة، تروى عن مالك، ومذهبه بخلافها.

واتفق الائمة على أنه لا يمس قبر النبي ﷺ ولا يقبله.

وهذا كله محافظة على التوحيد، فان من اصول الشرك بالله: اتخاذ القبور مساجد، كما قال طائفة من السلف في قوله تعالى: «وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن وداً، ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا» قالوا «هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا على صورهم تماثيل، ثم طال عليهم الامد فعبدوها».

وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا المعنى عن ابن عباس.

وذكره محمد بن جرير الطبري وغيره في التفسير عن غير واحد من السلف وذكره وثيمة [1] وغيره في قصص الانبياء، من عدة طرق.

وقد بسطت الكلام على اصول هذه المسائل في غير هذا الموضع [2].

---

(١) بفتح الواو وكسر الثاء واسكان الياء وفتح الميم.

(٢) في قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، وفي الرد على الاخنائي والبكري، وفي اقتضاء الصراط المستقيم، وفي منهاج السنة. وغير ذلك كثير.

وأول من وضع هذه الاحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور: أهل البدع ، من الرافضة ونحوهم ، الذين يعطلون المساجد ، ويعظمون المشاهد ، يدعون بيوت الله التي أمر أن يذكر فيها اسمه ، ويعبد وحده لا شريك له ، ويعظمون المشاهد التي يشرك فيها ويكذب ، ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً ، فان الكتاب والسنة ، انما فيها ذكر المساجد ، دون المشاهد ، كما قال تعالى « قل أمر ربي بالقسط ، واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين » .

وقال تعالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » .

وقال تعالى : « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد » .

وقال تعالى : « وان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً » .

وقال تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ؟ »

وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح : أنه كان يقول « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد،فاني أنهاكم عن ذلك » .

● ● ●

هذا آخر ما أجاب به شيخ الاسلام ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وله من الكلام في مثل هذا كثير ، كما أشار اليه في الجواب .

ولما ظفروا في دمشق بهذا الجواب كتبوه ، وبعثوا به الى الديار المصرية وكتب عليه قاضي الشافعية :

قابلت الجواب عن هذا السؤال ، المكتوب على خط ابن تيمية . فصح ـ الى أن قال: وانما المحرف جعله : زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الانبياء صلوات الله عليهم معصية بالاجماع مقطوع بها .

هذا كلامه . فانظر الى هذا التحريف على شيخ الاسلام ، والجواب ليس فيه المنع من زيارة قبور الانبياء والصالحين ، وانما ذكر فيه قولين في شد الرحل والسفر الى مجرد زيارة القبور . وزيارة القبور من غير شد رحل اليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة اخرى .

والشيخ لا يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل ، بل يستحبها ، ويندب اليها . وكتبه ومناسكه تشهد بذلك . ولم يتعرض الشيخ الى هذه الزيارة في الفتيا ، ولا قال : انها معصية ، ولا حكى الاجماع على المنع منها . والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية .

● ● ●

ولما وصل خط القاضي المذكور الى الديار المصرية ، كثر الكلام وعظمت الفتنة ، وطلب القضاة بها ، فاجتمعوا ، وتكلموا ، وأشار بعضهم بحبس الشيخ ، فرسم السلطان به[1].

قال الاستاذ محمد ابو زهرة معلقاً على هذه القضية :

هذه احدى القضايا التي اثار غبارها ابن تيمية في قوة وعنف ، وقرع بها مشاعر معاصريه قرعاً شديداً وأزعجهم بها ازعاجاً شديداً .

والاساس الذي بنى عليه ابن تيمية قوله ، هو افراد الله وحده بالعبادة ، والبعد عن الوثنية وكل ذرائعها ، ثم حمل نصوص النهي عن الوثنية على زيارة القبور ، وخصوصاً قبر الرسول .

ونحن قد نميل الى قوله في زيارة قبور الصالحين ، اما زيارة قبر النبي ﷺ فانما نخالفه فيه مخالفة تامة ، وذلك لان الاساس الذي بنى عليه قوله هو الوثنية ، فان كان يريد ان زيارة القبر الشريف هو في ذاته نوع من الوثنية فهو غريب ، فانك كما تفسره بأنه وثنية يصح ان تفسره بأنه وحدانية ومبالغ فيها ، لان زيارة قبر نبي الوحدانية

(١) العقود الدرية ص٣٢٦ باختصار

استشعار لحقيقتها ، وتقديس لمعناها ، فان التقديس الذي يتصل بالرسل انما هو من فكرتهم ، وهدايتهم ، فالتقديس لمحمد تقديس للمعاني التي دعا اليها وحث عليها ، وكيف يتصور من مؤمن يعرف حقيقة الدعوة المحمدية انه يكون مستشعراً لأي معنى من معاني الوثنية ، وهو يستعبر العبر ، ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة ؟

واذا كان خوف ابن تيمية من ان يؤدي ذلك الى الوثنية بمضي الاعصار والدهور ، فانه خوف في غير مخاف ، لان الناس كانوا يزورون قبر الرسول الى اول القرن الثامن ، ثم بتوالي العصور من بعده الى يومنا هذا . ومع ذلك لم ينظر احد اليه نظرة عبادة ، او وثنية ، نعم تفرط من العامة عبارات كالتوسل بجاهه، او الاستشفاع بشفاعته وهي عبارات لا وثنية فيها ، بل تؤول بأقرب تأويلاتها ، ويفهم الجاهلون ، ولا تمنع تلك الذكريات العطرة لاجل عبارات من العوام يحسن ارشادهم لا منعهم من الزيارة ، وتفهيمهم لا تكفيرهم ، وان الله سبحانه قد صان التوحيد الى يوم القيامة ، وقد ذكر ذلك محمد ﷺ في آخر حياته ، وبشر به المؤمنين ، وهو ان الشيطان قد يئس ان يعبد في ارض العرب ، فليس لابن تيمية ان يخاف على التوحيد من بعد .

وان الآثار عن السلف الصالح تثبت انهم - رضي الله عنهم - كانوا يتبركون بزيارة قبره الشريف ، ولم يجدوا فيه وثنية ولا ما يشبهها . ألم يكن الشيخان الجليلان ابو بكر وعمر حريصين على ان يدفنا بجوار جثمانه الكريم ﷺ ولم يريا في ذلك وثنية او ما يشبه الوثنية .

ولقد روى ابن تيمية – رضي الله عنه – ان السلف الصالح – رضوان الله تبارك وتعالى عليهم – كانوا يسلمون على النبي ﷺ كلما مروا على الروضة الشريفة ، قال نافع كان ابن عمر يسلم على القبر – رأيته مائة مرة او اكثر يجيء الى القبر ، فيقول السلام على النبي ﷺ ،

السلام على ابي بكر ، السلام على أبي ، ورؤي واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه .

ولقد قال ابن وهب ان الامام مالكاً ـ رضي الله عنه ـ قال : « لا بأس لمن قدم من سفر او خرج الى سفر ان يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو لأبي بكر وعمر ، قيل : فان اناساً من اهل المدينة لا يقدمون من سفر ، ولا يريدونه يفعلون ذلك اليوم مرة او اكثر ، وربما وقفوا في الجمعة او الايام المرة او المرتين او اكثر عند القبر ، فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال مالك لم يبلغني ذلك عن اهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح بها اولها ، ولم يبلغني عن اول هذه الامة وصدرها انهم كانوا يفعلون ذلك ويكره الا لمن جاء من سفر او أراده[1] » .

ولقد حكى ابن تيمية عن اكثر الائمة انهم يرون ان يستقبل القبر الشريف عند الدعاء[2] .

هذه النقول وغيرها مما جرى على قلم ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ تدل على جواز زيارة قبر الرسول ﷺ ، وقد دل من هذه الاخبار :

(١) كثرة زيارتهم لقبره عليه السلام ، حتى ان ابن عمر زاره اكثر من مائة ، وان نافعاً تلميذه رآه يضع يده على مقعد رسول الله ﷺ على منبره ثم يضعها على وجهه .

(٢) تجويز بعض الائمة ان يدعو الزائر للقبر متجهاً الى القبر ، وعلى ذلك اكثر الائمة .

(٣) وان مالكاً ـ رضي الله عنه ـ يحث على زيارة القبر عند السفر ، وعند العزم عليه .. وهكذا مما نقل تقي الدين .

---

(١) « قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة » ص ٥٥

(٢) « العقود الدرية » ص ٣٢٨

واذا لم يكن هـذا مسوغاً للزيارة والتذكر بالقرب من الروضة الشريفة فماذا يكون المسوغ ؟ وان الحديث الصحيح « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد » هو دليل على شرف البقعة التي حل فيها محمد ﷺ حيـا ، ودفن فيها ميتاً ، فقد كان شرف الكعبة انهـا بيت الله واول بيت وضع للنـاس، وشرف المسجد الاقصى ، لانـه مسجد الانبياء السابقـين وموضع الاسراء ، ومنه كان المعراج ، فماذا يكون شرف المسجد المحمدي ؟ انمـا شرفه من اقامة الو   ونه كان مكان النور المحمدي ، والهـدى الاسلامي . وان شد الرحال اليه لـيرى الرائي موطن الوحي ، ومنازل النبوة ، وان تلك الذكريات كما تتحقق في المسجد الشريف تتحقق في الروضة الشريفة ، بيد ان هذا يصلى فيه ، وتلك لا يصلى فيها ، لموضع النهي من ان يتخذ القبر مسجداً ، فيقتصر على مورد النهي .

يسأل ابن تيميـة لماذا اختـار النبي ﷺ ان يكـون مدفنه في مسكنه وهو حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ؟ ويختـار الجواب ، وهو ألا يتخذ قبره مسجداً ، ولا يكون موضع عبادة ، وقد يكون ذلك جواباً سليماً ، او هو جزء من جواب صحيـح ، والجزء الثاني ان يكون قبره قريباً من مسجده ، وان يكون قبره معروفاً غير مجهول ، فانه لو دفن بالبقيع في الصحراء فقد يجهـل موضعه ، ويكـون بعيداً عن مسجده ، امـا اذا دفن في حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، فانـه يكون قريباً من مهبط الوحي ، ومبعث الدعوة ، ومكان التنزيل .

وبعد فانا نخـالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر الرسول والمناجاة عنده ، وعدم الندب اليها ، وان التبرك الذي نريده ليس هو

العبادة او التقرب الى الله بالمكان ، وانما التبرك هو التذكر والاعتبار والاستبصار ، أي امرىء مسلم علم حياة النبي ﷺ وسيرته وهدايته ، وغزواته وجهاده ، ثم يذهب الى المدينة ، ولا يحس بأن في هذا المكان كان يسير الرسول ، ويدعو ، ويعمل ويدبر ويجاهد ، او لا يعتبر ولا يستبصر ، او لا يحس بروحانية الاسلام ، وعبقرية النبي الامين او لا تهز اعطافه محبة الله ورسوله ، والأخذ بما أمر الله به ، والانتهاء عما نهى عنه ، الا من أعرض عن ذكر الله ، ولم يكن من أولي الابصار . ان الزيارة الى قبر الرسول هي الذكرى والاعتبار ، والهدى والاستبصار . والدعاء عند القبر ، دعاء والقلب خاشع ، والعقل خاضع ، والنفس مخلصة ، والوجدان مستيقظ ، وان ذلك أبرك الدعاء[1] !» .

ونستطيع ان نلخص رد الاستاذ محمد أبي زهرة السابق على حجة الاسلام ابن تيمية بالنقاط التالية :

(اولها) ان شيخ الاسلام يقول بتحريم زيارة قبر صالح بعينه . ويميل ابو زهرة الى تأييده في ذلك ، ويخالفه في زيارة قبر النبي ﷺ .

ان هذا الكلام جهل بقصد ابن تيمية ، طالما كرره الاستاذ ابو زهرة في كتابه ، وفي محاضرته التي القاها في مهرجان الامام ابن تيمية في دمشق ، انه لم يميز بين نهي شيخ الاسلام عن شد الرحال الى زيارة قبور الصالحين ، وبين زيارتهم ، فان زيارتهم مندوبة ! وشتان بين الزيارة وبين شد الرحال للزيارة المنهي عنها في الحديث المشهور ، لما فيها من الغلو في الدين ، وهو محرم ، لقوله ﷺ : « لا تجعلوا قبري عيداً ، صلوا علي أينما شئتم » ..

---

(١) عن كتاب ابن تيمية للاستاذ ابي زهرة ص ٣٣٥ - ٣٣٨ .

والغريب ان يوافق ابو زهرة حجة الاسلام ابن تيمية ـ على حد رأيه ـ في زيارة قبور الاشخاص العاديين ويخالفه في زيارة قبور غيرهم من الانبياء والاولياء، مع ان الفتنة أشد !!

(ثانيها) ان زيارة قبر الرسول تستشعر العبر، ولا تحصل فيها وثنية.

كيف يقول الاستاذ ابو زهرة ذلك، وقد ضج المخلصون العارفون مما يحصل عند قبر النبي ﷺ وقبور غيره من الانبياء والاولياء من مظاهر الشرك كالاستغاثة بهم والدعاء والنذر لهم والتمسح بقبورهم.!؟

(ثالثها) قال الاستاذ ابو زهرة: ان الله سبحانه صان التوحيد الى يوم القيامة بقوله عليه الصلاة والسلام « الشيطان يئس ان يعبد في ارض العرب » فليس لابن تيمية ان يخاف على التوحيد من بعد !

غريب ان يصدر مثل هذا الكلام عن الاستاذ أبي زهرة، انه جهل بمعنى هذا الحديث المقصود منه اليأس من عبادة الشيطان عبادة عامة، فتنقلب الامة الى امة وثنية مشركة، اما ان تنقلب طائفة او اكثر منها، فتعبد الانبياء والاولياء، فذلك واقع، بل قد وقع فعلا، وقد أنبأ الله ـ سبحانه ـ نبيه بذلك في حديث: « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ! » ومن سنن من كان قبلنا هذه الشركيات التي ظهرت في كثير من المسلمين قديماً وحديثاً. ولولا خشية الشرك لما نهى الرسول ﷺ عن رفع القبور والبناء عليها، واتخاذ الصور. ولولا خشية الشرك لما قال عليه الصلاة والسلام: « اللهم لا تجعل قبري وثناً

يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد ! » ولولا خشية الشرك لما سارع الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الى قطع شجرة الرضوان لما رأى صلاة الناس عندها ، فلماذا فعل امير المؤمنين ذلك ؟ لماذا لا يضع يديه في الماء البارد بناء على الحديث الذي ذكره الاستاذ ابو زهرة ؟

حقاً انه استنتاج غريب !

ويحسن بنا اتماما للبحث وتثبيتاً لما قلناه ان نسوق للشيخ ابي زهرة الحديث الصحيح الآتي ، لعله يرجع عن رأيه قال النبي ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس (قبيلة عربية) حول صنم لها يقال له ذو الخليصة » !

وهل نسي ابو زهرة الحديث القائل : الشرك في امتي أخفى من دبيب النمل ؟

(رابعها) قوله : رئي ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ، ثم وضعها على وجهه .

ان هذا ، ان صح ، فليس بحجة ، فان ابن عمر - رضي الله تعالى عنه - ليس مشرعاً ، لا سيما وقد روى عنه - كما ذكر الاستاذ - كثرة الزيارات لقبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو من الغلو كما قال الامام مالك في الكلام الذي نقله الاستاذ ابو زهرة .

قال : قال ابن وهب ان الامام مالكاً - رضي الله تعالى عنه - قال : « لا بأس لمن قدم من سفر او خرج الى سفر ان يقف على قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيصلي عليه ويدعو لأبي بكر وعمر ، قيل فان ناساً من اهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه ، يفعلون ذلك اليوم مرة او اكثر ، وربما وقفوا في الجمعة او الايام المرة او المرتين ، او اكثر عند القبر ، فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال مالك : لم يبلغني ذلك

عن اهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ! ولا يصلح آخر هـذه الامة الا بما صلح به اولها ! ولم يبلغني عن اول هذه الامة وصدرها انهم كانوا يفعلون ذلك ، ويكره الا لمن جاء من سفر او أراده[1] .

(خامسها) ومن قوله : والحديث الصحيح « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد » هو دليل على شرف البقعة التي حل فيها محمد ﷺ ودفن فيها ميتاً .

لقد نسي الاستاذ ان النبي ﷺ لم يدفن في المسجد ، انما دفن في حجرة عائشة ، ثم أدخلت فيه ـ ويا للأسف ـ زمن الوليد ابن عبد الملك .

كيف يمكن ان يدفن صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد ، والصحابة يعلمون انكاره ذلك في مثل قوله : « اشتد غضب الله على قوم جعلوا قبور أنبيائهم مساجد » !

(سادسها) وقوله : ويسأل ابن تيمية لماذا اختار النبي ﷺ ان يكون مدفنه في مسكنه ، وهو حجرة عائشة رضي الله عنها .

ان الذي اختار ذلك هو الله تعالى لا النبي ﷺ ، بقوله عليه الصلاة والسلام : « ما من نبي مات او يموت الا دفن في الموضع الذي مات فيه ! » وقد ذكر ابو بكر الصديق الصحابة بهذا الحديث لما اختلفوا في موضع دفنه !

(سابعها) وقوله : وعبقرية النبي الامين ..

ان كلمة عبقرية تقال للابطال والعظماء ، وقياس الانبياء عليهم فيه ايهام بأن النبوة هي عنصر كسبي لا فطري ، ومن مواهب البشر ، واذا صدرت امثال هذه التعابير من الاستاذ عباس محمود العقاد فله بعض

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٥٥ .

العذر اما ان يصدر ذلك من استاذ كلية الشريعة ، فأمر غير مقبول .

(ثامنها) رقوله : وبعد فإنا نخالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر الرسول ﷺ والمناجاة عنده وعدم الندب اليها ..

يظهر ان الشيخ أبا زهرة أغلق عليـه فهم كلام الامام ابن تيمية حتى راح يقول : إنا نخالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر النبي ﷺ .

نقول : حاشا شيخ الاسلام ابن تيمية ان يقول بمنع زيارة قبر النبي ﷺ[1] مما لا يتصور ان يقول به مؤمن ! وخلاصة قول حجة الاسلام انه يذكر بما نهى عنه الرسول ﷺ عن شد الرحال للزيارة. أما من شد الرحال الى مسجده ﷺ ، فيترتب عليه زيارة قبره والدعاء له ، ومن لم يفعل ذلك كان ملاماً ؟

قال الامام مالك رحمه الله ، لسائل سأله : انـه نذر ان يأتي قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « ان كان أراد مسجد النبي ﷺ ، فليأته ، وليصل فيه ، وان كان أراد القبر فلا يفعل ، للحديث الذي جاء « لا تعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد »[2]

---

(١) لقد أعاد الشيخ ابو زهرة مثل هذه العبارة في كتابه المذاهب الاسلامية (ص ٣١٧) عن السلفيين اتباع ابن تيمية فقـال « ويعتقدون ان زيارة الروضة الشريفة مستقبلا لها مناف للوحدانية » وهو غير صحيح الغاية منه اثارة العوام والغوغاء على السلفيين وهم اكثر المسلمين احتراماً للرسول – صلى الله عليه وسلم – واتباعاً له. والسلفيون يمنعون استقبال القبر في الدعاء ،لا مجرد استقباله ! وذلك، لان الدعاء عبادة، والعبادة لا يستقبل بها القبر؟

(٢) العقود الدرية ص ٣٥٤

صدى سجنه في العالم الاسلامي

وبعد فانه لما قرع اسماع اهل البلاد الشرقية والضواحي العراقية التضييق على شيخ الاسلام ابن تيمية ، عظم ذلك على المسلمين ، وشق على ذوي الدين ، وارتفعت رؤوس الملحدين ، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين ، ولما رأى علماء أهل هذه الناحية ، عظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع وأهل الأهواء ، بأكابر الافاضل وأئمة العلماء ، أنهوا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع ، الى الحضرة الشريفة السلطانية ، ... وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ في فتاواه ، وذكروا من علمه وفضله ، بعض ما هو فيه ، وحملوا ذلك الى بين يدي ملك الأمراء ، غيرة منهم على هذا الدين ، ونصيحة للإسلام وأمراء المؤمنين .

فقد أرسل كبار علماء بغداد ودمشق من الشافعية والمالكية والحنابلة رسائل كثيرة الى السلطان ينتصرون فيها لشيخ الاسلام ابن تيمية ويؤيدونه في مسألة شد الرحال للقبور بالادلة القاطعة والحجج الدامغة ، وقد ذكرت هذه الأجوبة مفصلة في كتاب العقود الدرية[1] .

وقد عقد العلامة محمد كرد علي رحمه الله في كتابه « كنوز الأجداد » فصلاً عن ابن تيمية قال فيه بمناسبة حادثة شد الرحال :

« ان استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين ، وفي غير ذلك من البدع التي أقروها ،والشريعةتنكرها إنكاراً ظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز وهدي ﷺ والصحابة والتابعين والعلماء العاملين واغتياظهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة ، كان من نتائجه

---

(١) العقود الدرية ٣٤٢ — ٣٦٠

مسخ الشريعة عند المتأخرين وبقيت الامة على إقرار الخرافات والبدع الى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة[1] !

وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الاصلية رغم أنوف الخواص فركبوا عار الابد ، ولعنوا بما بدلوا وحرفوا ، وهو لم يأت ببدع ، وهم سلموا بكل البدع ، فكان العالم العامل حقاً وكانوا عبدة أوهام وضلالات ، أراد شرعاً نقياً من الأدران ، وهم قد تساوت عندهم النقاوة والنفاية ، لانهم يقصدون من مناقشتهم الظهور ، وكسب قلوب الغوغاء . على كل حال لو عمت دعوة ابن تيمية ، ولدعوته ما يماثلها في المذاهب الاسلامية ، ولكنها عنده حارة ، وعند غيره فاترة ، لسلم هذا الدين من تخريف المخرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الدنيا والاسلام يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى بالتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخيال والخبال .»

حال الامام في السجن

ذكر صاحب الكواكب الدراري :

ولما ورد أمر بسجن شيخ الاسلام ابن تيمية بقلعة دمشق أظهر السرور بذلك وقال : اني كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير عظيم .
ونقل عنه وارث علومه العلامة ابن قيم الجوزية الذي حبس بقلعة دمشق معه ، في كتابه « الكلم الطيب والعمل الصالح » انه قال :

ما يصنع أعدائي بي ؟

أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي لا تفارقني !

---

(١) ما عدا الديار السعودية بفضل خلف ابن تيمية الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

أنا حبسي خلوة !

وقتلي شهادة !

وإخراجي من بلدي سياحة !

وكان يقول في مجلسه في القلعة :

لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ، ما عدل عندي شكر هذه النعمة .

او قال :

ما جزيتهم على ما تسببوا الي فيه من الخير .. ونحو هذا .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس :

اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ماشاء الله !

وقال لي مرة :

المحبوس من حبس قلبه عن ربه!

والمأسور من أسره هواه!

ولما دخل ووصل القلعة وصار داخل سورها نظر اليه وقال :

« فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب ! »

وعلم الله مارأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارجاف ، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً ، واقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه . وكنا اذا اشتد بنا الخوف ، وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الارض ، أتيناه فما هو الا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، فينقلب انشراحاً وقوة ويقينا وطمأنينة .

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم ابوابها فيدار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها مااستفرغ قواهم لطلبها والمسابقة اليها .

وكان بعض العارفين يقول :

لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .» اه

صنيع الامام في سجنه

لم يحل السجن بين الامام ابن تيمية وبين فكرته الاصلاحية ، ولم تفتر له همة طوال مدة سجنه ، فقد انصرف الى التأليف والتصنيف والرد على خصوم الاسلام ، وعلى المبتدعين ، وكتب في تفسير القرآن العظيم معان لطيفة ونفائس دقيقة ، وبين ذلك في مواضع كثيرة .[1]

وقد كان عمله المفيد هذا ، يغضب خصومه من المقلدين والمبتدعين ، بدل أن يسرهم ، فكانوا يسعون لدى الدولة لنقله من سجن الى آخر ليصرفوا عنه حتى السجناء ، ولكنه كان يزداد شهرة وتألقاً . وأخيراً شكوا أمره الى السلطان وطالبوا بقتله مراراً ! غير أن السلطان لم يصغ لكلامهم واكتفى بأن أصدر مرسوماً باخراج ماعند الامام من الكتب،

---

(١) ولما كان في سجنه في مصر خصص للمساجين قسماً من وقته : « لقد وجدهم مشتغلين بانواع اللعب يتلهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد ونحو ذلك من تضييع الصلوات ، فانكر الشيخ عليهم ذلك اشد الانكار ، وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه الى الله تعالى في الاعمال الصالحة ، والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنة مايحتاجون اليه ، ورغبهم في اعمال الخير ، وحضهم على ذلك ، حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيرا من الزوايا والربط والخوانق والمدارس وصار خلق من المحابيس اذا اطلقوا يختارون الاقامة عنده ، وكثر المترددون اليه حتى كان السجن يمتلىء بهم » العقود الدرية ص ٢٦٩

ولم يبق عنده ولا ورقة ولامحبرة ولا قلم ! فكان بعد ذلك اذا كتب شيئاً الى أصحابه وتلامذته ، كتبه بفحم ! وقد وجدت رسائل مكتوبة بالفحم ، وفيما يلي نذكر احدى هذه الرسائل ، وهي أن دلت على شيء، فانما تدل على جميل صبره ، ورضاه بقدر الله سبحانه ، وعلى مبلغ خبث خصومه وعدائهم للعلم والاسلام الصحيح !

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة ، متوفرة ، وجميع مايفعله الله ، فيه نصر الاسلام، وهو من نعم الله العظام . و « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . فان الشيطان استعمل حزبه في افساد دين الله، الذي بعث به رسله ، وأنزل كتبه .

ومن سنة الله : أنه اذا أراد اظهار دينه ، أقام من يعارضه ، فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق!

والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ وحده ، بل مخالفة لدين جميع المرسلين ابراهيم ، وموسى ، والمسيح ومحمد خاتم النبيين ـ صلى الله عليهم أجمعين ـ[1]

وقد أشار ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ في هذه الرسالة الى حادثة اخراج كتبه وتصانيفه من السجن ، فقال :

وكانوا (أي المقلدة والخرافيون) قد سعوا في أن لايظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب ، وجزعوا من ظهور الاخنائية[2]

(١) ويقصد بذلك شد الرحال الى القبور والاستعانة بها والنذر لها والخوف منها ، مما يخالف ابسط مبادىء التوحيد ، وفي بعضه كفر ، العياذ بالله!

(٢) رسالة في الرد على ابن الاخنائي قاضي المالكية بمصر . وقد طبعت بمصر في المكتبة السلفية.

فاستعجلهم الله تعالى حتى أظهروا أضعـــاف ذلك وأعظم ، وألزمهم بتفتيشه ومطالعته ، ومقصودهم اظهار عيوبه، ومايحتجون به ، فلم يجدوا فيه الا ماهو حجة عليهم ، وظهر لهم جهلهم ، و كذبهم وعجزهم ، وشاع هذا في الارض ، وأن هذا مما لايقدر عليه الا الله ، ولم يمكنهم أن يظهروا علينا فيه عيباً في الشرع والدين ، بل غاية ماعندهم : أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين ، والمخلوق كائن من كان ، اذا خالف أمر الله تعالى ورسوله ، لم يجب ، بل ولايجوز طاعته ، في مخالفة أمر الله ورسوله باتفاق المسلمين !

وقول القائل (عني) : أنه يظهر البدع ، كلام يظهر فساده لكل مستبصر ، ويعلم أن الأمر بالعكس ، فان الذي يظهر البدعـــة ، اما أن يكون لعدم علمه بسنة الرسول ، أو لكونه له غرض وهوى يخالف ذلك ! وهو أولى بالجهال بسنة رسول الله ، واتباع هوا هم بغير هدى من الله (ومن أضل ممن اتبع هو اه بغير هدى الله) ، ممن هو أعلم بسنة الرسول منهم ، وأبعد عن الهوى والغرض في مخالفتها (ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون. انهم لم يغنوا عنك من الله شيئاً ، وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين) .

وهذه قضية كبيرة لها شأن عظيم « ولتعلمن نبأه بعد حين ».

(ثم ذكر ابن تيمية في الورقة كلاماً لايمكن قراءته جميعه بسبب انطماسه بالفحم جزى الله الخرافيين عنه بما يستحقون !!)

وبعد ذلك وصف شيخ الاسلام عمله في ميدان الاصلاح الديني وضد المبتدعة فقال :

بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان ، والجبلية ، والجهمية ، والاتحادية (حينما قاتلهم مع السلطات الحكومية) وامثال ذلك ، وهذا

من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لايعلمون !

وقد اعتبر شيخ الاسلام ابن تيمية اخراج الكتب والاوراق من عنده من أعظم النكبات بسبب ضياع كثير مما كان يجول في نفسه، ويود نشره على الناس !

وأقبل الامام بعد ذلك على العبادة وتلاوة القرآن والذكر والتهجد حتى وافته منيته . وختم القرآن مدة اقامته بالقلعة ثمانين أو احدى وثمانين ختمة ، انتهى في نهاية ختمة الى آخر سورة اقتربت الساعة (ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

وكان كل يوم يقرأ ثلاثة اجزاء، يختم في عشرة أيام ، هكذا أخبر أخوه زين الدين ، وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوما، ومدة سجنه الأخير في قلعة دمشق سنتان وثلاثة أشهر وأياما ، لم يقبل خلالها – ولا قبلها لما سجن في مصر – شيئاً من الكسوة السلطانية ، ولا من الادرار السلطاني ، ولاتدنس بشيء بين ذلك . كما أخبر بذلك نائب السلطنة بدمشق [1].

ابتهالات

وقد أنشد شيخ الاسلام في سجنه هذه الابيات التي وجدت بخطه في القلعة :

أنا الفقير الى رب السموات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي، وهي ظالمتي ... والخير، إن جاءنا، من عنده يأتي
لا استطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس في دفع المضرات

---

(١) العقود الدرية باختصار.

وليس لي دونه مولى يدبرني ... ولاشفيع الى رب البريات
ولست أملك شيئاً دونه أبداً ... ولا شريك أنا في بعض ذراتي
ولاظهـير له كيما أعاونـه ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبـد له آتي
فمن بغى مطلباً من دون خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملء الكون أجمعه ... ماكان منه، ومامن بعده ياتي
ثم الصلاة على المختار من مضر ... خير البرية من ماض ومن آتي

وفاة شيخ الاسلام رحمه الله بالقلعة

بقي الشيخ رحمه الله تعالى مقيما بالقلعة سنتين وثلاثة أشهر وأياماً، ثم توفي الى رحمة الله ورضوانه ، وما برح في هذه المدة مكباً على العبادة والتلاوة ، وتصنيف الكتب والرد على المخالفين...

وقد رثاه الشيخ الامام زين الدين ، أبو حفص، عمر بن محمد بن أبي الفوارس ، بن علي بن الوردي، الشافعي ـ رضي الله عنه ـ بقصيدة قال فيها :

عثا في عرضه قوم سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط
تقي الدين أحمد خـير حبر ... خروق المعضلات به تخاط
توفى وهو مسجون فريـد ... وليس له الى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ... ملائكة النعيم بـه أحاطوا

قضى نحباً وليس له قرين | ولا لنظيره لف القماط
فتى في علمه أضحى فريداً | وحل المشكلات به يناط
وكان الى التقى يدعو البرايا | بوعظ للقلوب هو السياط
فيا لله ماقد ضم لحد | ويا لله ما غطى البلاط
همو حسدوه ، لما لم ينالوا | مناقبه فقد فسقوا وشاطوا
وكانوا عن طرائفه كسالى | ولكن في اذاه لهم نشاط
وحبس الدر في الاصداف فخر | وعند الشيخ بالسجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء | فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا
بنو تيمية كانوا ، فبانوا | نجوم العلم أدركها انهباط
ولكن يا ندامة حابسيه | فشك الشرك كان به يماط
ألم يك فيكمو رجل رشيد | يرى سجن الامام فيستشاط
امام لا ولاية كان يرجو | ولا وقف عليه ولا رباط
ولاجاراكمو في كسب مال | ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغضتموه | أما لجزا أذيته اشتراط؟
وسجن الشيخ لايرضاه مثلي | ففيه لقدر مثلكم انحطاط
أما والله لولا كتم سري | وخوف الشر لانحل الرباط
وكنت أقول ماعندي ولكن | باهل العلم ما حسن اشتطاط
فما أحد الى الانصاف يدعو | وكل في هواه له انخراط
سيظهر قصدكم يا حابسيه | ونيتكم اذا نصب الصراط
فهاهو مات عنكم ، واسترحتم | فعاطوا ما اردتم ان تعاطوا
وحلوا واعقدوا من غير رد | عليكم وانطوى ذاك البساط[1]

(١) وهناك عشرات الشعراء من العلماء الذين رثوه وبكوه بقصائد عاطفية تدمي القلوب وتفتت الجلود . ذكرها صاحب العقود الدرية في آخر كتابه.

الاحتفال الكبير بالصلاة على شيخ الاسلام

دخلت جنازة الامام جامع بني أمية ، وصلى عليه عقب صلاة الظهر ، ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه الا حضر لذلك حتى غلقت الاسواق بدمشق ، وعطلت معايشها حينئذ ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم .

وخرج الامراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والاتراك والاجناد ، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام . قال بعض من حضر : لم يتخلف فيما أعلم الا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته ، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس !!

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه أنهم يزيدون على نحو من خمسمئة الف ، وحضرها نساء كثير بحيث حزرن بخمسة عشر الفاً .

قال أهل التاريخ : لم نسمع بجنازة تمثل هذا الجمع الا جنازة الامام احمد بن حنبل ، قال الدار قطني : سمعت ابا سهل زياد القطان يقول : سمعت عبد الله بن احمد بن حنبل يقول : سمعت ابي يقول : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز !

ثم حملت جنازة الشيخ الى قبره فوضع . وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ، ولم يكن حاضراً قبل ذلك ، وصلى عليه أيضاً ، ومن معه من الامراء والكبراء ، ومن شاء من الناس . ثم دفن وقت العصر الى جانب أخيه الشيخ جمال الاسلام شرف الدين .اهـ

هكذا انتهت حياة العظيم!

وهكذا انتهت حياة شيخ الاسلام ابن تيمية موتاً في السجن بعد نضال مرير في ميادين العلم وساحات الجهاد ، فترة من الزمن تزيد على نصف قرن ، لاقى خلالها أنواع الاضطهاد ، فلم تثن له عزيمة ، ولم تضعف له ارادة .

ولو علمت السلطات الحكومية ما في حركته الاصلاحية الدينية من فوائد اجتماعية وسياسية واقتصادية لكان لها منه موقف آخر ، ولكن خفافيش العلم وادعياء الدين اخفوا عليها الحقيقة وقلبوا لها المفاهيم ، وغرروها وخدعوها خشية على دجلهم من أن ينكشف ، وعلى امتيازاتهم من ان تضيع ، فحملوا لعنة الابد وخيانة الدهر وجريمة التاريخ !!

ان الاصلاح الديني أول شيء في الاصلاح ، وكل اصلاح يقوم بدونه ، لايثمر أبداً! وما بعثة سيد الخلق النبي محمد ﷺ الا اصلاح ديني سرعان ما ازدهر وأثمر وآتى أكله في جميع النواحي العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ووحد العرب وآخى بينهم بمعجزة وسرعة مدهشة ، وانطلق بهم في آفاق العلم والنصر مما يبرهن على عظمة تأثير الدين الصحيح في اصلاح النفوس « لو أنفقت مافي الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم !! » .

وهذا الغرب نفسه كان في جهل سحيق وظلام دامس ، ولم ينج من انحطاطه الا يوم أعلن الاصلاح الديني فألغى امتيازات رجال الدين ، وأطلق العقل في آفاق العلم والبحث التي حرمها عليه من قبل هؤلاء الانتهازيون وسعى لمعرفة الهه بنفسه واللجوء اليه دون وساطة رجال الكنيسة ،

مقتبساً كل هذه الانطلاقات مما شاهده في المسلمين خلال حروبه وتجارته..
فكانت هذه النهضة الاوربية التي انتشرت بسرعة البرق وأنقذت الغرب من ظلام القرون الوسطى على الرغم مما فيها من انحرافات !

ما كاد الامام ابن تيمية رضي الله عنه - يتفقه في الدين ، حتى شاهد العالم الاسلامي يتخطفه الاعداء من الداخل والخارج : من داخله الفرق الدينية على اختلاف أسمائها تنخر فيه نخر السوس في الشجرة الباسقة، وتبعده عن اسلامه الصحيح دون أن يشعر ، عن طريق الآراء والفلسفات الوثنية من يونانية وهندية ، والمؤامرات السياسية من باطنية وصوفية وشعوبية وغيرها تهد كيانه .

ومن الخارج التتار يهدم مدنية الاسلام ويحرق كتبه ويقتل أهله . والغريب أن هؤلاء التتار دخلوا الاسلام فيما بعد على زعمهم . ولكن أي اسلام هذا ؟ أسلام الباطنية الذي لايحمل من الاسلام الا اسمه ، ويكن لجماعته كل عداء ! ويسعى لهدم الاسلام باسم الاسلام كما هدمه ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي في بغداد ايام الخليفة المستعصم !!

هكذا كان العالم الاسلامي في عهد ابن تيمية ، في خطر يهدده من الداخل والخارج . وكان من واجب شيخ الاسلام ازاء كل ذلك أن يسارع ليجمع شمله ويوحد خططه ويعالج مشكلاته . ويحارب خصومه داخلا وخارجا .

ولكن انى له ذلك ؟

فقد كانت المذهبية على أشد الخلاف فيما بينها ، وقد كان يقع بين اصحاب المذاهب مع الفتن والدسائس والمكايد وتكفير بعضهم بعضاً أحيانا مايتفتت له قلب كل مسلم مخلص . وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان أن كثيراً من المدن قد تخرب بسبب النزاع بين اصحاب هذه المذاهب .

وعلاوة على هذه الخلافات المذهبية فقد انتشرت بين المسلمين الفلسفات الكلامية حول المقام الالهي ، أبعدت المسلمين عن عقيدتهم السلفية المقتبسة من القرآن والسنة ، وأخذت عقيدة الجبر تعمل هدماً وتخريباً بين المسلمين فأضعفت الارادات وشلت العزائم وادخلت الوساوس والشكوك في العدل الالهي ودفعت بهم الى التكاسل والتواكل .

وقد هبط كثير من المسلمين في مهاوي الوثنية ، فكانوا يشدون الرحال الى قبور الصالحين ويتمسحون بها ويستغيثون باصحابها وينذرون لهم ويدعونهم في الشدائد مما يتنافى مع أبسط مبادىء التوحيد .

حتى الاسرة الاسلامية لم تنج من الخطر ، فقد كانت مهددة بسلاح الطلاق البدعي ، فكان مجرد لفظ الرجل بكلمة الطلاق ثلاثاً دفعة واحدة كفيل بتشريد اطفال الاسرة والتفريق بين الزوجين تفريقاً لا التقاء بعده ! كما كان مجرد الحلف بالطلاق خليق بأن يؤدي الى المصير المشؤوم !

انتشر التصوف اليوناني والهندي بين المسلمين وعمت نظرية وحدة الوجود بين الناس ، وهي نظرية الحادية هدامة تذيب الاله في نفوس مخلوقاته ، وبلغت الطرق الصوفية أشد درجاتها من الشعوذة والدجل وابتداع الاوراد المبتدعة والرقص في الذكر مقروناً باصوات الطبول المزعجة ، وكان من يحتال لدخول النار واستخدام الافاعي والثعابين على نحو مايفعله مجوس الهنود .

هذه صورة فاضحة للمسلمين في عهد ابن تيمية رضي الله عنه ، ولا غرابة بعد كل ذلك ان نرى هذا الشيخ العظيم بما عرفه عنه من اخلاص وشجاعة يعلن الثورة على هذه الاوضاع ، ثورة منتجة قوية !

أعلن المبدأ الاسلامي الذي يرضي جميع المسلمين المخلصين ويوحد

بين صفوفهم على اختلاف فرقهم ومذاهبهم وينقذهم من الضلال والنزاع وهو مبدأ الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه وترك مايخالفهما من الاراء الفلسفية وسنن أهل الكتاب، ومن أقوال رجال غير معصومين، عملاً بقوله تعالى « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وقوله سبحانه : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما! »

اخذ ابن تيمية يؤلف الكتب في الرد على علماء الكلام وعلى الباطنية والمبتدعة والمقلدة باسلوب غاية في القوة والابداع وسمو الحجة والبرهان، وينشر الرسائل في سبيل توحيد المسلمين في مذهب محمد ﷺ تلبية للنداء الالهي : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا !» وقد أعلن القرآن : « لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» !!

فقامت قيادة الباطنيين ، وثار الخرافيون والجامدون ضده ووشوا به الى السلطات الحاكمة ، فكان ما كان مما جاء تفصيله في هذا الكتاب.

وقسماً لو استجاب المسلمون لدعوة ابن تيمية الاصلاحية ، لكان لهم اليوم شأن عظيم ، ولا مدهم الله بنصره!

ولكن هذه النتيجة المؤسفة لهذا الرجل العظيم واخفاء مبادئه وحرق كتبه والعودة بالأمة الى احضان التقليد الاعمى دون معرفة بالدليل ، ويحمل وزرها ووزر من عمل بها ، هؤلاء الادعياء الضالون المضلون، الى يوم القيامة !!

وفي اليوم الذي يثوبون الى ربهم ، ويعلمون مافي جمودهم ومحاربتهم للمصلحين والمجتهدين من خطر يهدد المسلمين جميعاً بافدح الاخطار، ويخدم اعداء الاسلام وحدهم .

أجل في هذا اليوم يرجع للمسلمين مجدهم ويتحقق وعد الله لهم

وتفتح لهم ابواب النجاحات والعظمات ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله !

ان المسلمين مدعوون اليوم للتفكير من جديد بدعوة حجة الاسلام ابن تيمية فان هذا العصر لا يقل عن عصر شيخ الاسلام حاجة الى صيحة الحق هذه ، خاصة وان دعوة هذا الشيخ الجليل لم يخبو نارها منذ سبعة قرون الى يومنا هذا ، فقد حملها من بعده الى الناس تلميذه ابن القيم الجوزية ، ولا تزال حية تنتقل من عصر الى عصر حتى جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فنهج خطة ابن تيمية في محاربة البدع والضلالات وحطم القباب وقطع الاشجار التي كان الناس يتباركون بها وينذرون لها ، ومنع الاستعانة بغير الله ، وقد لاقى العنت من الدجاجلة والمبتدعين ، ولكن الدعوة السلفية انتشرت انتشار النار في الهشيم فانتقلت من نجد والحجاز الى مصر وسورية والهند والمغرب على الرغم من اعتراض المعترضين ووشاية الواشين الذين تضاءل نفوذهم ، وخمدت نارهم ! !

لقد كان فضل الامام ابن تيمية على العالم الاسلامي عظيماً وقد رأينا فيما سبق في شيء من التفصيل مبلغ جهوده في ميادين الحروب ضد التتار وضد الباطنيين مما كان له أعظم الاثر في تثبيت دعائم الامة العربية والاسلامية ووحدتها .

كما اوضح للمسلمين معالم الاسلام الصحيح وحارب البدع والتصوف وسعى كما قلنا سابقا في توحيد المسلمين في مذهب الرسول ﷺ واصحابه من بعده عن طريق حض المسلمين للرجوع الى الكتاب والسنة . وهجر المذهبية التعسفية التي كانت من أهم عوامل تمزيق المسلمين الى شيع وفرق يكيد ويكفر بعضهم بعضاً ، وكثيراً ما تقاتلوا [1] نتيجة الخلافات

---

(١) جاء في كتاب « ابن تيمية السلفي » للدكتور محمد خليل هراس ص ١٤ وما بعدها :

المذهبية . «فكان يرمي ابن تيمية – كما قال الدكتور محمد خليل هراس

– وزاد الامر سوءاً ما كان يقع من الفتن والمنازعات بين ارباب المذاهب والمقالات، وما كان من تمييز الدولة لفريق دون آخر .

فالعزيز صاحب مصر وهو ابن صلاح الدين ، كان قد عزم في السنة التي توفي فيها، وهي سنة ٥٩٥ هجرية ، على اخراج الحنابلة من بلاده ، وان يكتب الى بقية اخوانه باخراجهم من البلاد!!

وفي هذه السنة نفسها، وقعت فتنة كبيرة ببلاد خراسان. وسببها ان فخر الدين الرازي، وهو من كبار الاشاعرة وفد الى «غياث الدين الغوري» ملك غزنة، فاكرمه وبنى له مدرسة في « هراة »، وكان اكثر الغورنة كرامية فابغضوا الرازي واحبوا ابعاده عن الملك، فجمعوا له جماعة من الفقهاء، وحضر ابن القدوة، وكان شيخا معظما في الناس، وكان على مذهب ابن كرام، فتناظر هو والرازي وخرجا من المناظرة الى السب والشتم، فلما كان الغد اجتمع الناس في المسجد الجامع وقام واعظ فتكلم وقال في خطبته:

« أيها الناس، انا لا نقول الا ما صح عند رسول الله، واما علم ارسطا طاليس، وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابي، وما تلبس به الرازي، فانا لا نعلمها ولا نقول بها ، وانما هو كتاب الله وسنة رسوله .

«ولاي شيء يشتم بالامس شيخ من شيوخ المسلمين يذب عن دين الله وسنة رسوله على لسان متكلم ليس معه على ما يقول دليل»

فبكى الناس وضجوا وبكت الكرامية واستغاثوا ، وأعانهم على ذلك قوم من خواص الناس، وانهوا الى الملك صورة ماوقع، فامر باخراج الرازي من بلاده.

وفي هذه السنة ايضا وقعت فتنة بدمشق بسبب عبد المغني القدسي ، وذلك انه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الاموي ، فذكر يوما شيئا من العقائد المتعلقة بمسألة الاستواء على العرش والنزول الى سماء الدنيا والحرف والصوت ونحو ذلك، فعقد له الامير جسام الدين «برغش» مجلسا وجمع الفقهاء لمناظرته، فالزموه بالزامات شنيعة لم يلتزمها، واستمر على مايقول لم يرجع عنه. فقال له «برغش»: كل هؤلاء على الضلالة وانت وحدك على الحق؟ قال : نعم! فغضب الامير وامر بنفيه من البلد، وأرسل الاسارى من القلعة فكسروا منبر الحنابلة. وتعطلت يومئذ صلاة الظهر في محراب الحنابلة.

فهذه الحكايات وامثالها ترينا مقدار ما بلغه التعصب المذهبي من نفوس المسلمين في ذلك العصر ، وهو أمر لا يشتد ويبلغ اقصى مداه الا في حالات الضعف والجمود العلمي.

في كتابه « ابن تيمية السلفي » ـ الى القضاء على تلك العصبية المذهبية التي كانت قد تمكنت من نفوس العلماء حتى حملتهم على معاداة بعضهم بعضاً وتكفير بعضهم بعضا والتي كانت سبباً في ما ابتلى الله به المسلمين من الضعف والخذلان وتسلط الاعداء جزاء وفاقاً لما تركوا من كتاب الله وسنة رسوله ! ! »

يقول الامام ابن تيمية في رسالة الفرقان :

« فاذا ترك الناس بعض ماانزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء، اذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه ، مما أخبر به وماأمر به ، وأماماابتدعوه فكله ضلالة [1] ! »

ومن الحق أن نقول في هذه المكاتبة أن هذه المذهبيةالتعصبيةهي التي كانت سبباً في ابتعاد الحكام والمسؤولين في العالم الاسلامي عن الشريعة فيالها من جناية لاتوصف لشناعتها وسوء أثرها ! قال الاستاذ مصطفى الزرقا رئيس قسم القانون المدني بجامعة دمشق [2]:

---

(١) مجموعة الرسالة الكبرى ص ١٧٧ رسالة الفرقان

ومما يؤسف ان اكثر علماء المسلمين لم يشعروا بضرورةالعودة الى الكتاب والسنة وترك مادونها والشعور بان ما اصابهم من محن هو نتيجة هذا البعدوالافتراق. وقد جاء جولدزيهر يشاركنا هذا الرأي فقال نقلا عن الأستاذ مصطفىعبدالرزاق:

« كانت الدولة الاسلامية في هم مما اصابها من اثر الخراب المغولي، فاصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب الى اصلاح الاسلام ممادخل فيه بالعودة الى السنة التي كان الخروجمنهامدعاة لغضبالله !!»

(٢) مجلة حضارة الاسلام ج ١ و ٢ العام الاول.

وكانت النتيجة أن اصبح الحكام الزمنيون في العالم الاسلامي منذ أواخر العهد العثماني يرون أن الشريعة وفقهها لايستطيعان امـداد البلاد بالتقنينات اللازمة لتنظيم الحاجات العصرية الآخذة بالتطور والتجدد السريع فالتجأوا الى أخذ القوانين الاجنبية التي أدت أخيراً الى دفن الفقه الاسلامي في مكتباته علماً وعملاً .

ويظهر أن طلائع هذه النتيجة كانت بادية منذ عصر ابن القيم ، فان له في هذا الموضوع نفسه كلاماً نفيساً مخلداً سجله في كتابه «الطرق الحكمية » وفي « اعلام الموقعين » ايضا ، نص فيه واستنكر على اتباع المذاهب جمودهم وتضييقهم لمنابع الشريعة وافاقها حتى اضطروا الحاكمين من ملوك وامراء الى اصدار قوانين زمنية تسد الحاجة لعدم كفايـة الاحكام الفقهية بينما الضيق ليس في الشريعة السمحة بل في عقول اتبـاع المذاهب .

يتراءى بعد هذا للناظر المتأمل أن اغلاق باب الاجتهاد كان كارثة عظمى نزلت بالشريعة الاسلامية وفقهها الجليل .

والواقع أن الاجتهاد لايملك أحد اغلاقه مادامت خصائص الاسلام تستلزمه حتماً حتى أن المتأخرين اللامعين من اتباع المذاهب الاربعـة يصرحون في كتبهم بانه إذا وجد من بلغ رتبة الاجتهاد في علمه وتوافرت شرائطه ومؤهلاته فيه لايجوز له أن يقلد مذهباً من المذاهب . ولكنهم عملياً لايسلمون لاحد ببلوغ هذه الرتبة فباب الاجتهاد ليس ممنوع الفتح في نظرهم بل هو مفقود المفتاح !!

ويقول العلامة عز الدين بن عبد السلام، وهو من أكابر فقهـاء الشافعية في القرن السابع الهجري .

« اختلفوا هل انسد باب الاجتهاد ؟ على أقوال

« ... وكلها أقوال فاسدة فانه ان وقعت حادثة غيرمنصوصة ، أو

فيها خلاف بين السلف فلا بد فيها من الاجتهاد من كتاب او سنة . وما يقول سوى هذا الاصاحب هذيان [1] ! !

وانني أعتقد أن الامام ابن تيمية هو المعلم الثاني الذي جاء يجدد تراث المعلم الاول الرسول ﷺ ويعيد المسلمين الى منابع دينهم الاولى وينقذهم من خطر الضلال الذي كانوا فيه عقائدياً وفقهياً .

يقول « الاستاذ مصطفى عبد الرزاق في كتابه التمهيد:

«اننا لانستطيع أن نقدر هذا المذهب (مذهب السلف) ، وما قدمه الى المجتمع الاسلامي من خير الا اذا صورنا لانفسنا ما كان يعانيه المسلمون في ذلك العصر الذي ظهر فيه ابن تيمية من فوضى بالغة في العقيدة .

فقد كثرت فيه الفرق والمقالات كثرة لاحد لها وكانت هذه الفرق تتناحر وتتقاتل فيما بينها . وكل فرقة منها تدعي أنها على الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وتتلاعب بالنصوص فتؤولها بما يتفق مع مذهبها وان خالف ذلك أبسط قواعد اللغة وأوضاعها واسلوب أهلها في التخاطب ! !

وكان الناس لايرجعون في شيء من أمر العقيدة ، لا الى كتاب ولا سنة ، بل كانوا يأخذون عقائدهم من كتب هؤلاء المتكلمين المتنازعين ، وهي كتب جافة محشوة بالجدليات والمناقضات ومسائل الخلافات ، ليس فيها مايروي غليلاً ، ولا شفي عليلا ، ولايكسب القلب ايماناً وطمأنينة !

فضعف بذلك سلطان العقيدة ، وزالت قدسيتها من النفوس ، وأصبحت مجالا للأخذ والرد واجترأ الناس على الكلام في الله وصفاته بما لم يأذن به ، فخبأ نور الايمان ، وانطفأ سراج اليقين ، وضعف الوازع الديني

---

(١) انظر رسالة « الاجتهاد والتقليد » للاستاذ عبد الوهاب خلاف ص١٦ وأين هذا مما اعلنه به محمد ابو زهرة في جامع التوبة بدمشق بأن اغلاق باب الاجتهاد كان نعمة من نعم الله على الاسلام ؟! كما اعلن ايضا انه قد تراجع عن رأيه فيما اعلنه في بعض كتبه من لزوم فتح باب هذا الاجتهاد.

في نفوس المسلمين . واستغل أصحاب الخاريق الصوفية هذه الحالة ، وما الناس فيه من اضطراب وحيرة . فأخذوا يدعونهم الى سلوك طرقهم ، ويزعمون لهم أن فيها الهدى والشفاء ، وما كان التصوف في هـذا العصر الا سر الداء واصل البلاء ، فزادوهم مرضاً على مرض!!

وهكذا صار الأسلام غير الاسلام والمسلمين غير المسلمين .

جاء ابن تيمية فهاله الأمر، وما وصلت اليه حال المسلمين من سوء فوقف حياته كلها على معالجة هذه الحالة بشتى الطرق ومختلف الوسائل.

فأعلن حرباً لاهوادة فيها على هذه الطوائف كلها ، وأخذ يظهر زيفها وبطلانها وبعدها عن منهج الكتاب والسنة ، ويدعوها الى طريقة السلف الأول من الصحابة والتابعين ، معتقداً أنه لايصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها .

ويدعوها كذلك الى البعد عن أساليب الجدل المقوتة ، والتلاعب بالألفاظ في جانب معرفة الله تعالى وصفاته ، وترك هذه الحزبية المذهبية التي فرقت بين المسلمين وجعلتهم شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون !!.

كان ابن تيمية يرى من وراء دعوته الناس للرجوع الى الكتاب والسنة الى تطهير العقيدة الاسلامية مما داخلها من الزيغ والانحراف ، وتخليصها مما لحق بها من أوضار الفلسفة الدخيلة ، وألوان الجدل العقيمة، التي لاتسمن ولا تغني من جوع .

وكان يرى كذلك ، الى القضاء على تلك العصبية المذهبية ، التي كانت قد تمكنت من نفوس العلماء ، حتى حملتهم على معاداة بعضهم بعضا، وتكفير بعضهم بعضا . والتي كانت سبباً في ماابتلى الله به المسلمين ، من الضعف والخزلان وتسلط الاعداء جزاء وفاقاً ، لما تركوا من كتاب الله وسنة رسوله ! اه

● ● ●

هذا وصف موجز لاعمال ابن تيمية . وقد جاءت كما يجيء الغيث للارض العطشى . وأرى أن الله سبحانه لو لم يبعث ابن تيمية ـ المعلم الثاني ـ لكان الاسلام في خطر ! فقد أنقذ قافلة المسلمين الضالة والحائرة الى الصراط المستقيم !

وقد كان إصلاح ابن تيمية فتحاً جديداً في عالم المصلحين ، فهو لم يقتصر على احياء الاسلام الصحيح الذي كان مدفونا في الكتب ، بل راح يدرس الفلسفة والمنطق ليرد على العقليين والمعارضين رداً نزيها علمياً خلواً من المهاترات والجدل بالباطل ، باسلوبهم نفسه ، مثبتاً مصادقة صريح العقل لصحيح النقل وعدم تعارضهما الا لدى العقول السقيمة والنفوس المريضة ، وهكذا رد للنصوص اعتبارها ، بعد ما كادت تفقد حقيقتها من كثرة تأويلها لتوافق آراء فلاسفة اليونان والفرس الذين لا يستقرون على حال ، من القلق . وقد أثبت ابن تيمية بجهده العظيم حماقتهم وضلالهم !

قد يقول قائل : لقد سبق الغزالي ابن تيمية في هذا الصدد حين تصدى للفلاسفة والمناطقة فاجيب صحيح ذلك ، ولكن الغزالي دخل الفلسفة ـ كما قال أبو بكر الرازي ـ ولكن لم يستطع أن يخرج منها فارتمى في أحضان التصوف معتقداً انه الطريق الوحيد الموصل الى الله . كما جاء في كتابه « المنقذ من الضلال » بعكس الحال عند الامام ابن تيمية الذي درس المذاهب الفلسفية وخرج بعدها مثبتاً ضلالها !

واني أرى القوانين الالهية كالقوانين الطبيعية التي أوجدها الخالق العظيم ، فكما انه يجب الخضوع لهذه القوانين للافادة من الطبيعة فكذلك يجب الخضوع للقوانين الالهية الاسلامية التي تتمثل في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ لتحقيق السعادة والعدالة في الحياة !

وكما أن مخالفة القوانين الطبيعية الالهية يحرم الناس الافادة منها ، فكذلك القوانين الالهية التشريعية. وهذا ما اصيب به المسلمون لما تركوا اسلامهم وحاولوا العبث به بالتأويل وغيره ليرضوا به عقولهم المريضة فحرموا نصر الله سبحانه الذي جعله حقا عليه للمؤمنين ! ! والى هذا المعنى يشير الامام ابن تيمية بقوله في رسالة الفرقان :

« فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول ﷺ سلطت عليهم الاعداء ، فخرجت الى الشام والجزيرة مرة بعد مرة وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء الى أن اخذوا بيت المقدس في اواخر المئة الرابعة ، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار والمنافقين والملاحدة [1]

وعلاوة على خسارة نصر الله سبحانه بسبب تحريف وتأويل النصوص، فانها تؤدي الى خطر توزيع المسلمين وتمزيق شملهم وتفريق كلمتهم ، ووقوعهم في الفوضى وتعريضهم للغزو الخارجي نتيجة هذا الاختلاف والتفرق !

فتوحيد المسلمين في مذهب واحد ، هو مذهب محمد ﷺ وصحبه، وفي فرقة واحدة (الفرقة الناجية) هي خير سبيل لجمع صفوفهم سياسياً واجتماعياً ونجاتهم في الحياة الاخرى. قال النبي ﷺ ستفترق امتي الى ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي ما كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي!

ان انقسام المسلمين الى سنة وشيعة أدى بهم جميعا الى نكبات كثيرة كانت سبباً لغزو التتار منذ هولاكو الى تيمورلنك وقازان مما أضعف الامة الاسلامية وعرضها للاستعمار الغربي في العصور الحديثة !

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ص ١٣٨

وقد شعر الامـام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ بخطر الاختلاف وما ادى اليه من فوضى وفساد وانحراف ، فرأى بثاقب رأيه ضرورة توحيد المسلمين في اطار الثقافة الاسلامية الموحدة البناءة الايجابيـة التي تجمع شملهم وتبعد عنهم عوامل الفرقة والاختلاف ، وتجعلهم صفاً واحداً وكتلة قوية على أن يكون أساس هذه الثقافة ومنارها كتاب الله وسنة نبيه وهما المصدران اللذان يتفق عليهما جميع الفرق والمذاهب الاسلامية ، ولن يتم بينها تفاهم وتعاون الا عن طريقهما، فعلى الساسة والمسؤولين أن يدركوا هذه الحقيقة فهي السبيل القويم والوحيد للوحدة الصحيحة.

● ●

وقبل الانتهاء من هذه الصرخة اهيب بالجامعة الازهرية في القاهرة، وبكلية الشريعة بدمشق ، ووزارات الثقافة والارشاد القومي، ووزارات التربية والتعليم في البلدان العربية والاسلامية ، أدعو هؤلاء جميعا إلى احياء تراث شيخ الاسلام ابن تيميـة ـ رضي الله تعالى عنه ـ والاقبال على دراستها وعرضها على الناس عرضاً جميلا وتبسيطها للرأي العام بطبعات شعبية بديعة.

كما اهيب بهذه المؤسسات العلمية أن تتذرع بالجرأة فلا تحجم خشية الحاقدين والادعياء والمبتدعين أعداء كل إصلاح من دراسة تراث هذا المصلح والمجدد العظيم الذي لم يعرف له مثيل في تاريخ النهضة الاسـلامية الحديثة ، فهو لاشك باعثها ومحييها .

مذهب ابن تيمية وأثره في الجماعة الأسلامية

لعلنا نستطيع الآن بعد ماتقدم من دراسة منهج ابن تيمية وطريقته في بحث المسائل الاعتقادية وما كان من أثر هـذا المنهج وتلك الطريقة في معالجته لأمهات المشاكل الكلامية . مثل إثبات وجود الله تعالى وتوحيده وصفاته وصدور العالم عنه وبيان حكمته في خلقه وعموم مشيئته وقدره إلى غير ذلك من المسائل التي عالجهـا في جرأة وقوة منطق ، أن نقول إن ابن تيمية قد أضاف إلى علم الكلام الإسلامي مادة جديدة وكون لنفسه مذهباً خاصاً له طابعه ومميزاته .

قد يقول قائل أن مذهب ابن تيمية لم يخرج عن كونـه تحديداً لعقيدة السلف وأئمة الحديث كأحمد بن حنبل وغيره من الذين كانوا يقفون عنـد نصوص الكتاب والسنة كما يتبين ذلك من مطالعة الكتب التي الفت في بيان هذه العقيدة السلفية مثل كتاب الإمـام أحمد في الرد على الجهمية والمعتزلة وكتاب التوحيد لمحمد بن إسحاق بن خزيمة وغيرهما .

ولهذا كان ابن تيمية يسمى نفسه هو وأصحابه بالسلفية أو أهل السنة والجماعة ويعترف بأنه متبع لامبتدع وأن طريقته هي طريقة السلف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وهذا قول فيه كثير من الحق . ولكن مما لا شك فيه أن ابن تيمية قد عالج مسائل كثيرة لم يعالجها هؤلاء ولم يخوضوا فيهـا كما أنه استطاع أن يدافع عن هذا المذهب السلفي بحرارة وقوة لم يُسبق اليها مستخدماً في ذلك القياس الأرسطى إلى جانب النصوص والآثار . وأن يقف

من خصوم هذا المذهب موقف المعارض القوي الذي يحتكم إلى العقل والنقل معاً بعد أن كان أصحاب هـذا المذهب لا يجرؤون على تبرير عقيدتهم عقلياً بل كان شأنهم التسليم والتفويض . وإذا كانت مـذاهب العقليين من الفلاسفة والمعتزله قد فشلت في حل المشاكل الاعتقادية بتطرفهـــا في ناحية العقل واستخفافها بالنصوص، كانت الأشعرية مع محاولتها التوسط قد جارت هؤلاء العقليين في القول بضرورة التأويل لكثير من النصوص التي تظهر مصادمتها العقل : فإن ابن تيمية وقـــد نجح في رد اعتبار النصوص اليها : وجعلها هي المرجع الأول والأخير في جميع مسائل الدين. وإذا كان المذهب الأشعري قد نجح في بسط سلطانه على معظم أقطار العالم الإسلامي بفضل من انتسب اليه وناصره من الأمراء الأقوياء أمثال صلاح الدين الأيوبي ومحمد بن تومرت وغيرهما وبفضل من تزعمه ودعا اليه من العلماء أمثال إمام الحرمين والغزالي والرازي وغيرهم ، فإن مذهب ابن تيمية قد أصبح يزاحمــه اليوم كل المزاحمة وينازعه هذا النفوذ والسلطان، يقول الأستاذ مصطفى عبد الرزاق في كتابه التمهيد : «أما النهضة الحديثة لعلم الكلام فتقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية وإنا لنشهد تسابقاً في نشر كتب الأشعرية وكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ويسمي أنصار هذا المذهب الاخير أنفسهم بالسلفية ولعل الغلبة في بلاد الإسلام لاتزال الى اليوم لمذهب الاشاعرة»[1] إننا لا نستطيع أن نقدر هذا المذهب وما قدمه إلى المجتمع الإسلامي من خير إلا إذا صورنا لانفسنا ما كان يعانيه المسلمون في ذلك العصر الذي ظهر فيه ابن تيمية في فوضى بالغة في العقيدة فقد كثرت فيه الفرق والمقالات كثرة لأحد لها وكانت هذه الفرق تتناحر وتتقاتل فيما بينها وكل فرقة منها تدعي أنها على الحق الذي لا يأتيه باطل من بين يديـــه ولا من خلفه وتتلاعب بالنصوص

(١) وهذا نتيجة الجهل والبعد عن الكتاب والسنة !! (م.ح).

فتؤلها بما يتفق مع مذهبها وإن خالف ذلك أبسط قواعد اللغة وأوضاعها
وأسلوب أهلها في التخاطب وكان الناس لا يرجعون في شيء من أمر العقيدة
لا إلى الكتاب ولا السنة بل كانوا يأخذون عقائدهم من كتب هؤلاء المتكلمين
المتنازعين وهي كتب جافة محشوة بالجدليات والمناقضات ومسائل الخلافات
ليس فيها ما يروي غليلاً ولا يشفي عليلاً ولا يكسب القلب إيماناً وطمأنينة
فضعف بذلك سلطان العقيدة وزالت قدسيتها من النفوس وأصبحت مجالاً
للأخذ والرد واجترأ الناس على الكلام في الله وصفاته بما لم يأذن به فخبا نور
الإيمان وانطفأ سراج اليقين وضعف الوازع الديني في نفوس المسلمين واستغل
أصحاب المجاريق من الصوفية هذه الحالة وما الناس فيه من اضطراب وحيرة
فأخذوا يدعونهم إلى سلوك طريقهم ويزعمون لهم أن فيها الهدى والشفاء وما
كان التصوف في هذا العصر إلا مر الداء وأصل البلاء فزادوهم مرضاً على
مرض وهكذا صار الإسلام غير الإسلام والمسلمون غير المسلمين جاء ابن
تيمية فهاله الأمر وما وصلت اليه حال المسلمين من سوء فوقف حياته كلها على
معالجة هذه الحالة بشتى الطرق ومختلف الوسائل فأعلن حرباً لاهوادة فيها
على هذه الطوائف كلها وأخذ يظهر زيفها وبطلانها وبعدها عن منهج الكتاب
والسنة ويدعوها للرجوع إلى طريقة السلف الأول من الصحابة والتابعين
معتقداً أنه لا يصلح أخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ويدعوها كذلك إلى
البعد عن أساليب الجدل الممقوتة والتلاعب بالألفاظ في جانب معرفة الله
تعالى وصفاته وترك هذه الحزبية المذهبية التي فرقت بين المسلمين وجعلتهم
شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . كان ابن تيمية يرمي من وراء دعوته الناس
للرجوع إلى الكتاب والسنة إلى تطهير العقيدة الإسلامية مما داخلها من الزيف
والانحراف وتخليصها مما لحق بها من أوضار الفلسفة الدخيلة وألوان الجدل
العقيمة التي لا تسمن ولا تغني من جوع وكان يرمي كذلك إلى القضاء على

تلك العصبية المذهبية التي كانت قد تمكنت من نفوس العلماء حتى حملتهم على معاداة بعضهم بعضاً وتكفير بعضهم بعضاً والتي كانت سبباً فيما ابتلى الله به المسلمين من الضعف الخذلان وتسلط الأعداء جزاء وفاقاً لما تركوا من كتاب الله وسنة رسوله. يقول ابن تيمية في رسالة الفرقان فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه بل تقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وأمر به وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة هذه هي دعوة ابن تيمية إصلاح وإحياء وتجديد فهو بحق أبو النهضة الإسلامية الحديثة وواضع أساسها وجميع دعاة الإصلاح من بعده إما بهديه: اقتدوا أو على كتبه تخرجوا. يقول صاحب كتاب الإسلام والتجديد في مصر أما العامل الثاني المقوم لهذه الحركة «حركة جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده» فهو ابن تيمية المتوفى سنة ١٣٢٨م وابن قيم الجوزية المتوفى في سنة ١٣٥٣ م فقد شنا غارة شعواء على ما كان في عصرهم من بدع وفساد وقررا أن لهم الحق في الاجتهاد ورجعا في كل حكم من الأحكام إلى أصوله واعتمدا على المصادر الأولى واشتد هجومهما على الصوفية وقالا بتحريم شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والأولياء وبجثا بتعاليم أحمد بن حنبل وهو أكثر الأئمة الأربعة تمسكاً بالنصوص وقد نشر مذهبهما فيما بعد الوهابيون وهم جماعة المصلحين المجددين الذين رجحت كفتهم السياسية في بلاد العرب في أوائل القرن التاسع عشر وأعاد اليهم السلطان مرة أخرى نجاح ابن سعود في العصر الحاضر.

رجاء - ولذا كان لنا ما نرجوه من القائمين على سير الأمور في الأزهر ومن الذين يهمهم أن تظل لهذا المعهد التليد مكانته العلمية والدينية فهو يساير وألا يغفلوا دراسة هذه الحلقة من الثقافة الإسلامية.

وهي حلقة كما قلنا تمتاز بالنقد والأحياء والتجديد ولا يستغنى عنها في دراسة الثقافة العقلية الإسلامية وفهمها فهماً صحيحاً وما لنا نتحرج عن دراسة ابن تيميه وابن القيم وأنصارهما لقولهما بما يخالف آراءنا بالعقيدة . والقرآن بين أيدينا يحكي أقوال الكفار في الالوهية والرسالة والميعاد في غير حرج ولا إشفاق على أهله منها وإذا ساغ لنا أن ندرس المذاهب الفلسفية قديمها وحديثها مع ما فيها من كفريات وضلالات : فكيف لا يسوغ لنا أن ندرس مذهباً إسلامياً يستند أكثر ما يستند إلى كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة والتابعين وإلى متى نُظل واقفين عند دراسة هذه الكتب الموضوعة التي الفت على نمط يؤدي بالعقول إلى الضيق والحرج ويورثها العقم والبلادة ولماذا لا نخرج عن دراستنا إلى آفاق أوسع وبحوث أشمل حتى لا يقول عنا الناس إن القائمين على أمر الثقافة الإسلامية لم يحسنوا دراسة الثقافة الإسلامية .

وإن الأزهر الذي عرف كيف يخطو هذه الخطوات الفسيحة ويسير إلى الامام شوطاً بعيداً فيدخل في مناهجه العلوم الحديثة عن الطبيعة والكيمياء ونحوهما لا يعز عليه أن يخطو الآن هذه الخطوة الآخيرة فيدرس كل ما تركه رجال الفكر الإسلامي حتى يأخذ بما يراه موافقاً للكتاب والسنة من أقوال هؤلاء وهؤلاء . ثم يأخذ به الأمة التي وضعت فيه ثقتها وعلقت عليه آمالها تلك هي وظيفة الأزهر أن يدرس وينقد اذا أراد أن يبقى له قصب السبق وألا يفلت من يده الزمام والله سبحانه نسأل أن يوفق أهله لما فيه خيره وصلاحه وخير المسلمين وصلاحهم إنه سميع مجيب [1] .

---

(١) — عن كتاب « ابن تيمية السلفي » للاستاذ محمد خليل الهراس رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه بقليل من التصرف .

ثقافة ابن تيمية ومنهجه في البحث

أجمع المؤرخون على أن ابن تيمية كان واسع الاطلاع على العلوم الشرعية والعقلية، على حد سواء ويقول الذهبي عنه «كان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير اليها المنتهى، وحفظه الحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين، فضلاً عن مذاهب الأربعة، فليس له فيه نظير. وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيراً، وأما معرفته بالسير والتاريخ فعجب عجيب. وأما شجاعته وجهاده واقدامه فأمر يتجاوز الوصف فان ذكر التفسير فهو حامل لوائه وان عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وان حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وان سمي المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وان لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فيلهم وتيسهم [1] وهتك أسرارهم و كشف عوراتهم»[2].

ولعل من العبارات التي تعبّر بوضوح عن ثقافة ابن تيمية ومدى معرفته بالحديث قول الذهبي عنه: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث»[3] وهذا يدل على اطلاعه الواسع في السنة و لمامه بكافة كتب الحديث

(١) في الأصل فلسهم وبخسهم.

(٢) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/٥٤، ط مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١. وانظر العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام. ابن تيمية لابن عبد الهادي، ص ٢٣ - ٢٤، ط. حجازي. القاهرة ١٣٥٦/١٩٣٨.

(٣) العقود الدرية، ص ٢٥. وفي هذا الكلام بعض المبالغة (م م).

وبين أيدينا اليوم كتاب « الرد على المنطقيين » لابن تيمية [١] وهو كتاب فريد من نوعه وهو يدل دلالة قاطعة على ثقافة ابن تيمية المنطقية العميقة

والذي يميز ثقافة ابن تيمية انها ثقافة اسلامية عميقة بالدرجة الأولى ، انه يتبع فيها منهج أهل السنة والجماعة اتباعاً دقيقاً

وهنا نلاحظ الفرق بينه وبين الغزالي، فهو يأخذ من كل معين يجد فيه نصرة لمذهب أهل السنة ولما يؤمن بأنه الحق ، ويطرح منه ما يخالف ذلك وهو يعترف لكل فئة أو لكل عالم بما فيه من خير كما يبين ما هو عليه من باطل وهو في كلامه على الغزالي رغم هجومه عليه - يشيد بكتابه « فضائح الباطنية » [٢] ومع أنه يقرر أن الغزالي كان متناقضاً الا أنه يسجل له - كما سبق أن ذكرنا - أنه أقلع في آخر حياته عن الاشتغال بالعلوم الفلسفية والكلامية وانصرف الى الاشتغال بعلم الحديث : « وآخر ما اشتغل به النظر في صحيح البخاري ومات وهو مشتغل بذلك » [٣]

وعلى عكس من سلبية [٤] الغزالي ازاء هجمات الصليبيين على المسلمين في

---

(١) طبع المكتبة القيمة ، بومباي ، الهند ، ٣٦٨ /١٩٤٩ .

(٢) الرد على المنطقتين ، ص ١٤٢ — ٢٨٠ .

(٣) ما الفائدة من اشتغاله بالسنة بدلاً من الفلسفة في آخر أيامه ، دون أن يعلن للملأ رجوعه عن آرائه الفلسفية والصوفية التي كانت من بعض أسباب البعد عن الاسلام الصحيح !! وحضه على وجوب التمسك بالكتاب والسنة ، كما فعل الأشعري مثلاً » فانه لما تاب عن مذهب الاشاعرة صعد منبر المسجد وقال ما معناه : أيها الناس ! من عرفني ، فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الأشعري لقد تبين لي زيف ما كنت اعتقنه وقد تبت منه ورجعت إلى عقيدة السلف وسأحارب المعتقدات الباطلة التي تخالفها .

(٤) لقد كان الغزالي خلال الحروب الصليبية يعيش في خلوته الصوفية في منارة دمشق ثم في قبة الصخرة في القدس، بينما كان ألوف المسلمين يقتلون، فلم يشترك في هذه =

= تلميذه القاضي أبو بكر بن العربي الذي قال بحسب مارواه الذهبي : « شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع (سيرة الغزالي لعبد الكريم العثمان : (ص ٧٠) .

أما معرفة الغزالي في الحديث فضعيفة جداً بشهادته نفسه في رسالة التأويل : « بضاعتي في علم الحديث مزجاة » (ص ١٦) وسجل عليه ذلك كثير من العلماء مثل أبي بكر الطرطوشي فقال عنه : « شحن أبو حامد « الاحياء بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا أعلم كتاباً على بسيط الأرض أكثر كذباً منه » مسيرة الغزالي (ص ٧٥) طبعة دار الفكر بدمشق .

فما أجرأه على الحق وأجهله بالعلم من لقبه « بحجة الاسلام » .

وليست طامات الغزالي في الاحياء نفسه في وجود الأحاديث الضعيفة والموضوعة فحسب ، بل بالخروج عن الشريعة في التوحيد نفسه ، ولا بد من الاعتراف بعلمه في معالجة بعض أمراض النفس البشرية .

لهذا كله سارعت إلى تلخيص هذا الكتاب في جزئين ، حذفت منه الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ونقيته من الخرافات والصوفيات المنحرفة ، فجاء كتاباً لايستغني عنه مسلم .

وقد سبقني إلى ذلك الامام ابن الجوزي في كتابه : (منهاج القاصدين) والامام المقدسي في كتابه (مختصر منهاج القاصدين) والشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه (موعظة المؤمنين) رحمهم الله تعالى وأجزل ثوابهم ، ولكن بقي في هذه الملخصات كثير من الاحاديث الضعيفة والموضوعة وبعض الواهيات بخلاف ملخصي ، فلله الحمد والمنة .

المحتوى

والله مايبغض ابن تيمية إلا جاهل

أو صاحب هوى!! »

قاضي قضاة الاسلام

عبد البر السبكي

بين يدي الكتاب

من العسير على الاكثرية الساحقة من علماء الدنيا أن يجابهوا الناس بانكار ما ألفوه من البدع والخرافات والاعتقادات الباطلة التي يظنونها من الاسلام ويشقون في سبيلها ، والاسلام بريء منها ويحاربها بشدة !

ان أمثال هؤلاء الجبناء، ليسوا علماء باعتقادي ، وان حشدوا أدمغتهم بكميات هائلة من الكتب والرسائل .

ان العلماء هم الذين وصفهم الله — سبحانـــه — بقوله : « وانما يخشى الله من عباده العلماء ! »

أما الذين يخشون الناس ، فهم حثالات بشرية وأدعياء ومسرحيون ، همهم حطام الدنيا ، وليس لهم في الآخرة من نصيب !

انهم دوائر معارف سيارة ، تصلح للبيع والشراء ، وليس للهدم والبناء !!

انهم حريصون على عواطف العوام ، راغبون في تأييـدهم من أجل منصب نالوه أو معركة انتخابية سيخوضونها او قبلات للايدي سيحرمون منها!

انهم مستعدون لاخفاء تعاليم الاسلام وتضليل العامة والتعمية عليهم بسبب هذا التملق الذي لانهاية له ، وهذا الاسترضـــاء البغيض لايجتمع مع الايمان الصحيح في قلب مؤمن !

انهم حريصون على ثناء الناس ، واذا تقدوهم حرموا هذا الثناء !

وما علموا أن من أثنى عليه الناس جميعاً فهو منافق !

وان المؤمن لايكمل ايمانه حتى يستوي عنده المدح والذم في سبيل الحق !

ولا يكون العالم عالماً حقاً حتى يبين للناس ما نزل اليهم .

ألم يأخذ الله ـ تعالى ـ المواثيق من العلماء أن يبينوا الحقيقة ؟.

يا أيها الناس !

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون »

في الصفحات التالية آراء حرة وأفكار صريحة وحقائق واضحة تكشف للناس عن أضاليل حسبوها عبادة ، ووثنيات ظنوها ولاية ! فاجأتهم بها مفاجأة ، غير حاسب لرضاهم او بغضهم حسابا ولا وزنا ، كل ذلك من أجل نصرة الحق، وتحقيق سعادة المسلمين، فانه ليس اخطر على الناس من الدين المشوب بالاوهام والاساطير والبدع، لذا يسارع الدعاة الى الاصلاح الديني من اجل تطهير الاسلام ، مما لحق به من هذه الاوهام والبدع والاساطير لتعود له نقاوته وترجع له قوته لينطلق بأتباعه كما انطلق من قبل ، في ميادين العظمة والمجد والخلود !

حقاً اننا نعالج أمراً – كما قال بعض المصلحين – لايعين عليه الا الله ، قد فني فيه الكبير وشاب عليه الصغير ، وهاجر الاعرابي، يحسبونه دينا لا يرون الحق غيره ! لذا كانت مهمتنا شاقة صعبة، واصلاحاتنا خطيرة غريبة، سائلين الله سبحانه أن يحقق فينا في هذا الكتاب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً ، فطوبى للغرباء . الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي من بعدي »

ولا بد في خاتمة هذه الكلمة الصريحة من الاعلان بانني لم آت أمراً مبتكراً ، انما كنت ناقلا ، ومتبنياً مانقلت ، واذا قسوت في بعض نقدي ، فذلك لاني وجدت حقيقة يغطي الخرافيون وجهها المضيء، وضلالاً ايراد فرضه على الاسلام العظيم، فتملكتني أحياناً بعض سورة الغضب المشوب بالالم ، فاخرجتني عن جادة الاعتدال ، غيرة على ديني من الذين يزعمون انهم حجته وأولياؤه ، « وما كانوا اولياءه ان أولياؤه الا المتقون » العالمون . ومهما كان من أمر هذه القسوة ، ، فانني لست معرضاً فيها .

انني في طريقي الى العقد السادس في السن التي يؤمن الكافر ويتوب الفاجر ، فكيف أغش وكيف أجادل في الباطل ، والله – سبحانه – يطلع على بواطن الافئدة وما تخفي الصدور ?.

والمولى – تعالى – أسأل أن يشرح صدور الناس لما في هذه الصفحات من الحق لنتعاون معاً في سبيل تحقيق دعوة الاسلام الصحيحة التي يتوقف عليها بناء نهضتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . كما أسأله – جل شأنه – أن يلهم الغيورين من المصلحين الى نقد ما كتبت نقداً علمياً يعتمد على الحق وحده .

« ان أريد الا الاصلاح مااستطعت ، وماتوفيقي الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب » ..

محمود مهدي استانبولي